

المكتبة الأدبية

عِبْرَةُ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ

تأليف
الدكتور زكي مبارك

الجزء الأول

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٧ م

النشر

مكتبة الثقافة الدينية

526 شارع بورسعيد - القاهرة

ت/ 5922620 - 5938411 / فاكس: 5936277

E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

2005 /15867	رقم الايداع
977-341-240-7	الترقيم الدولي I.S.B.N.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

باسم الله الذي أمدني بالصبر على مكاره الحياة الأدبية، باسم الله الذي حجب إلي الأنس بعناء البحث والدرس في غفوات الليل، باسم الله أقدم الطبعة الثانية من كتاب "عبقرية الشريف الرضي" مصحوبة بزيادات وتحقيقات رجوت بها أن يكون كتابي هو الفيصل في قضاء حق الشريف.

وهذا الكتاب هو صورة من صور النشاط الذي بذلته حين تشرفت بخدمة العلم والأدب بدار المعلمين العالية في بغداد، وهو عزيز علي جداً؛ لأنه جعل لي مقام صدق في الأقطار العربية والإسلامية ولأنه من كرائم الذكريات التي خلفتها في ديار الرافدين؛ ولأن القلم جرى فيه بأسلوب ما أحسبني سبقت إليه في شرح أغراض الشعراء، حتى كدت أتوهم أي طففت بأودية لم تعرفها الملائكة ولا الشياطين!

وما تذكرت عهدي بدار المعلمين العالية في بغداد إلا ذكرت بالخير تلامذتي وزملائي هناك، فقد كانت أيامي في صحبتهم من أخصب العهود في حياتي. حفظ الله عليهم نعمة العافية، وجعلهم من ذخائر الأدب الرفيع!

هذا، وقد كان قيل: إني احتفلت بالأسلوب في هذا الكتاب، وأقول: إني لم أتعمد ذلك، فقد كانت المطابع تأخذ المواد ورقة، ورقة بحيث لم أستطع مراجعة ما كنت أكتب من أفانين البحوث، وكنت حينذاك أغذي مطبعتين في وقت واحد، مع الاشتغال بأصول كتاب "وحي بغداد" وكتاب "ليلي المريضة في العراق" وكتاب ثالث سيعلم القراء أنباءه بعد حين، وتلك جهود لا يتسع معها الوقت للزخرف والتنميق.

ولنا فتن بأسلوبي في هذا الكتاب من فتن لأنه رآني أقبس من النار التي

قبس منها الشريف، ومن هنا جاز لأحد الفضلاء أن يقول في إحدى مجالات بغداد: "إن نثر زكي مبارك له روعة تفوق روعة شعر الشريف في بعض الأحيان" فإن صح ذلك القول فهو شاهد على قوة الصلة بيني وبين الشريف، وهو أيضا من علائم التوفيق، فما كان يجوز أن نلقى الشريف إلا بنثر يماثل شعره في القوة والعدوبة والصفاء.

أيها الشريف!

لقد قضيت حقك وأنصفتك، وأيدت مركزك في عالم الخلود، بلا من عليك، وهذا كتابي أقدمه هدية إليك بمناسبة مرور ألف سنة على ميلادك، وأنا أحمد الله الذي وصل جناحي بوطنك لأحلق في الجو الذي عشت فيه فأرى أسرار قلبك وسرائر روحك، وألقاك وجها لوجه بين مدارج الرشد والغبي في ضمائر "الزوراء".

وأرجو -أيها الشريف- أن تنسى بعض ما قدمت إليك من إساءة في هذا الكتاب، فمن واجب الصديق أن ينسى هفوات الصديق، إذا صدرت عن إخلاص للأدب وغيره على التاريخ.

محمد زكي عبد السلام مبارك

مصر الجديدة في: ١٤ صفر سنة ١٣٥٩ هـ

٢٣ آذار سنة ١٩٤٠ م

عبقرية الجندي المجهول

أيها السادة:

من طرائف ما اصطاح الناس عليه في العصر الحديث إقامة ضريح يحج إليه المشغوفون بتقديس البطولة والأبطال، وهو الذي يسمونه قبر الجندي المجهول، وذلك القبر يضم عظاما لا يعرف صاحبها على التحقيق، ولكنها في أذهان الناس رمز التضحية والإخلاص.

قد يكون ذلك الجندي أشجع الجنود، وقد يكون أجبن الجنود، ولكنه في جميع أحواله أسعد الأموات؛ لأن النار المقدسة تظل مشبوبة فوق قبره صباح مساء؛ ولأن قبره يظل كعبة تقدم إليها أطيب القرابين، من الأزهار والرياحين فهو إن كان في حقيقة أمره من أشجع الجنود حمد الطالع السعيد الذي قضى بأن ينال حقه فيكون رمز الوفاء، وإن كان من الضعفاء الجبناء شكر الله على أن ستر حاله فأضافه إلى الشهداء.

وإقامة الضريح للجندي المجهول هي أعظم تعزية لأرواح الأبطال الذين جهلت أقدارهم بعد الموت، فكلهم يرجو أن يكون الصورة التي يتمثلها من يزور قبر الجندي المجهول، وكلهم يرجو أن يكون له حظ من الذكرى ومن الدموع يوم يحج الناس إلى ذلك القبر في المواسم والأعياد.

ولكن حدثوني، أيها السادة، كيف يكون شعور الروح، روح الجندي المعروف لا المجهول، حين يمر الناس على قبره فلا تلوح لهم من وجهه صورة، ولا يعترضهم من روحه مثال؟

كيف يكون شعور الروح، روح القائد المغوار الذي يمر الناس على قبره فلا يذكرون كيف صارع النوائب وصاول الخطوب؟

حدثوني كيف يكون شعور ذلك الروح، وكان في دنياه أرق من الزهر،

وأقسى من الزمان؟ ولو كان ذلك الروح يعرف أن عظامه دفنت في أرض موات لهان عليه خطب النسيان!

ولكنه يعرف أن عظامه دفنت في أرض تخرج أطيب الثمرات، وتختال بمن يمشي فوقها من أقطاب الرجال، كيف يكون شعور ذلك الروح في تلك الأرض: الروح الذي اسمه "الشريف الرضي" في الوطن الذي اسمه "العراق"؟

ولكن مهلا فلن ينسى الشريف الرضي بعد اليوم، فستنشر ذكراه في جميع الأقطار العربية، وسيذكر في أكثر اللغات الأجنبية، وسيحيا شعره على الألسنة والقلوب فيما سيأتي من الأجيال.

قد تسألون: وكيف تحكم على الشريف الرضي بالخمول وهو جد معروف؟ وأجيب بأن الشريف الرضي لقي في دنيا الأدب أعنف ضروب العقوق، فهو أفحل شاعر عرفته اللغة العربية، وأعظم شاعر تنسم هواء العراق، ومع ذلك سكت عنه النقد الأدبي فلم يؤلف عنه كتاب ولا فصل جيد من كتاب، ولو كان ديوان الشريف الرضي في لغة الفرنسيين أو الإنجليز أو الألمان لصنفت في شعره مئات المصنفات وأقيمت له عشرات التماثيل.

أليس من العجيب أن يطبع ديوان الشريف الرضي منذ ثلاثين سنة في وطن غير وطنه ثم لا يعاد طبعه بعد ذلك الحين.

أليس من العجيب أن لا يعرف قبر الشريف الرضي على التحقيق فيقام له ضريح في الكاظمية، مع أن مترجميه ينصون على أنه دفن في كربلاء؟

أليس من العجيب أن يسألنا الأستاذ على الجارم بك المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف المصرية عن المصدر الذي يرجع إليه في أبيات الشريف:

لقد وقفت على دينارهم وطلوها بيد البلى نهب
فبكيت حتى ضج من لغب نضوى ولج بعنلي الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

وأن يجزم بأنه لم يرها في ديوان الشريف مع أنها مثبتة في الديوان، وكان ذلك دليلا على أن الشريف منسي لا يعرف ديوانه رجل في منزلة الجارم وهو شاعر مجيد؟!

على أن الأبيات لم يعرفها الأدباء إلا أنها اتصلت بحادثة وجدانية تناقلها المؤلفون، ولولا ذلك لظلت مطمورة لا يرونها سامر ولا يتمثل بها خطيب.

قد يكون فيكم من ينكر أن يكون الشريف الرضي من الخاملين.

وأنا أيضا أنكر ذلك الخمول.

ولكن حدثوني في أي ميدان كانت نباهة الشريف عند المؤلفين والناقدين؟

لقد تكررت الإشارة إلى اسمه عند القدماء من المؤلفين بالعربية، وعند المحديثين من المستشرقين الذين نوهوا باسمه في اللغات الأوروبية.

ولكن كيف وقع ذلك؟ لقد وقع في معرضين: الأول: في التاريخ السياسي حين تحدث المؤرخون عن النضال بين الفاطميين في مصر والعباسيين في العراق، فقد حدثوا أن الشريف الرضي قال: في التعريض بحكومة الخليفة القادر بالله.

ما مقامي على الهوان وعندي مقول صارم وأنف همي
وإباء مخلوق بي عن الضيم كما راغ طائر وحشي
أي عذر له إلى المجد إن ذل غلام في غمده المشرفي

ألبس الذل في ديار الأعادي
 من أبوه أبي ومولاه مولا
 لف عرقي بعرقه سيدا النسا
 إن ذلي بذلك الجسو عز
 قد يذل العزيز ما لم يثمر
 إن شرا علي إسراع عزمي
 أرتضي بالأذى ولم يقف العز
 تاركاً أسرتي رجوعاً إلى حي
 كالذي يخبط الظلام وقد أقـ

وبمصر الخليفة العلوي
 ي إذا ضامني البعيد القصي
 س جميعاً محمد وعلي
 وأوامي بذلك النقع ري
 لانطلاق وقد يضام الأبي
 في طلاب العلا وحظي بطي
 م قصورا ولم تعز المطي
 ث عذيري قد ورعي وب
 مرم من خلفه النهار المضي

ولهذه الأبيات قصة أشار إليها ابن أبي الحديد، ولولا صلتها بالتاريخ السياسي لسكت عنها الكاتبون، وللسبب عينه تحدث المؤرخون عن أبياته في خطاب الخليفة القادر بالله:

عظفا أمير المؤمنين فإننا
 ما بيننا يوم الفخار تفاوت
 إلا الخلافة ميزتك فإنني
 في دوحه العلياء لانفراق
 أبدا كلانا في المعالي معرق
 أنا عاطل منها وأنت مطوق

أما المعرض الثاني الذي أثير فيه اسم الشريف الرضي: فهو الكلام عن صحة النسب، نسب كتاب نهج البلاغة الذي جمع فيه الشريف ما أثار عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- من الخطب والحكم والعهود، فقد ارتاب بعض الناقدین في نسب ذلك الكتاب ورجحوا أنه من إنشاء الشريف. والمقام لا يسمح بتحقيق هذه القضية، وقد أشرت إليها في كتاب النثر الفني " فلا أعود إليها الآن، وإنما يهمني أن أسجل أن الثورة على نهج البلاغة كانت السبب الثاني في نباهة الشريف، وإنما كانت كذلك؛ لأن الكتاب

منسوب إلى علي بن أبي طالب، وهو في جوهره يؤرخ أخطر المعارك القلمية والخطابية في العصر الإسلامي، وتصحيحه أو تزييفه يعد من المواقف الحاسمة في ذلك التاريخ.

فتصوروا كيف يكون الحال لو لم تشأ المقادير أن يقرن اسم الشريف الرضي باسم علي بن أبي طالب؟! تصوروا كيف كانت تحمل ذكراه وهو كاتب مبدع لا يعرف التاريخ الأدبي له أثرا في النثر الفني إلا حين يدعي أنه المنشئ لتلك الخطب والحكم والعهود؟!.

كان من حظ الشريف الكاتب أن يقرن اسمه باسم علي بن أبي طالب، وإلا فحدثوني أين رسائله الطوال التي كانت تقع في ثلاثة مجلدات؟

تقولون: إن التاريخ الأدبي تحامل على الشريف بسبب التشيع، إن صح ذلك، فحدثوني كيف سكت عنه أدياء مصر والشام والحجاز والمغرب والأندلس وهم لا يعرفون العصبية ضد التشيع؟ بل حدثوني كيف سكت الشيعة أنفسهم عن رسائل ذلك الكاتب البليغ؟.

تقولون: إن للشريف الرضي قبة تزار بالكاظمية؟

أهلا وسهلا، ولكن هل تعرفون لأي معنى يزور الناس قبه بالكاظمية؟

أعيذكم أن تقولوا إنهم يزورونها باسم الأدب والبيان.

إنهم يزورونها لمعنى ديني صرف، كما يزور المصريون قبة عمر بن الفارض، ولولا ما شاع وذاع من أن ابن الفارض من الأولياء لما عرف المصريون أن له ضريحا يزار وتلمس به البركات، وهل عرف المصريون قبر ابن هشام الأنصاري الذي رفع القاهرة مكانا عليا وجعل هامتها في النحو مساوية لهامة بغداد؟

هل عرف المصريون قبر ابن خلدون الذي يعد أشرف وأعلم من درسوا بالأزهر الشريف؟

هل عرف المصريون قبر القلقشندي الذي دان اللغة العربية بأفضل كتاب في تاريخ الإنشاء وهو "صبح الأعشى"؟

هل عرف المصريون قبر النويري أول مؤلف في الموسوعات العربية؟

هل عرف المصريون قبر ابن منظور صاحب المعجم الباقي على الزمان، صاحب لسان العرب الذي ألفه وهو جالس على الحصير الممزق بحي الحسينية؟

وكيف تقولون إن الشريف الرضي خمل بفضل التشيع وهو مذهب له قواعد وأصول، ومع أن المجون كان من أسباب شهرة أبي نواس، ومع أن الزندقة كانت من أسباب شهرة أبي العلاء؟

أفي الحق أن الرجل لا يشتهر إلا إن أصبح على وفاق مع جميع الناس؟

أفي الحق أن الفضل وحده يسمو بالرجل إلى أرفع الدرجات؟

إن قلت ذلك فقد تحدثكم شواهد العصر الحاضر بصد ما تقولون، ألسنا في هذا العصر فرائس للتيارات الاجتماعية والسياسية؟

ما هي الأسباب التي قضت بشهرة محمد عبده وقاسم أمين؟

هل يعرف أحد اليوم أن محمد عبده كان في حقيقة أمره من العلماء المحققين الذين يدركون أسرار العلوم العقلية والنقلية؟ هيهات، إنه لا يعرف إلا بفضل نضاله الدموي في إصلاح المناهج الأزهرية والثورة العرابية، ولو رفع هذان الحادثان من حياته لما عرف له تاريخ!

هل يفهم أحد اليوم أن قاسم أمين كان من أقطاب التشريع؟ هيهات هيهات، إنه لا يعرف إلا بفضل ثباته في الدعوة إلى السفر وحرب الحجاب.

أمتم الآن بأن الشريف الرضي لم ينل الشهرة إلا بفضل المشكلات السياسية والدينية؛ ثم تسألون: ولكن كيف كتب على الشريف الرضي أن يرزأ في عالم الشعر بذلك الخمول؟

ونجيب بأن الأمر كان كذلك؛ لأن أدباء اللغة العربية ندر عندهم أن يكون الفن وحده هو مرجع النباهة والشهرة وبعد الصيت، فامرؤ القيس لم تكن شاعريته سبب شهرته، ولولا انتقاله من أرض إلى أرض، وموته مسموما في سبيل الثأر لأبيه لما ذكره الذاكرون؛ وطرفة بن العبد لم يسر ذكره إلا لموته قتيلا وهو في سن العشرين؛ وحسان لم يشتهر إلا لأنه كان شاعر الرسول؛ والشاعر المفلق أبو نواس لم تكن شاعريته سبب شهرته، وإنما اشتهر بفضل اشتراكه وهو راغم في فتنة الأمين والمأمون؛ وأبو تمام لم يشتهر بفضل شاعريته، وإنما اشتهر لأنه سجل في شعره حادثة رجت الأرض وهي فتح عمورية، والبحثري لم يشتهر بفضل شعره، وإنما اشتهر لأنه حضر مأساة دونها التاريخ وهي شهوده قتل المتوكل والفتح بن خاقان؛ والمتنبي لم يكن شعره سبب شهرته، وإنما اشتهر بفضل حادثتين ظاهرتين:

الأولى: رحلته إلى مصر في سبيل المجد؛ والثانية: موته قتيلا بالبيداء.

ولم يتفق للشريف الرضي شيء من ذلك، فقد كان يطلب الخلافة سرا لا علانية، ولو تم له ما أراد من الملك لعرف الناس شاعريته وسطروا في الثناء عليه مئات التاليف؛ ولكنه مات ميتة عادية، فلم يذكر الناس يوم موته إلا أنه رجل شريف ينبغي أن يدفن بجانب جده الحسين في كربلاء.

ولست بهذا أتمجنى على أسلافنا من أدباء اللغة العربية، وإنما أذكر حقائق مؤلمة كانت السبب الأصيل في انحراف الموازين.

فإن لم يكن ذلك صحيحاً فحدثوني عن المشهور من قصائد الشريف؟

أليست قصيدته في رثاء أبي إسحاق الصابي أشهر شعره؟ بلى، هي كذلك، فهل تعرفون أن تلك القصيدة لم تستهر إلا بفضل ما اتصل بها من الشذوذ، إذ كانت في رجل صابغ يرثيه سيد شريف؟

فإن تخطيتم هذه القصيدة لم تجدوا من يعرف عيون القصائد في ديوان ذلكم الشاعر العظيم.

أين من يعرف الدالية:

جـرى التسيـم على ماء العناقيد وعللي بالأمانـي كسل معمود
يا نـفحة هزت الأحشاء شائقة فذكرت نـفحات الخرد الغيد

أين من يعرف العينية:

منابت العـشب لا حام ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع

أين من يعرف اللامية:

أمل من مـثانيها فهذا مقيلها وهذي مغاني دورهم وطلولها

ولو كان أسلافنا من أدباء اللغة العربية تستهويهم المعاني مجردة عن الحوادث الدامية لوجدوا في أشعار الشريف أوسع مجال، فسترون عنده كرائم الطيبات، سترون أن ذلك الرجل عانى في حياته أعنف أزومات الوجدان، سترون كيف كان الرجل يشغل أعظم وظيفة دينية وهي نقابة الأشراف ثم يكون في الوقت نفسه أعظم شاعر يتغنى بالحب والجمال، سترون أن الشريف الرضي تفرد بوصف مواسم العيون والقلوب في قصائده الحجازيات، سترون أنه قال في الصداقة والأصدقاء ما لم يسبقه إليه سابق، وما يعسر أن يلحقه فيه لاحق، سترون أن كلمة (العلا) وكلمة (المعالي) لم يهتف بهما خاطر أشرف من ذلك الخاطر، ولم يلهج بهما لسان أفصح من ذلك اللسان، سترون أن العفاف

لم يجد شاعرا يجعله أظرف من الفسق وأعذب من المجون غير ذلك الشاعر العفيف الشريف، سترون أن الأحباب الذاهبين لم يجدوا من يكيهم بأندى من ذلك الدمع وأصدق من ذلك الفؤاد، سترون أن لثام الناس لم تؤسم جباههم وجنوبهم بميسم أقوى وأعنف من قصائد ذلك الفاتك الصوال.

سترون أيها السادة أن الشريف الرضي كان شاعر القلب والعقل والذكاء؛ سترون شاعر الإنسانية يفصح عما تعاني من شهوات وأهواء وآلام وأرزاء، وأمان وآمال.

سترون أنه يحس ما تحسون اليوم، ويشعر بما تشعرون، مع أنه سبقكم إلى تنسم هواء العراق بنحو ألف سنة، وسيظل يشارك الناس في أحلامهم وأحقادهم آلاف السنين.

أفما كان في تلك الجوانب النفسية والذوقية والعقلية ما يلفت أنظار النقاد إلى ذلك الرجل لو كانوا يفهمون أقدار المعاني؟

ألم تكن هموم المجد في أشعار الشريف الرضي أولى بعناية النقاد من البحث عن سرقات المتنبي؟

ألم يكن الحرص على تدوين أوابده في نقد المجتمع أولى من الحرص على تدوين قصائد ابن الرومي في شتم الناس؟

ألم يكن فيهم من سمع الشريف وهو يصرخ فيقول:

أنا النضار الذي يضمن به لو قلبتني يمين متقد

ألم يكن فيهم من يدفعه التطلع إلى شكواه من طول الليل في بغداد إذ يقول:

ليلي ببغداد لا أقرب به كأنني فيه ناظر الرمد
ينفر نومي كأن مقلته تشرح أجفانها على ضمد

أما كان فيهم من يسأل كيف ضجر الرجل من أهل بغداد فقال يخاطب
 الثلج الذي رآه أهلها أول مرة في شهر ربيع الآخر سنة ٣٩٨هـ
 أقول له وقد أمسى مكبا على الأقطار يضعف أو يزيد
 وراءك فالخواطر بآردات على الإحسان والأيدي جمود
 وإنسك لو تسروم مزيد ببرد على ببرد لأعوزك المزيد

إن النقاد سكتوا عن ضجر الشريف من العراق؛ ولكنهم لم يسكتوا عن
 ضجر المتنبي من مصر؛ لأن ضجر الشريف من العراق لم تشهده الحوادث، أما
 ضجر المتنبي من مصر فقد صحبته خطوات تحدث بها الركبان، فكان الرواة
 والنقاد لا يلتفتون إلى الشعر إلا أن دقت من حوله الطبول.

ألا ترونهم يذكرون ما قال بشار في التعريض بخلفاء بني أمية ولا
 يذكرون ما قال الرضي في التعريض بخلفاء بني العباس؟

إنهم يذكرون أبيات بشار لأنها جرت عليه القتل، ولا يذكرون أبيات
 الرضي لأنه خرج منها بعافية، وإلا فأى شعر أخطر من شعره وهو يقول في
 التعريض بخلفاء بني العباس:

أما تحمرك للأقدار نابضة أما يغير سلطان ولا ملك
 قد هادن الدهر حتى لا قراع له وأطرق الخطب حتى ما به حرك
 كل يفوت الرزايا أن يقعن به أما لأيدي المنايا فيهم درك
 قد قصر الدهر عجزاً عن لحاقهم فأين أين ذميل الدهر والرتك
 أخلت السبعة العليا طرائقها؟ أم أخطأت نهجها أم سمر الفلك؟

لقد غفل النقاد عن المعاني الإنسانية والشخصية في أشعار الشريف
 الرضي، ولم يتحدثوا عن عيون القصائد في ديوان ذلك الشاعر القليل النظائر

والأشباه، فهل ترونهم قيدوا ما في أشعاره من الحكم والأمثال؟ هل سمعتم أن أديباً جاداً من وقته بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع في الغوص على ما في ديوان الشريف من اللؤلؤ المكنون؟

أعيذكُم أن تظنوا أن ذلك الشاعر خلا ديوانه من الأبيات النوادر التي تفصح عن بصره بخلاّيق المجتمع وسرائر الناس، فقد أستطيع أن أجزم بأنه في هذه الناحية أشعر من المتنبي؛ لأن المتنبي كان يقصد إلى الحكمة قصداً، ويتعمدها وهو متكلف، أما الرضي فكانت الحكمة تسبق إلى خاطره من فيض السجية والطبع، فيرسلها عفواً بلا تصنع ولا اعتساف.

ما رأيكم في هذا البيت:

إذ قل مالي قل صحبي وإن نما فلي من جميع الناس أهل ومرحب

وهذا البيت:

يغر الفتى ما طال من جبل عمره وترخي المنايا برهة ثم تجذب

وهذا البيت:

وآمل أن تقي الأيام نفسي وفي جنبتي لها ظفر وناب

وهذا البيت:

تفدي الفتى في عيشه ألسن وماله من حتفه فاد

وهذا البيت:

كل حيبس يهون عند الليالي بعد حبس الأرواح في الأجساد

وهذا البيت:

علامة العز أن حسدت به إن المعالي قرائن الحسد

وهذا البيت:

ينال الفتى من دهره قدر نفسه وتأتي على قدر الرجال المكابد^(١)

وهذا البيت:

يعرفك الإخوان كل بنفسه وخير أخ من عرفتك الشدائد

وهذا البيت:

ليس الغريب الذي تنأى الديار به إن الغريب قريب غير مودود

وهذا البيت:

ما الفقر عار وإن كشفت عورته وإنما العار مال غير محمود

وهذا البيت:

إذا بزني مالي عطاء تركته حميدا وطالبت القواضب بالرد^(٢)

وهذا البيت:

إذا الشمس غاضت كل عين صحيحة فكيف بها في هذه المقل الرمذ

وهذا البيت:

كل جواد كاذب في الوعد وكل خل خائن في الود

وهذا البيت:

واها النفس حبست في جلدي إن الأسير غرض بالقد^(٣)

(١) في هذا البيت معنى يغير قول المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

(٢) القواضب: السيوف القواطع.

(٣) الغرض - بكسر الراء - المتضجر، والقد: بالكسر القيد.

وهذا البيت:

وتعاب الزمان مثل عتاب العين تنهسى ودمعها بازدياد

وهذا البيت:

وما هذه الدنيا لنا بمطبعة وليس لخلق من مداراتها بد

وهذا البيت:

والمال أهون مطلباً من أن أرى ضرعاً أرامسي دونه وأداري

وهذا البيت:

نالوا على قدر الرجا وإنما يروى على قدر الأوام الصادي

وهذا البيت:

ما أنصف الفاسق في لحظه لما أرانا عفة العابد

وهذا البيت:

كنت أدوي كنيدي لو تركوا لي كبداً^(١)

وهذا البيت:

وإن حديث النفس بالشيء دونه رمال النقا من عالج لشديد

وهذا البيت:

وجدوا وما جادوا ومحتسب للسوم من أئسرى ولم يجد

وهذا البيت:

أما كان فيكم مجمل أو مجامل إذا لم يكن فيكم أغر جواد

(١) وقد رأيت في قصة غرامية فهل يكون ورد في شعر الشريف عن طريق الاقتباس؟

وهذا البيت:

لنيل وقد رأيت البحارا^(١)

ما مقامي على الجداول أرجوه

وهذا البيت:

مشى النوم في مقلّة الساهر

إذا قيد الليل خطو المنى

وهذا البيت:

حتى الظلام يعادي النهارا

لحسا الله دهرا كثير العدو

وهذا البيت:

وجل بقاعه قبل الفجور

وكيف يتم في بلدة صلاة

وهذا البيت:

م إن فسقت سرائره

وما فخر العفيف الجسد

وهذا البيت:

في رونق الصفو ما يغني عن الكدر

من يعشق العز لا يرنو لغانيه

وهذا البيت:

حتى يصمم منه الناب والظفر

والليث لا ترهب الأقران طلعتة

وهذا البيت:

قد يفجع العود بالأوراق والثمر

ما كل نسل الفتى تزكو مغارسه

وهذا البيت:

ذلا وشر الحبال الحية الذكر

كم حاطب خانة جبل فأقعصه

(١) وهو ينظر إلى قوله المتنبّي: ومن قصد البخر استقل السواقيا.

وهذا البيت:

سالم تصاريف الزمان فمن يرم حرب الزمان يعد قليل الناصر

وهذا البيت:

لو كان حفظ النفس ينفعنا كان الطيب أحق بالعمر

وهذا البيت:

كل يوم نذم للدهر عهدا خان فيه ونشتكي منه غدرا

وهذا البيت:

إنما المرء كالقضيبي تراه يكتسي الأخضر الرطيب ليعرى

وهذا البيت:

إذا تناءت بنا قلوب فلأتدانت بنا ديار

وهذا البيت:

ومن قيد الألفاظ عند نزاعها بقيد النهي أغتته عن طلب العذر

وهذا البيت:

والحر تنهضه إما شجاعته إلى الملم وإما خشية العار

وهذا البيت:

وهل نافعني يوم أقضي صدى إذا صاب وادي قومي المطر^(١)

(١) هذا البيت ينظر إلى قول أبي فراس الحمداني:

معلتني بالوصل والموت دونه إذا مت ظمأنا فلا نزل القطر

وهذا البيت:

والناس أسد تحامي عن فرائسها إما عقرت وإما كنت معقورا

وهذا البيت:

وليس كل ظلام دام غيبه يسر خابطه أن يطلع القمر

وهذا البيت:

ما كسل ثمرة تحلوا لذائقها إن السياط لها من مثلها ثمر^(١)

وهذا البيت:

وهبك اتقيت السهم من حيث يتقى فمن ليد ترميك من حيث لا تدري

وهذين البيتين:

يقولون نم في هداة الدهر آما هل الحرب إلا ما ترون نقيصة
فقلت ومن لي أن يهادني الدهر من العمر أو عدم من المال أو عسر

وهذا البيت:

وهل نافع يوما وجدك راجل إذا قيل يوم الروع إنك فارس

وهذا البيت:

إن زدتهم فلقد نقصتهم ومن المخازي عند لابسها
إن الزيادة بالسشغا نقص^(٢) ما لا تواري الأزرق والقمص

وهذا البيت:

(١) الثمر هنا هو العقد في أطراف السوط، والمراد: أن من الثمار ما تعافه النفس ومنها ما يجر إلى الهلاك.

(٢) الحكمة في الشطر الثاني. وللشريف شطرات كثيرة تجرّي مجرى الأمثال؛ ولكننا سكتنا عنها تجنباً للإسهاب فليراجعها في ديوانه من يشاء.

الحتف وفيه عند الهوان نكوص

يقدم الباسل الأبى على

وهذا البيت:

ومن يخزن الأموال ينفق من العرض

وكيف وفور العرض والمال وافر

وهذا البيت:

روعها إن هو لم يقطع

والسيف إن مر على هامة

وهذا البيت:

وإن حساما لا يقدر قطيع^(١)

الآن ربحا لا يصلو لنبعة

وهذا البيت:

وبعض وداد الأقربين خدوع

وبعض مقال القائلين مكذب

وهذا البيت:

ومعرج القدر المغذ المسرع

ما لبث من يمسي مجازا للردى

وهذا البيت:

فكيف أرجي ربه وهو شاسع

رأى بارقا لم يروني وهو حاضر

وهذين البيتين:

بله عن المجد إن طاروا وإن وقعوا

الناس حولك غربان على جيف

ولا عليهم إذا ما أدبروا جزع

فما لنا فيهم إن أقبلوا طمع

وهذين البيتين:

فكيف بماش يستقيم وأظلع

يقولون ماش الدهر من حيث ما مشى

على فضل ثوب الظل والظل يسرع

وما واثق بالدهر إلا كراقد

وهذا البيت:

لقد عاف أمواله من يجود وقد طلق النفس من يشجع

وهذا البيت:

بالجد لا بالمساعي يبلغ الشرف تمشي الجدود بأقوام وإن وقفوا

وهذا البيت:

ومن يشرب بصف غير رنق يرد يوماً برنق غير صافي

وهذا البيت:

كأن الليالي كن آكين حلقة بأن لا يرى فيهن شمل مؤلف

وهذا البيت:

كل شيء من الزمان طريف والليالي مغانم وحنوف

وهذا البيت:

كيف يرجو الكثير من راضه الشوق إلى أن رضي يبذل الطقيف

وهذا البيت:

وضيوف الهموم مذ كن لا ينزان إلا على العظسيم الشريف

وهذا البيت:

والحظوظ البلهاء من ذي الليالي أنكحت بنت عامر من ثقيف^(١)

(١) لما ظهر ديوان زكي مبارك اعترض أدباء العراق على هذا البيت:

لم تنسني فتنة الدنيا وزيتها ما في شمائلك الغراء من فتن

- وقالوا لا توصف الشمائل بأنها غراء، وإنما توصف بأنها غر، وأطالوا الجدل في مجلة [أبوللو]، واشترك الأب أنستاس في الجدل، وعارضنا معارضة طويلة في منزل

وهذا البيت:

إنما نلبس الدروع ثقالا لرجوع إلى خفاف الشفوف

وهذا البيت:

إذا أنت فتشت القلوب وجدتها قلوب الأعداي في جسوم الأصادق

وهذا البيت:

ما جمعي الأموال إلا غنيمة لمن عاش بعدي واتهام لرازقي"

وهذا البيت:

كم لسان دنا إليك بقلب منساقف

وهذا البيت:

ولا دار إلا سوف يجلى قطينها على نعق غربان الخطوب النواعق

وهذا البيت:

وما العيش إلا غمة وارتياحة ومفترق بعد الدنو وملتقي

وهذا البيت:

أراك تجزع للقوم الذين مضوا فهل أمنت على القوم الذين بقوا

وهذا البيت:

وإذا الحلیم رمى بسر صديقه عمدا فأولى بالوداد الأحمق

الدكتور بشر فارس، والآن نرى الشريف يصف الخطوظ بأنها بلهاء لا بله، فليقل العراقيون المعركة إلى شاعر العراق.

(١) في الديوان "اتهاما" بالنصب وهو تحريف، ويظهر أن مصحح الديوان ظن أن خبر "ما" منصوب، وهو كذلك في غير هذا الموضع.

وهذا البيت:

كفى بقوم هجاء أن مادحهم يهدي الثناء إلى أعراضهم فرقا

وهذا البيت:

سابق فلسيس تنال أغراض المنى إلا سابقا

وهذا البيت:

وليس ينال الأمر إلى بحازم من القوم أحمي ميسا ثم ألقا

وهذا البيت:

ولا تزرعوا شوك القتاد فإنكم جديرون أن تدموا به وتشاكوا

وهذا البيت:

أبتغى عدل زمان قاسط^(١) إنما الناس على دين الملك

وهذا البيت:

وللنفس من عجز الفتى وزماعه زمام إلى ما يشتهي وعقال

وهذا البيت:

ولا تسمعن من حاسد ما يقوله فأكثر أقوال العداة محال^(٢)

وهذا البيت:

وليس بأتلف الإحسان في ملك حتى يؤلف بين القول والعمل

وهذا البيت:

كل حبيب أبدا أيامه قلائل

(١) القاسط: الجائر.

(٢) المحال - بكسر الميم - المكر والدهاء.

وهذا البيت:

وما من دواء الـداء إن ما طل كي عاجل

وهذا البيت:

وما طلب البذل من باخل بميسوره غير داء عضال

وهذا البيت:

وإن طراد النفس عما ترومه أشد عناء من طراد قبيل^(١)

وهذا البيت:

وأول لؤم المرء لؤم أصوله وأول غدر المرء غدر خليل

وهذا البيت:

ألا إنما الدنيا إذا ما نظرتها بقلبك أم للبنين أكول^(٢)

وهذا البيت:

وإني رأيت غني الأنعام إذا لم يكن ذا علاء مقللا

وهذا البيت:

النفس أدنى عدو أنت حاذره والقلب أعظم ما يبلى به الرجل

وهذه الأبيات:

عبادة للزمان في كل يوم يتتأى خل وتبكي طول
فالليالي عون عليك مع البـ ين كما ساعد الذوابل طول
هي دنيا إن واصلت ذا جفت هذا ملالا كأنها عطلول

(١) في الديوان (قتيل) وهو تحريف.

(٢) في الديوان (ثكول).

ل بقاء والثاكل المنكول

كل باك ييكي عليه وإن طا

وهذا البيت:

شروب لأعمار الرجال أكول

نؤمل أن نروي من العيش والردى

وهذا البيت:

إذا جاور الأيام وهو ذليل

وموت الفتى خير له من حياته

وهذا البيت:

بكاه خليل أم سلاه خليل

ومن مات لم يعلم وقد عاتق الثرى

وهذا البيت:

وكم يبقى الرمي على النبال

نغالب ثم تغلبنا الليالي

وهذا البيت:

وهون الموت ما تلقى من العلل

سلي عن العيش أنا لا ندوم له

وهذا البيت:

كرامة البيت وعز القبيل

هل نافع نفسك أذلتها

وهذا البيت:

يعذب قلبي أو طواني على دخل

وسيان عندي من طواني على جوى

وهذا البيت:

وكل عزيز لا يجود ذليل

وكل قى لا يطلب المجد أعزل

وهذا البيت:

بأشجع ممن يكره المال في البذل

وما الكرهون السمهرية في الطلل

وهذه الأبيات:

ع فـمـا العـز بـمـا ل
ت أو السـمـر الطـوـال
مـن شـرى عـزاً بـمـال
ل لـحـاجـات الرـجـال
وال أئـمـان المـعـالي

اشـتر العـز بـمـا بـيـد
بـالقـصـار الصـفـر إن شـئ
لـيس بـالمـغـبـون عـقـلا
إنـمـا يـدخـر المـا
والفـتـى مـن جـعـل الأـمـ

وهذا البيت:

فإن الضائر العقول

إذا ما نفع الجهل

وهذا البيت:

بمفتقد إذا بقي الضرام^(١)

وما شرر تطاوح عن زناد

وهذا البيت:

دون الكرى مضطرب الأرقم

وكيف نوم المرء من تحته

وهذا البيت:

على مضض لم تبق لحما ولا دما

إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته

وهذا البيت:

كالنار يخلفها الرماد المظلم

كالغيث يخلفه الربيع وبعضهم

وهذا البيت:

الأجداد للقوم النيام

هبوا فقد تنسيقظ

(١) تأمل روعة الخيال في هذا البيت.

وهذا البيت:

ما الذنب للمزن جازتني مواطره وإنما الذنب للأرزاق القسم

وهذا البيت:

إن من خاضت النواظر فيه لحرر أن تخوضه الأقدام

وهذا البيت:

وما الليث إلا من يدل بنفسه ويمضي إذا ما بادته العظام

وهذا البيت:

لا تصفحن عن المليم إذا جنى وإذا المضارب أمكتك فصم

وهذا البيت:

لا يذخر الضيفم من قوته ما يذخر النمل من المطعم

وهذا البيت:

قد يبلغ الرجل الجبان بماله ما ليس يبلغه الشجاع المعدم

وهذا البيت:

قد يقدح المرء وإن كان ابن عم ويقطع العضو الكريم للألم

وهذا البيت:

وما كل ليث يغنم القوم زاده إذا خفقت تحت الظلام المضراغم

وهذا البيت:

إذا العدو عصاني خاف حد يدي وعرضه آمن من هاجرات فمي

وهذا البيت:

ولو أمن الجبان من المنايا لأغمد سيفه البطل المحامي

وهذا البيت:

من أضر الصد عن ليس يضره بغيا مثي في نواحي سره الندم

وهذا البيت:

وغير بعيد منك ناء تزوره وغير قريب قاطن لا تؤمه

وهذا البيت:

أضعت الهوى حفظا لحزمي وإنما يصان الهوى في قلب من ضاع

وهذا البيت:

تشف خلال المرء لي قبل نطقه وقبل سؤالي عنه في القوم ما اسمه

وهذا البيت:

ولا تياسن من عفو حر فإنها تحلمه باق إذا ضاع حلمه

وهذا البيت:

فلا عار أن تستنجد الكأس راحة أضر بها حمل الجزار المصمم

وهذا البيت:

تضي الزمان ولا نحس كأنه ريح تمر ولا يشم نسيمها

وهذا البيت:

كم ذاهب أبكى النواظر مدة ومضى وطاب لقلته تهويمها^(١)

وهذا البيت:

ونلقي قبل لقيان المنايا رماح الداء تطعن في الجسوم

(١) التهويم: النوم القليل.

وهذا البيت:

فليت كريم قوم نال عرضي ولم يلدنس بحمد^(١) من لثيم

وهذا البيت:

تملي المقادير أعمارا وتنسخها ويضرب الدهر أياما بأيام

وهذا البيت:

نصف عيش المرء نوم والذي يعقل العاقل منه كالحلم

وهذين البيتين:

والحر من حذر الهوا والضميم أروح منه مط
ن يزايل الأمر الجسيا رور الظبا بلغ الصميا^(٢)

وهذا البيت:

وخاطر على الجلي خطار ابن حرة وإن زاحم الأمر العظيم فزاحم^(٣)

وهذا البيت:

لا تصحين دهرك إلا خائفا فراق إلف ونبوا عن وطن

وهذين البيتين:

ومنظر كان بالسراء يضحكني هيهات أغتر بالسلطان ثانية
يا قرب ما عاد بالضراء يبكينني قد ضل ولاج أبواب السلاطين

وهذا البيت:

لا تخلدن إلى أرض تهون بها بالدار دار وبالجيران جيران

(١) في الديوان (بذم) والذي أثبتناه أقوى من الوجهة الشعرية.

(٢) المطرور: المحدد، والظبا: جمع ظبة وهي حد السيف أو السنان.

(٣) الجلي: الأمر العظيم.

وهذا البيت:

إذا الفتى كان في أفعاله شوه لم يغن أن قيل إن الوجه حسان

وهذا البيت:

يا قوم إن طويل الحلم مفسدة وربما ضر إبقاء وإحسان

وهذا البيت:

ما ينفع الماضين أن بقيت لهم خطط معمرة بعمرفان

هذا البيت:

وما خير عين خبا نورها ويمنى يد جذمتها البنان

وهذا البيت:

وما كل أصل كريم العرو ق تأبى على الغمز عيدانه

وهذا البيت:

إذا من نزل راب سكاكاته من الأرض حرم إيطانه

وهذا البيت:

وما الحب إلا فرقة بعد ألفة وإلا حذار بعد طول أمان

وهذا البيت:

إذا المرء لم يحفظ ذماما لقومه فأحج به أن لا يفى بضمان

وهذا البيت:

تعرفني بأنفسها الليلي وأنف أن أعرفها مكاني

وهذه الأبيات:

فكم صاحب تدمى علي بنانه ويظهر أن العز لشم بناني

ويجلو جبين الود حين يراني
فلما أبى مسحته بسناني
ولو لم أصبه عاجلا لرماني

لعظيم ما ألقى من الخلان
إلا على حذر من الإخوان

إذا فارقتها بالمتون يمين

أفضل عنها وتضيق عني

إذا غض من أنوارها زبرقانها^(١)

على أعين مرضى من الشتان^(٢)

كم مخبر سمج عن منظر حسن

أنامل لم يعرق بهن عنان

يضم حشا البغضاء عند تغيبي
مسحت بحلمي ضفته عن جناه
سبقت برمي قلبه فأصبتَه

وهذين البيتين:

أشكو النوائب ثم أشكر فعلها
وإذا أمنت من الزمان فلا تكن

وهذا البيت:

وما تنفع المرء الشمال وحيدة

وهذا البيت:

وسعت أيامي ولم تسعني

وهذا البيت:

وليس على زهر الكواكب سبة

وهذا البيت:

أكرر في الإخوان عينا صحيحة

وهذا البيت:

لا تجعلن دليل المرء صورته

وهذا البيت:

ورب وفاح الوجه يحمل كفه

(١) الزبرقان: القمر.

(٢) الشتان: البغض.

وهذين البيتين:

وكيد المبادي دون كيد المداهن
لدون بلوغ الخوف من قلب آمن

وشر الأذى ما جاء من غير حسبة
وإن بلوغ الخوف من قلب خائف

وهذين البيتين:

وقول الناس لم ينجح فلان
وإن بلغ العلا جد هجان^(١)

قصور الجدمع طول المساعي
أحسب إلي من سمي هجين

وهذين البيتين:

إلى المتعممين على الخزايا
وطار بمن يسف إلى الدنيا

ومن عجب صدود الحظ عنا
أسف بمن يطير إلى المعالي

وهذين البيتين:

صعب فكيف تفرق القرباء
للمنع آونة وللأعطاء

وتفرق البعداء بعد مودة
وخلاتق الدنيا خلاتق موسم

وهذا البيت:

ففتته له زاد وماء

إذا ما الحر أجذب في زمان

وهذا البيت:

أرجو فكيف إذا وبرقك كاذب

هيهات يا دنيا وبرقك صادق

وهذا البيت:

يعد محاسني لي من ذنوبي

وأعظم ما ألقى أن دهري

(١) الهجين: اللثيم، والهجان: الكريم، والمراد: أن الخيبة مع السعي النبيل أشرف من الفوز مع السعي الخسيس، فليست القيمة بالحفظ، وإنما القيمة بصدق الجهاد. وهذا معنى نفيس لا يخطر على بال شاعر إلا إن كان في مثل هذا الشريف.

وهذا البيت:

وللحلم أوقات وللجهل مثله ولكن أوقات إلى الحلم أقرب

وهذين البيتين:

تجاذبني يد الأيام نفسي وتغدرني الأقارب والأداني
ويوشك أن يكون لها الغلاب فلا عجب إذا غدر الصحاب

وهذين البيتين:

فإلي طول الدهر أمشي كأنني إذا قلت قد علقت كفي بصاحب
لفضلي في هذا الزمان غريب تعود عواد بيننا وخطوب

فما رأيكم فيما سمعتم يا أدباء بغداد!

ألا ترون أن الثروة الشعرية كانت خليقة بعناية الدارسين والناقدين؟ ألا ترون أن الشريف كان أهلاً لأن يتعقبه أحد النقاد فيدرس ما في شعره في الحكم والأمثال ثم يبين ما فيها من المبتكر والمنقول؟ أما كان أهلاً لأن يشغل به النقاد فيقولوا إنه ابتكر كيت أو سرق زيت؟

لقد رأيناهم يتعقبون المتنبي فيردون حكمه وأمثاله إلى الأدب المأثور عن قدماء اليونان فما بالهم سكتوا عن الرضي ذلك السكوت؟

أتريدون الحق أيها الأدباء؟ الحق أن النقاد شغلوا أنفسهم بالمتنبي طاعة لبعض الرؤساء، ولم يشغلوا أنفسهم به حبا في الوقوف على أصائل المعاني. إن حقد الصحاب بن عباد على المتنبي هو الذي وجه الشعراء إلى نقد شعره، وكان ذلك النقد على ما فيه من ظلام الهوى والغرض أساس الشهرة التي تمتع بها المتنبي في الحياة وبعد الممات، ولولا التحامل على المتنبي لما وجد أنصار يرفعون اسمه فوق الأسماء.

وقد حرم الشريف الرضي أسباب الشهرة من هذه الناحية، فقد حمّله التجمل والتعفف على هجر أبواب الملوك والوزراء، فلم يكن يمدح حين يمدح إلا عن حب أو مداراة، ولم يره أحد يزاحم الشعراء والأدباء على أبواب السلاطين فكان من أثر ذلك أن قل حاسدوه والحاقدون عليه، فلم يشق في ثلبه قلم ولا لسان، ولم يكن الأدب في تلك العصور يعرف الحياة إلا بفضل الممارسة والضجيج أفلا ترون معي أيها السادة أن الأدب كان حظه حظ التاريخ لا يرفع فيه علم إلا بفضل الدماء؟

لقد ولي مصر في العهد الإسلامي كثير من المتحكمين، وكان كافر أقربهم إلى الأذهان؛ لأنه أزال الغشاوة عن أعين المتنبئين، وتولى الوزارة في بغداد كثير من الرجال، وكان أقربهم إلى الأذهان أقطاب البرامكة؛ لأن سلطانهم ختم بالفجائع.

فياليت شعري متى يجيء العهد الذهبي الذي تسمو فيه الآراء بفضل ما فيها من قوة الصدق، لا بفضل من يجرسها من الجنود.

إن هذه البلية لا تزال تسيطر على العقول والأذواق، ففي عصرنا الحاضر نجد لأهل الأدب وسائل وأساليب لا تعرف المنطق ولا العدل، وتلك الوسائل والأساليب ستصنع في الأدب الحديث أمثال ما صنعت الأساليب القديمة في الأدب القديم.

وقد شكوا النقاد في فرنسا هذه البلية، إذ تبين لهم أن الكتاب والنقاد انقسموا إلى جماعات تتقارض التلطف والثناء، وهم يسمون ذلك بالكمارادري Camaraderie وتلك الكمارادري معروفة في مصر ولعلها أيضا معروفة في الشام والعراق.

وقد شكوت هذه البلية، واتفق لي أن أكون من ضحاياها في كثير من الأحيان، وما شكوته أنا شكاه سواي، فالنقاد اليوم يعرفون أصدقاءهم قبل

سائر الناس، والجرائد والمجلات قد تعامل الكتاب والشعراء والمؤلفين وفقاً لصلاتهم بمختلف الأحزاب.

أما بعد: فقد بينت لكم بعض الأسباب التي قضت على الشريف الرضي بالخمول، فهل تحبون أن أحدثكم كيف عرفت ذلك الشاعر العظيم؟

لا تظنوا أنني تلقيت الإعجاب به عن الأساتذة والأدباء، فقد كان أهل الأدب في عهد حدائتي لا يختلفون إلا حول أبي تمام والبحري والمني من بين القدماء، وشوقي وحافظ من بين المحدثين، ثم اتفق أن شرعت في سنة ١٩١٧ أولف كتاب "مدايح العشاق" فحملني ذلك على استقراء المأثور من الشعر الوجداني في مختلف العصور، وكانت فرصة ذهبية عرفت فيها الشريف الرضي شاعر القلب والوجدان.

ومنذ ذلك اليوم وأنا أحدث الناس عن القائد المعروف لا الجندي المجهول، حتى أصبح وله في مصر أشياخ يقدمونه على سائر الشعراء؛ وأصبحتهم تسمعون رنين شعره من حنجرة "أم كلثوم".

وها نحن أولاء نعود فندعو أهل بغداد إلى إحياء ذكراه؛ ها نحن أولاء نعود فتحدث عنه في المدينة السحرية التي عرف فيها كيف تندى الأزهار، وكيف تقعع الرعود، وكيف تصطبخب القلوب.

ها نحن أولاء نتحدث عنه في خشوع وقنوت، كما يتحدث المؤمن وهو في حرم المحراب.

فيا أيها الشريف: أنا في وطنك وفي ضيافتك؛ فارفع الحجب عن أسرار قلبك وسرائر عبقريتك، فبي إلى فهم روحك ظمأ لا ترويه دجلة، ولا يرويه النيل. وسلام عليك بين المصطفين الأبرار من أقطاب الشعراء!..

الشاعر المثقف

أيها السادة:

حديث الليلة عن ثقافة الشريف الرضي وبصره بالبلاغة وإحساسه قوة الكلام البليغ.

ولا يمكن تصور هذا الجانب من حياة الشريف إلا بتصور ما كانت عليه الحياة العقلية في القرن الرابع، ذلك العهد الذي رأى كيف تتصاول العقول، وكيف تصطرع الأقلام، وكيف يكون الحول والطول مقرونين بسلاح المنطق وبراعة البيان.

ففي ذلك العصر عرفت اللغة العربية نهضة أدبية لا تزال تسيطر على الأقلام والعقول إلى اليوم، في ذلك العصر نبغ: أبو الحسن الجرجاني صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه. وفي ذلك العصر نبغ: أبو بكر الباقلاني صاحب إعجاز القرآن. وفيه نبغ: أبو القاسم الأمدي صاحب الموازنة بين الطائيين: أبي تمام والبحري. وفيه ظهر أبو علي الحاتمي الذي سن المذاهب للهجوم على المتنبي. وفيه تفجرت فصاحة أبي هلال العسكري صاحب الصناعتين.

وفي ذلك العصر ظهر إخوان الصفا الذين دانوا اللغة العربية برسائلهم العميقة التي وعت معارف العرب والفرس واليونان. وفيه نبغ: أبو حيان التوحيدي، وابن مسكويه. وفيه عرف النثر الفني أقطابا عظاما لا يزالون أعلام الفصاحة وفرسان البيان، وكيف تنسى لغة العرب آثار ابن العميد، وابن عباد والهمذاني والخوارزمي والتنوخي وابن وشمكير وابن شهيد.

ومن هذه الإشارات ترون القرن الرابع تميز بمزايا ثلاث: النقد الأدبي، والجدل العقلي، والنثر الفني؛ وهي مزايا كانت تفرق ما شاء لها الزمن الجائر؛

فيرى بعضها في الشام، وبعضها في مصر، وبعضها في الأندلس، ولكنها كانت تجتمع في بغداد؛ وكانت بغداد وطن الشريف كما تعلمون.

وصورة بغداد في القرن الرابع تتمثل في قول صاحب ابن عباد في خطابه إلى ابن العميد: "بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد" وتتمثل أيضا في الجزع على فراقها، الجزع الموجه الذي أحسه أبو العلاء؛ وأبو العلاء كما تعرفون كان يرى الدنيا بأذنيه لا بعينيه، فلما قدم بغداد رأت أذناه ما لم تريا من قبل؛ وصارت المجالس والمساجد هي الزهر والماء في إحساس ذلك الأديب الفيلسوف.

ومن ثقافة القرن الرابع ومعارف بغداد تكونت عقلية أبي العلاء الذي دان الأدب برسالة الغفران، وبقصائده اللزوميات.

وقد شاءت الظروف أن يعيش الشريف الرضي في القرن الرابع، وبعقل القرن الرابع، وشاءت الظروف أيضا أن يكون من أسرة لها في العلم والأدب ماض جميل، بل وشاءت الظروف أن يكون له أخ من الأئمة في العلوم العقلية والتقليية، ثم قضت بأن يكون الشريف الرضي نقيب الأشراف في زمن لم يكن فيه للأشراف عرش ولا تاج، وإنما كان لهم مجد العلم والأدب والبيان.

وقد وفي الشريف الرضي لعصره وأسرته أصدق الوفاء، فأقبل على الحياة العلمية، والأدبية إقبال الرجال، وشارك في التأليف مشاركة الفحول، فألف كتاب: "حقائق التأويل في متشابه التنزيل"، وكتاب: "مجازات الآثار النبوية" وكتاب: "تلخيص البيان عن مجازات القرآن"، وكتاب: "الخصائص"، و"أخبار قضاة بغداد".

وما أزعجني أني اطلعت على جميع هذه المؤلفات، فقد ضاع أكثرها مع الأسف، وإنما اطلعت على مجازات الآثار النبوية، وهو كتاب ممتع، يمثل ثقافة الشريف أصدق تمثيل، ويدل على بصره باللغة والأدب ومذاهب البيان.

ولم تكن ثقافة الشريف مقصورة على الجوانب الجافية التي وقف عندها بعض الأعلام في ذلك الزمان، وإنما رق الشريف وظرف، فمشى به ذوقه اللطيف إلى دراسة شعر ابن حجاج أظرف شعراء القرن الرابع وأبرعهم في وصف اللهو والمجون، وقد تخير الشريف طاقة من شعره سماها: (الحسن من شعر الحسين) ولعله بهذه التسمية كان صاحب الفضل على أبي العلاء الذي سمى كتابه عن المتنبي: (معجز أحمد)، وكتابه عن البحترى: (عبث الوليد) وكتابه عن أبي تمام: (ذكرى حبيب).

ولم تكن ثقافة الشريف موقوفة على ما وعت الكتب والمصنفات، وإنما امتد بصره فدرس الدنيا وخبر الناس، وساقه إلى ذلك أسباب خطيرة ترجع في جملتها إلى اثنتين:

الأولى: تطلعه إلى الخلافة وحرصه على الاتصال بأقطاب الزعماء في الحواضر الإسلامية.

والثانية: تشوفه إلى ما أجن الوجود من غرائب الصباحة، وعجائب الجمال، وسترون في الليالي المقبلة كيف كان الشريف يعيش موزع القلب والعقل بين الحب وبين المجد! وكيف كان فريسة للدسائس في عالم المجد، وعالم الوجدان.

فالشريف الرضي أيها السادة عاش شعره كله، كما يعبر الفرنسيون، وهو لم يصف أزمت الحياة كما يفعل اللاهون والعاثون، وإنما وصف حياة رأها بعينه، وأحسها بقلبه، وذاق من شهدها وصاها ما يذوق أحرار الرجال.

ونحن بهذه الأحكام لا نتعصب لشاعر أحببناه، وإنما نطوف حول نفس روحانية لم يعرف نظيرها العلم، ولم يشهد مثلها الخيال.

نطوف حول نفس مظلومة مهيضة كافحت في الحياة أصدق كفاح،

وناضلت في سبيل المجد أشرف نضال.

لقد كان الناس في عهد الشريف يتفقهون ليعيشوا، أما هو فكان يتفقه ليسود.

كان الشعراء في عهد الشريف ينظرون ليحفظوا بأعطيات الخلفاء، أما هو فكان ينظم الشعر ليزلزل الرواسي في عروش الخلفاء.

كان الشعراء يتغزلون لاهين لاعيين، أما الشريف فكان له في كل أرض صبابة، وكان له في كل بقعة غرام ماحق مبيد.

وكان ذلك مزاجا بين طغيان العقل وعدوان القلب، كان مزاجا بين العقل المثقف والقلب الحساس.

وجملة القول أن الرضي لم يكن من طراز شعراء الجاهلية، الشعراء العوام الذين لم يعرفوا غير ما كان يعرف سكان البيداء، ولم يكن من طراز شعراء العصر الأموي الذين وقفوا عند المعارف الجاهلية بعد أن أنارتها بعض المعارف الدينية، ولم يكن من طراز الشعراء الذين شهدوا صباح العصر العباسي، أولئك الشعراء الذين وقفوا عند عربدة الكتوس، ولم يعرفوا الخلفاء إلا في طلب الرزق الحرام أو الحلال، وإنما كان شاعرا مثقفا يدرك تمام الإدراك كيف تصطرع العقول والمذاهب الأهواء، ويفهم أن الدنيا في عصره نهب مقسم بين الديلم وأحفاد بني العباس، ويتمنى لو أقام على شواطئ دجلة حاضرة تساوي الحاضرة التي أقامها الفاطميون على شواطئ النيل.

فالشريف الرضي كان يرى الدنيا بعين الرجل المثقف - المثقف الشريف لا المثقف الصعلوك - وكانت أحاسيسه في دنياه لا تقدر بالأوهام؛ وإنما كان ينصب لها دقيق الموازين، ويسعى في تحقيقها سعي الفحول.

كان الشريف في حرب شعواء بين القلب والعقل، وكان يطمح في أن

يجمع لنفسه جميع أقطار المجد، فيكون من أئمة الفقهاء، وأقطاب الشعراء، وأعيان الخلفاء.

وقد ضاعت أمانيه ضياع الزهر في الوادي الجديب، ولم يبق منها غير الإمامة في الشعر والبيان.

أيها السادة:

قد تقولون: وأين الشواهد على بصره بالمذاهب اللغوية والأدبية؟

إن قلت ذلك فنحن نحدثكم عن فهمه لأصول الكلام البليغ، وحجتنا في ذلك ما وصف به شعره، وما تحدث به عن البلاغة وهو يتحدث عن اللغويين والشعراء.

وأول ما ننص عليه: إحساس الشريف بالصلة بين المعاني وبين الأوزان، يدل على ذلك ما جاء في ص ٩٤٥ من الديوان، فقد أرسل إليه أبو إسحاق الصابي قصيدة مدح نثب منها هذا المطلع:

أبا كل شيء قبيل في وصفه حسن إلى ذاك ينحو من كناك أبا الحسن

قال جامع الديوان: "فأجابه عن هذه القصيدة وجعل الجواب على رويها دون وزنها؛ لأن ذلك الوزن المقيد لا يجيء في الكلام إلا مقلقلا، ولا النظم إلا مختلا".

فالشريف كان يشعر بالصلة بين الوزن وبين المعنى، وهذا الاتجاه كان معروفا عند أدباء القرن الرابع، فقد حدثنا الصاحب ابن عباد أنه لم يجد فيمن صحبهم من الأدباء من يفهم الشعر كما كان يفهمه أبو الفضل ابن العميد "فإنه كان يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير الوزن والقافية".

وحدثنا أن ابن العميد كان يقول: "إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف

يجب أن يوضع الشعر ويبتدأ النسيج؛ لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده، والمعنى الذي اعتمده، وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمراراً، ومع أي القوافي يحصل أجمل اطراد^(١).

فما كان ابن العميد يراه من الوجهة النظرية كان الشريف يحققه من الوجهة العملية، وما كان الشريف شاعراً فحسب، وإنما كان كذلك من أقطاب الناقدین.

ويتصل بهذا حرصه على تجبير القصائد، وقد كان ذلك الحرص يرقعه أحيانا في المضحكات، فقد احتفل بنظم قصيدة يهنئ بها أخاه المرتضى بمولود، ولكن شاء الحظ أن تلد امرأة أخيه بنتاً، فصرف القصيدة إلى غيره من الأصدقاء! وقد وقع له هذا الحادث المضحك مرتين^(٢).

وقيمة هذا الشاهد ترجع إلى دلالته على احتفال الشريف بقرض القصائد، فقد كان يتخير المناسبات ويستعد لها أتم استعداد.

وهناك وجه آخر من وجوه البصر بالتاريخ الأدبي، فقد تفرّد بميزة لم نجد لها إلا قليلاً عند غيره من الشعراء، وتلك عنايته بتأريخ قصائده، فهو الشاعر الوحيد الذي نجد جميع قصائده مؤرخة من بين سائر القدماء، ولهذا التأريخ نفع من وجهتين: فهو أولاً شاهد على شعور الشريف بأن البلاغة من المواد الوصفية في حياة المجتمع، وأنها لذلك خليقة بالتأريخ، وهو ثانياً يسعف من يهتمهم أن يعرفوا كيف تطورت عقلية الشاعر من حال إلى حال.

ولقد تظنون أن هذا العمل النافع قام به جامع الديوان، ولم يقيم به الشريف ونجيب بأن ديوان الشريف رتب بعنايته وهو حي، وقد طلبت منه

(١) انظر تحقيق هذه القضية في كتاب الثر الفني ج ٢ ص ٥٢ و ٥٦.

(٢) انظر الديوان ص ٢٥١ و ٤٦٢.

"تقية" بنت سيف الدولة نسخة وهي بمصر، وطلبه كذلك صاحب ابن عباد، ولا يطلب الديوان إلى وهو عند صاحبه حاضر عتيد.

وقد كان الشريف ينظر إلى الشعر نظر الفنان، فنراه يقول في وصف قصائده الجياد:

متصبات كالقننا لا ترى عيامن القول ولا أفنا
لا يفضل المعنى على لفظه شيئا ولا اللفظ على المعنى

فمثل الشريف في نظم شعره مثل الصيدلي البارع الذي يحسن تركيب الدواء، فهو شخص مسئول يركب الدواء بمقادير معينة محدودة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان، وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء أو زيد عليه جزء لأصبح ضارا أو غير مفيد^(١).

وكان يشعر بأن أهم عناصر البلاغة قوة الذاتية، نعرف ذلك من كلامه في تجريح من يسرقون شعره ويتحلون به في بعض البلاد، فقد هددهم بالفضيحة وأعلنهم أن شعره سينم عليه وسيبوءون بالخيبة والإخفاق؛ وذلك إذ يقول:

ألا من عذيري من رجال تواعدوا لحربي من رامي عقوق ورامح
وغرهم مني اصطبار على الأذى وقد يكظم المرء الأذى غير صافح
فما الجارم الجاني عقوقي بسالم ولا الماطل اللاوي ديوني برابح
أغار على ذود من الشعر آمن تقادم عندي من نتاج القرائح^(٢)
فياليتهم أدوه في الحبي خالصا ولم يخلطوه بالردايا الطلائح^(٣)

(١) النثر الفني ج ١ ص ٢٢٩٦.

(٢) الذود من الثلاثة إلى العشرة في الإبل والخيل. وهو هنا مجاز عن القصائد.

(٣) الرذايا: جمع رذي وهو الذي أثقله المرض، والأنثى رذية، صارت إليه وخيله رذايا. والطلائح: جمع طليح وهو المهزول.

وإنك لو موهت كل هجينة“
 أرى كل يوم والمعائب جمّة
 إذا طاردوها خالفت برقابها
 وإن أوردوها غير مائي حايدت
 إذا انجفلت“ في غارة بت ناظرا
 كأن بنسي غبراء إذ ينهبونها
 يرجون منها والأمني ضلة
 أباغث أضرتها السفاهة فاغتدت
 هبوها إليكم من يدي منيحة
 دعوا ورد ماء لستم من حلاله“
 ولا تستهبوا العاصفات وأصلكم
 على ناظر ما عدت في الصرائح
 على وير الجري وسوم الصحائح“
 رجوعا إلى أوطانها والمسارح
 حياذ عيوف ينكر الماء قامح“
 أراقب منها روحه في الروائح
 أحالوا على مال بذني الدوح سارح
 رجاء نتاج الحمل من غير لاقح“
 تخطف هذا القول خطف الجوارح“
 لقد أن يا للقوم رد المنائح“
 وحلوا الروابي قبل سيل الأباطح“
 نجيل رمت فيه الليالي بقادح“

- (١) الهجينة: غير الكريمة، والهجين من أبوه خير من أمه، والصرائح جمع صريح وهو ضد الهجين.
- (٢) الوبر: صوف الإبل والأرانب ونحوها. والجري: جمع جربان والوسوم: جمع وسم وهو العلامة التي يميز بها الحيوان من ضروب الصور.
- (٣) المحايدة: المجانبية. والقامح: الذي يرفع رأسه عند الخوف ويمتنع من الشرب.
- (٤) انجفلت: نفرت.
- (٥) اللاقح: الناقة قبلت للقاح.
- (٦) الأباغث والبيغاث: لثام الطير، وتطلق مجازا على أخلاق الناس. والجوارح ذوات الصيد من السباع والطيور.
- (٧) المنيحة: من قولهم منحة الناقة إذا جعل له ويرها ولبنها وولدها.
- (٨) أي لستم أهلا للحلول به.
- (٩) الروابي: جمع رابية وهي ما ارتفع من الأرض. والأباطح: جمع أبطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى. وهو ينهائم عن التعرض للخطر بانتحال أشعاره.
- (١٠) النجيل: ضرب من الحمض وهو معروف في مصر وتصلح به أرض الملاعب. والقادح: أكال يقع في النبت والشجر والأسنان.

فما أنتم من مالى ذلك الحبا
ولم تحسنوا رعي السوامخ قبلها
ولا تطلبوها سمعة في معرة
خمول الفتى خير من الذكر بالخنا
ولا فيكم أكفاء تلك المناكح
فكيف تعاطيتم ركوب الجوامخ^(١)
تحدث عنكم كل غاد ورائح
وجر ذبول المنديات الفواضح^(٢)

فهذا الشاعر يصور قصائده المسروقة حين تضاف إلى قصائد غيره بصور الصحاح من الإبل والخيل حين تضاف إلى المراض، ويتمثلها تلوي رقابها نزاعاً إلى وطنها الأصيل، وتأبى ورود الماء الغريب، ثم يرمى سارقي شعره بأنهم ليسوا أكفاء الزواج من تلك القصائد، وأنهم لم يحسنوا رعي البقل فكيف يخاطرون بركوب الجياد الجوامخ!

ووصف قصائده المسروقة في مكان آخر فقال:

تصني لها الأسراع والقلوب
لطيمة نم عليها الطيب^(٣)
يتعب ذو البراعة الأديب
في كل يوم هجمة تلوب^(٤)
مثل السهام كلها مصيب
تودعها الأردن والجيوب^(٥)
ويغنم الهلابة المعيب^(٦)
هاج عليها الكلاً الطريب^(٧)
لا أمم منى ولا قريب
يطلبن أرضي والهوى تلوب

(١) السوامخ: البقول، والجوامخ: جمع جامح وهو الفرس الذي يركب رأسه فلا يراض.

(٢) المنديات: جمع مندية وهي الفعلة يندى لها الجيين.

(٣) الأردن: جمع ردن بالضم وهو أصل الكم.

(٤) اللطيمة: المسك وكل طيب يحمل على الصدغ.

(٥) الهلابة: الأحمق الجامع لكل عيب.

(٦) هاج الكلاً: يبس.

(٧) الهجمة: من الإبل أوها أربعون؛ أو هي ما بين السبعين إلى المائة. وتلوب: تعطش،

وإبل لوب ولواتب: عطاش.

عند الأعداء وسُمها غريب يرصد من الحارب المريب^(١)

فأنتم ترون أن الشريف يؤمن بأن سرقة شعره عناء في عناء وهي نظرة لا تقع إلى من رجل مثقف العقل، وهي دليل على قوة الذاتية التي تعد من أهم العناصر في مقومات الآداب والفنون، فالشاعر الوسط، أو الكاتب الوسط، أو الموسيقار الوسط، تضاف آثاره إلى آثار غيره فلا يحس أحد أنها نقلت من أرض إلى أرض.

ومن الأدباء والفنانين من تصبح آثارهم كالذنانير التي يتميز بها جيل عن جيل، ولا يمكن تزييفها إلا بجهد عنيف؛ وأنتم تجدون شواهد ذلك عند كثير من أدباء اليوم.

فشوقي ينم شعره عليه، والبارودي ينم شعره عليه، وكذلك يتم الأسلوب عن أمثال: إبراهيم المازني، وطه حسين، ولو نشرنا رسائلهم بدون إمضاء.

والشريف الرضي كان أعجوبة الأعاجيب في هذا الباب، فلا هو من طراز أبي نواس، ولا مسلم بن الوليد، ولا أبي تمام، ولا البحري، ولا المتنبّي وإنما هو الشريف صاحب الحجازيات.

وإحساس الشريف بخطر البلاغة قاده إلى الإشادة بقوة القلم، وما له من السيطرة على الوجود. والحديث عن قوة القلم معروف، فقد أقسم الله به في كتابه الكريم، واهتم بوصفه كثير من الشعراء والكاتب، كما ترون في الفقرات التي أثبتتها الثعالبي في سحر البلاغة، ونقلها الحصري في زهر الآداب، ولكن حديث الشريف عن القلم له دلالة على اتجاهاته الذوقية والنفسية، فهو يتحدث عنه حديث المتيم المشتاق، ويكاد يتغزل فيه وهو يجول فوق

(١) الحارب: الناهب.

القراطيس. وأي سحر فات الشريف وهو يصف قلم الصحاح ابن عباد:
 لك القلم الماضي الذي قرنته بجري العوالي كان أجرى وأجود^(١)
 إذا انسل من عقد البنان حسبته يحوك على القرطاس بردا معمدا^(٢)
 يغازل منه الخط عينا كحيلة إذا عاد يوما ناظر الرمح أرمدا
 وإن مج نصل من دم الصرب أحمر^(٣) أراق دما من مقتل الخطب أسودا
 إذا استرغفته همة منك غادرت^(٤) قوادمه تجري وعيدا وموعدا

أو حين يقول:

لك القلم الجوال إذ لا مثقف يجول ولا غضب تهاب مواقعه^(٥)
 سواء إذا عشيته النقس رهبة وذو لهزم غشي من الدم رادعه^(٦)
 يلجلج من فوق الطروس لسانه وليس يؤدي ما تقول مسامعه
 وينطق بالأسرار حتى تظنه حواها وصفر من ضمير أضالعه^(٧)
 إذ اسود خطب دونه وهو أبيض يسود وابتضت عليه مطالعه

أو حين يقول:

له قلم إن جرى غربه أمنا القنا وخشينا اليراع^(٨)

والشريف حين يمنح القلم هذه الأوصاف إنما يفعل ذلك وهو يتمثل ما

(١) العوالي: رءوس الرماح، مفردها عالية.

(٢) المعمد: الموشي.

(٣) الصرب: بالكسر هو الصبغ الأحمر.

(٤) استرغفته: أخرجت منه الرعاف وهو الدم. والعبارة مجازية.

(٥) المثقف: الرمح. والعضب: السيف.

(٦) النقس: المداد. واللهزم: السنان القاطع. واليراع: الملتخ بالدم.

(٧) صفر: خال.

(٨) الغرب: الحد. والقنا: الرمح. واليراع: القصب.

صنعت الأقلام في بناء الممالك والشعوب، ويتصور جناباتها على التيجان والعروش.

وهو أيضا يشعر بمعنى الوصف ومعنى البيان؛ فليست الأوصاف عنده تهاويل وتزاويق، وإنما هي استقراء واستقصاء، وليس البيان في فهمه ضربا من المحاجاة أو التتميق، وإنما هو كشف وجلاء، نعرف هذا من قوله في خطاب خاله أبي الحسين:

يشيعني بوصفك كل نطق ويعرفني بمدحك من رأي
وليس الوصف إلا بالتناهي وليس القول إلا بالبيان

وهو بهذا يثور على التقاليد الأدبية التي شاعت في القرن الرابع، وكانت تعتمد على البهرج والبريق.

وكان مع فهمه لقيمة البيان ذلك الفهم يدرك تمام الإدراك أن البيان يوجب على طالبه أن يكد خاطره في تصيد كرائم المعاني وتخير الألفاظ الصحاح التي لا يصلح غيرها أداء، نفهم ذلك من قوله في عتاب الخليفة الطائع لله:

فالآن منك اليأس ينقع غلتي^(١) واليأس يقطع غلة الظمان
فاذهب كما ذهب الغمام رجوته فطوى البروق وضمن بالتهتان
أو بعد أن أدمى مدبجك خاطري بصقال لفظ أو طلاب معاني

وفي هذا المعنى نفسه يقول في مدح أبيه:

قدها ففرتها من الكلم الجنى وحجوها من صنعة ومعاني^(٢)
هي نظفة رقرقتها من خاطري بيضاء تنقع غلة الظمان

(١) الغلة بالضم: الظم الشديد.

(٢) الغرة: البياض في جبين الفرس، والحجول جمع حجل بالكسر وهو البياض في قوائم الفرس.

وكذلك يقول في آخر موطن:

صنع فأفصح في الزمان الأعجم^(١)

ومحوكة كالدرع أحكم سردها

وفي هذا المعنى يقول في العتاب:

متوقعا فيكم تقصصها^(٢)

جاءتكم أسلا مشرعة

يحمي لها ذمها ويرهفها

قد بات فيها قائل صنع

بالأمس ثقفها مثقفها

أعزر علي بأن يكون لكم

ويقول في وصف نظام قصائده وهو يمدح أحد وزراء بهاء الدولة:

يهي أبدا ولا ييوخ شهابها^(٣)

وعندي لك الغر التي لا نظامها

لعاب الأفاعي القاتلات لعابها

وعندي للأعداء فيك أوابد^(٤)

وفي قوة نظام القصائد يقول أيضا وهو يمدح أباه:

ت أن تنخطى إليها العيوب

تصون مناقبك الشاردا

ة راقك منها النظام العجيب

إذا نثرتها شفافه الروا

وفي سلاسة النظام يقول:

فجردي من الريش اللوام

براني السدھر سهما ثم ولي

رقيق النسج رقراق النظام

وها أنذا أبك كل بيت

وفي رنين شعره يقول:

رأيت بها فرصة تستلب

منحتك من منطقي تحفة

(١) محوكة: صفة من الحوك وهو النسج، والسرد: نسج الدرع، والصنع بالتحريك الماهر في الصناعة، والمؤنث صناع.

(٢) الأسل بالتحريك: الرماح، والمشرعة: المسددة: والتقصف: التكرس.

(٣) ييوخ: يبرد.

(٤) الأوابد: القوافي الشوارد.

تصفقها بالنشيد الرواة كما صفق الماء بنت العنب
ويصف جلجلة شعره فيقول:
أنا القائل المرمق من كل ناظر إذا صلصت للسامعين غرائب

ويصف قدرته على إيذاء الأعداء بالشعر فيقول:
فلا ترهبوني بالرماح سفاهة فعيّدان أو طاني قنا وصعاد^(١)
ولا تواعدوني بالصوارم ضلة فبينني وبين المشرفي ولاد^(٢)
سامضغ بالأقوال أعراض قومكم وللقول أنياب لدي حداد^(٣)
تري للقفوافي والسماء جليّة عليكم بروق جمّة ورعاد

ويصف نفسه بالسيطرة على الألفاظ فيقول:
الأمن كنت شاعره فإن المجند شاعره
وإن اللفظ مطروح على فكري جواهره

فما رأيكم فيما سمعتم، يا أدباء بغداد؟

أترّون كيف يتحدث عن صقال الألفاظ وطلاب المعاني، وكيف يصف نفسه مرات بأنه صنع، ويصف قصائده بأنها كمشروعات الأسل، ومحكمات الدروع؟

أرايتم كيف يبدئ ويعيد في وصف ما تمتاز به قصائده من إحكام النظام، وكيف تجلجل جلجلة الرعود والبروق؟

(١) القنا: جمع قنّاء وهي الرمح، والصعاد: جمع صعدة وهي القنّاء التي تنبت مستوية فلا تحتاج إلى مثقف.

(٢) المشرفي: النسبة إلى مشارف الشام.

(٣) حداد: جمع حديد، من الحدة وهي القوة.

إن هذا الشاعر يوقفنا أمام حقيقتين: الأولى: إن البلاغة بريئة من البهرج والتكلف، والثانية: إن البلاغة لا تكون دائما من عفو الطبع، وإنما يصل إليها الرجال بالجهاد والجلاد في تخير الألفاظ وتصيد المعاني، وهذا ولا ريب مطمح الشاعر المثقف الذي يعرف أنه مهدد بالشهرة التي غنمها المتنبي والشهرة التي سيغنمها أبو العلاء.

وعقل القرن الرابع هو الذي أورد شاعرنا هذه الموارد، فقد كان يرى العلم والفلسفة يحيطان به من كل جانب، وكان يرى الناس لا يقنعون بالموهب الفطرية التي كانت تغني في عصر امرئ القيس أو عمر ابن أبي ربيعة أو مسلم ابن الوليد، وكان يرى الأدباء يتغنون بفنون أبي تمام، والبحري، وابن الرومي، وكان يتطلع إلى أن تكون له منزلة في صدور الأدباء المتفلسفين أمثال التوحيدي والصاحب ابن عباد.

وسترون في المحاضرة المقبلة أن الشريف الرضي لم يكن يعيش وحده، وإنما كان يعيش في زمن أكثر علمائه شعراء، فهو يقارعهم مقارعة الشاعر المثقف، ويلقاهم بعزائم الفحول.

نتقل إلى فن آخر يظهر فيه حرصه على الكلام البليغ، فنرى كيف كان يدرك أن محاسن الرجال لا تتم بغير العقل والبيان.

كتب إليه الصابي يشكو زمنة عرضت له، فقال الشريف يجيبه من قصيد طويل:

لئن نال قبضا من بنانك حادث لقد عاضنا منك انبساط جنان^(١)
وإن بز من ذاك الجناح مطاره فرب مقال منك ذي طيران^(٢)

(١) الجنان بالفتح: القلب.

(٢) بز: سلب.

وإن أقعدتك النائبات فطالما
 وإن هدمت منك الخطوب بمرها
 ما أثر تبقى ما رأى الشمس ناظر
 وموسومة مقطوعة العقل لم تزل
 وما زل منك الرأي والعزم والحجا

وهو في هذه الأبيات يرى أن مرض الصابي غير ضائر ما دام له قلب
 ولسان: ونصه على بلاغة الصابي وهو يعزیه في علته يشرح لكم كيف كان
 يقدر نعمة الكلام البليغ.

ولما مات الصابي رثاه الشريف أكثر من مرة، وكان كلما رثاه نص على
 قلمه وبلاغته، كأن يقول:

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانيا
 من البلاغة والفصاحة إن همى
 من للملوك يحز في أعداؤها
 من للممالك لا يزال يلمها

أنى ومثلك معوز الميلاد^(١)
 ذاك الغمام وعب ذاك الوادي^(٢)
 بظبا من القول البليغ حداد^(٣)
 بسداد أمر ضائع وسداد^(٤)

(١) موقر: مثقل، من قولهم نخلة موقرة إذا كانت كثيرة الثمار. والملوان الليل والنهار،
 ولا مفرد له، ومن أجل ذلك جاز عود الضمير عليه بالتذكير.

(٢) المناقب: المحامد، والمفرد منقبة.

(٣) العقل: جمع عقال.

(٤) تأسى: من الأسى وهو الحزن.

(٥) معوز الميلاد: قليل الأمثال.

(٦) همى الغمام: انهمر، وعب الوادي: سال.

(٧) الظبا جمع ظبة بالضم هي حد السيف أو السنان.

(٨) السداد بالكسر: صحة التدبير، وبالفصح صواب الرأي.

من للجحافل يستزل رماحها
 من للموارق يسترد قلوبها
 وصحائف فيها الأراقم كمن
 تدمى طوائعها إذا استعرضتها
 همر على نظر العدو كأنها
 يقسدمن إقدام الجيوش وباطل
 فقربها تمسي الملووك فقيرة
 وتكون سوطا للحرون إذا ونى
 ترقى وتلدغ في القلوب وإن يشأ

ويرد رعلتها بغير جلاذ"
 بزلازل الإبراق والإرعاد
 مرهوبة الإصدار والإيراد"
 من شدة التحذير والإيعاد"
 بدم يخطط بهن لا بمداد
 أن ينهزم من هزائم الأجناد
 أبدا إلى مبدى لها ومعاد
 وعنق الجمامح المتهادي"
 حط النجوم بها من الأبعاد"

فماذا ترون في هذه الصورة الشعرية، صورة القلم البليغ الذي يحز في قلوب الأعداء وكأنه السيف المسلول، القلم البليغ الذي يستزل الرماح ويرد الجنود، ويسترد موارق القلوب بالتهريب والتخويف، القلم الذي يصير الصحائف وكأنها مملوءة بكوامن الأراقم والصلال، القلم الذي ينخيل الصحائف للعدو وهي همر قانية كأنه كتبت بالدم لا بالمداد، القلم الذي يسد مسد السوط في رياضة الحرون، ومسد العنان في عنق الجواد الجموح، القلم الذي يلدغ القلوب إن شاء، ويرقيها إن شاء، ويمحط النجوم من الأبعاد حين يريد.

(١) الجحافل: جمع جحفل وهو الجيش الكثير: والرعلة. القطعة من الخيل والجلاد: القتال.

(٢) الأراقم: جمع أرقم وهو أنخبث الحيات، والكمن: جمع كامن وهو المستتر. والمرهوبة: المخوفة.

(٣) تدمى: يسيل منها الدم. والإيعاد: الإنذار.

(٤) الحرون: الذي يقف بعد أن يستدر الجري، والجمامح: الذي يخرج على طاعة الفارس.

(٥) ترقى: من الرقية بالضم وهي علاج المريض بالتعاون.

إن هذا الوصف يعطينا فكرة واضحة عن فهم الشريف لقوة القلم البليغ، وهو ليس كالوصف الذين رأيناه منذ لحظات، وإنما هو وصف حي يأخذ ملامحه من الإحساس ويقظة الجنان.

وقد وصف البلاغة مرة ثانية وهو يرثي الصابي فقال:

إن تمض فالمجد المرجب خالد	أو تفن فالكلم العظام بواقى ^(١)
مشحوة تدمى بغير مضارب	كالسيف أطلق في طلي الأعناق ^(٢)
يقبلن كالجيش المغير يؤمه	كمش الإزار مشمر عن ساق ^(٣)
قرطيات آذان الملوك خليفة	بمواضع التيجان والأطواق ^(٤)
عقدوا بها المجد الشرود وأثلوا	درجا إلى شرف العلا ومراقى
أو ترتها أيام باعك صلب	وكدتها بالنزع والإغراق ^(٥)
حتى إذا مرحت قواك شدتها	باسم على عقب الليالي باقى ^(٦)
كنجائب قعدت بها أرماقها	محسورة فمشين بالأعراق ^(٧)

وهو في هذه الأبيات يضع أمام أعيننا صورة ثانية تغاير الصورة الأولى بعض المغايرة وتماثلها في المدلول، ولكنه يأتي بمعنى جديد حين يصور ما كان عليه القلم في الحالين: حال الشباب وحال المشيب، فهو في الحال الأول يشد

(١) المرجب: المصون، على التشبيه بالنخلة المرجبة وهي التي يوضع حولها الشوك لئلا يصل إليها آكل.

(٢) الظلي: أصول الأعناق، والمفرد ظلية بضم فسكون أو طلاة.

(٣) يؤمه: يقوده، وكمش وكميش: مشمر.

(٤) القرطيات: جمع تصحيح للقرطة بكسر ففتح، والقرطة جمع تكسير للقرط وهو الحلية، تعلق في شحمة الأذن.

(٥) أوترها: جعل لها وترا وهو شرعة القوس. والصلب: الشديد. والكد: النزاع بشدة، والإغراق من قولهم إغراق النازع في القوس إذا استوفى مداها.

(٦) مرحت قواه: ضعفت.

(٧) الأرماق: جمع رمق وهو بقية الحياة، والمحسورة: التي نال منها الأعيان.

كلامه بوثاق القوة، وهو في الحال الثاني يسند كلامه بقوة الروح.

وقد وصف بلاغة الصباي وهو يرثيه مرة ثالثة فقال:

هو الخاضب الأعلام نال بها علا تقاصر عنها الخاضبون العواليا
معيد ضراب باللسان لوانه بيوم وغى فل الجراز اليانبا^(١)

وهذا يدلکم على أن البلاغة كانت تملأ أقطار ذهنه فيراها أكرم ما يبكي به الرجال.

ومدح الشريف ابن جني وراثه، وقد رأيناه في الحالين ينص على بلاغته، فيقول في المدح:

فدي لأبي الفتح الأفاضل إنه يبر عليهم إن أرم وقال^(٢)
إذا جرت الآداب جاء إمامها قريبا وجاء الطالبون إفا^(٣)
فتى مستعاد القول حسنا ولم يكن يقول محالا أو يجيل مقالا^(٤)
ليقري أسماع الرجال فصاحة ويورد أفهام العقول زلالا^(٥)
ويجري لنا عذبا نميرا وبعضهم إذا قال أجرى للمسامع آلا^(٦)

ويقول في الرثاء:

فمن لأوابي القول يبلوع راکها ويحذفها حذف النبال الموارق^(٧)

(١) الوغي: الجلبة في الحرب؛ وفل: كسر، والجراز: السيف القاطع.

(٢) يبر عليهم: يغلبهم. أرم: سكت.

(٣) القريع: الفحل. والأفال: جمع أفيل، على وزن أمير، وهو الفصيل.

(٤) المحال: من الكلام ما عدل به عن وجهه، وأحال المقال أتي به كذلك.

(٥) يقري: من القرى بكسر القاف وهو إكرام الضيف.

(٦) النمير: الصافي. والآل: السراب.

(٧) الأوابي: الممتنعات، والمفرد آبية، وهي في الأصل الناقة تعاف الماء. والعراك: هنا

ازدحام الإبل في الورد. والحذف: الرمي.

إذا صاح في أعقابها أطردت له
وسومها ملمس المتون كأنها
تغلغل في أعقابهن وسومه
ففي الناس منها ذائق غير آكل
ومن للمعاني في الأكمة ألقيت
يطوح في أثنائها بضميره
تسئم أعلا طودها غير عائر
ثواني بالأعناق طرد الوسائق^(١)
نزاع من آل الوجيه ولاحق^(٢)
بأبقى بقاء من وسوم الأيانق^(٣)
وقد كان منها أكلا غير ذائق
إلى باقر غيب المعاني وفائق^(٤)
مرير القوى ولاج تلك المضايق^(٥)
وجاوز أقصى دحضها غير زالق^(٦)

فهو في الأبيات الأولى يصفه بحلاوة القول، وهو في الأبيات الأخيرة يصفه بسياسة القول. ولا يلتفت إلى سياسة القول إلا الشعراء المثقفون الذين راضتهم الأيام على وزن مقامات البيان.

ولا بأس من أن نستطرد قليلا فنقول: إن اهتمام الشريف بمدح ابن جني وراثته موصول الأواصر بحياته الأدبية، فقد كان ابن جني شرح قصيدته الرائعة في رثاء إبراهيم بن ناصر الدولة الحمداني، وهي التي يقول في مطلعها:

(١) الوسائق: جمع وسيقة وهي من الإبل كالرفقة من الناس، فإذا سوقت طردت معا
(٢) سومها: أرسلها. والملمس: جمع أملس وهو الصحيح المتن أي الظاهر. وفي المثل: "هان على الأملس ما لاق الدبر" يضرب في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه. والتزاع جمع نزيغ وهو الغريب. والوجيه: ولاحق فرسان تنسب إليها الخيل العتاق.
(٣) الوسوم: العلامات. وهي ما يوسم به الحيوان من ضروب الصور. والأيانق: جمع الجمع للناقة التي تجمع على أينق ونياق وأنواق.
(٤) الأكمة: جمع كامة بالكسر وهي وعاء الطلع وغطاء النور. والباقر: هو الذي يكشف مكونات المعاني، وبه سمي الباقر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم لتبحره في العلم، والفاثق كذلك.

(٥) القوى: جمع قوة وهي طاقة الحبل، والمرير: المحكم القتل؛ والعبارة مجازية.
(٦) تسئم الطود: علاه. والطود: الجبل. والدحض: المكان الزلق وجمعه دحاض ومنه المدحضة وهي المزلة.

ألقى السلاح ربيعة بن نزار أودى الردى بقربيعك المغوار^(١)
وتجردي عن كل أجرد سايح ميل الرقاب نواكس الأبصار^(٢)

وسنعود إلى هذه القصيدة بعد حين؛ ولكن المهم أن نسجل أن الشريف كان يعادي ويصادق في سبيل حياته الشعرية، فهو قد مدح ابن جني ورثاه؛ لأنه شرح إحدى قصائده في الرثاء، وكذلك فعل مع صاحب ابن عباد، فقد بلغه أن شيئا من شعره وقع إليه فأعجب به وأنفذ إلى بغداد لاستنساخ سائر شعره، فلما بلغه ذلك أخذ منه الطرب كل مأخذ، ومدح صاحب بقصيدة بارعة منها الأبيات التي سلفت في وصف القلم، ولكنه أخفاها عنه ولم يرسلها إليه خوفا من أن يتهم بالسعي في طلب المال، ثم مدحه بقصيدة ثانية لا يعيننا منها في هذا المقام إلا اهتمامه بوصف بلاغة صاحب إذ يقول:

كم حجة لك في النوافل نوهت بدعاء دين العدل والتوحيد^(٣)
ومجادل أدمي جدالك قلبه وأعضه بجوانب الصيخود^(٤)
وشفيت ممرض الهوى من معشر سدوا من الآراء غير سديد
قارعتهم بالقول حتى أذعنوا وأطلت نوم الصارم المغمود
جر بمسهة الرياح نسفته كان الضلال يمدّه بوقود^(٥)

فهذه الأبيات تمثل فهمه لخطر الجدل والقلم أصدق تمثيل، وترينا كيف كان يدرك أن القلم واللسان يغنيان أحيانا عن سهل السيوف في كبح الخصوم

(١) القربيع: الفحل.

(٢) الأجرد: الحصان القصير الشعر، والميل جمع أميل، وهو من يميل على السرج، وهو هنا المنكسر الذي يميل عنقه من الضعف.

(٣) النوافل: هنا معناها الشدائد، ومفردها نوفل، والعدل هو مذهب الاعتزال. وفي أخبار صاحب ابن عباد أنه كان يذهب مذهب العدل.

(٤) الصيخود: الصخرة الشديدة.

(٥) المسهكة: نمر الرياح.

وتأييد الآراء.

ولما مات الصاحب رثاه الشريف بقصيدة قوية جاء فيه قوله في وصف ما تصنعه الأقلام:

واها على الأقلام بعدك إنما
أفقدن منك شجاع كل بلاغة
من لو يشا طعن العدا براء وسها
وإذا تجايشت الصدور بموقف
لم ترض غير بنان كفك آلا^(١)
إن قال جلى في المقال وجالا
وأثار من جريهاها قسطالا^(٢)
حبس الكلام وقيد الأقوالا^(٣)
ورعال خيل يتبعن رعالا^(٤)
بصوائب كالشهب تتبع مثلها

فهو يجعل الحجج الصوائب في قوة الخيل المغيرات؛ وهي أخيلة بدوية كان يحس صورها كل الإحساس.

وفي الشواهد التي سلفت ما يريكم كيف كان الشريف يهتم بوصف اللسن، وكيف كانت تروعه قوة الجدل، وقد وصل في ذلك إلى أبعد الغايات وهو يقول في رثاء عبد العزيز بن يوسف:

أبيك يا عبد العزيز لخطبة
ومقاوم ما زلت تعجز ليلها
تعمى مطالعها وخطب مضلع^(٥)
بلسان قوال وقلب سميذع^(٦)
تبقى وخرقا ماله من مرقع^(٧)
إني أرى في الجسد بعدك ثلمة

(١) الأكل: أصله أهل أبدلت الماء همزة فصارت أأل بفتح فسكون ثم أبدلت الهمزة الثانية ألفاء، ويقال في تصغيره أويل وأهيل.

(٢) الجريال: ما خلص من لون أحمر أو غيره؛ والقسطال والقسطل: الغبار.

(٣) تجايشت الصدور: غلت وماجت.

(٤) الرعال جمع رعلة بالفتح وهي القطعة من الخيل.

(٥) خضب: مضلع مهلك.

(٦) المقاوم: جمع مقام وهو المجلس، والسميذع: السيد الكريم والشجاع.

(٧) الثلمة: فرجة المكسور والمهدوم.

من يشرق الخضم الألد بريقه
 أم ممن يبلغ بالبلاغة غاية
 أم من يرد من المغيرة غربها
 بنوافد للقول يبلغ وقعها
 شهب تشعشع في النوائب ضوؤها
 حتى يقول الغابطون وقد رأوا
 ويود من حمل الثالو أصبحت
 إن لا تكن في الجمع أمضى طعنة
 إن الفصاحة ذللت لك عنقها
 أمست ظهور المجد عندك ترتقي
 كيد كمارقة النصال ودونه
 عيا ويقدع منه ما لم يقدع^(١)
 تلوي بحسرى طالين وظلم^(٢)
 والخيال تنهض كالقطا بالدرع^(٣)
 ما ليس يبلغ بالرماح الشرع^(٤)
 كالشمس تنفض رأسها للمطلع^(٥)
 فعلاته: زاحم بجسد أو دع
 تلك الأداة على الكمي الأروع^(٦)
 فلأنت أمضى خطبة في المجمع^(٧)
 فأخذت منها بالعنان الأطوع
 منها إلى قمع السنام الأمتع^(٨)
 بشر كبارقة النصول للمع^(٩)

(١) القدع: الكيخ.

(٢) الحسرى: جمع حسير وهو الذي نال منه الإعياء، والظلم جمع ظالم وهو الذي يغمز في مشية من الضعف.

(٣) الغرب: الحدة، والدرع: جمع دراع وهو لابس الدرع.

(٤) الشرع: المرسله.

(٥) نفض: تحرك واضطرب، وأنفض: أمال وحرك.

(٦) الكمي: الشجاع أو لابس السلاح، والأروع: من يعجبك بحسنه. وجهارة منظره أو بشجاعته، ومثله الرائع.

(٧) المجمع: في ميدان القتال، والمجمع: في حومة الجدل.

(٨) القمع: جمع قمعة بالتحريك وهي رأس السنام، والأمتع: الذي لا ينال.

(٩) النصال، والنصول: جمع نصل وهو حديدة السهم والرمح والسيف ما لم يكن له مقبض.

نهاز أذنبه الكلام إذا هفا قلب الجريء وعي قول المصقع
قد قلت للمتعرضين لسطوه خلوا وجار الأرقم المتطلع

وهذا فن جديد عند الشريف، فأكثر من وضمهم بالبلاغة كانوا من رجال السيف، أما عبد العزيز بن يوسف فلم يكن له من أدوات القتال غير القلم واللسان، وقد وصف كلماته بأنها تفعل ما لا تفعل مشروعات الرماح، وأنها ترد الخيل المغيرة وعليها أقطاب الدارين، وحدد مقامه بين مقامات الأبطال بهذا البيت:

إن لا تكن في الجمع أمضى طعنة فلأنت أمضى خطبة في المجمع

وقد وصفه بالكيد، وذلك وصف طريف؛ لأنه يفصح عن خصلة نادرة لا يجيدها إلا الأقلون، والكيد سلاح عرفه الساسة من قديم الزمان، وأنا لا أعرف من أصوله شيئاً، ولكنني سمعت أنه يبني ويهدم ويبرم وينقض. والشريف يعني ما يقول وهو ينعت مبكبه بالكيد في موقف لا تذكر فيه غير كرائم الخلال وقد قلت في كتاب النثر الفني: إن ما بين أيدينا من أخبار عبد العزيز بن يوسف ورسائله لا يعطينا صورة صحيحة من نفسه وأخلاقه، فهل أستطيع اليوم أن أعتد على حكم الشريف فأقول إن ذلك الكاتب كان من كبار الكائدين؟

المهم أن نسجل أن الشريف كان يفهم جيداً خطر القول، وكان يعرف أنه يطلب لكثير من الغايات، ويدرك أن البلاغة لها مواطن خفية يدركها أقطاب الليل. ونعوذ بالله من كيد الكائدين، ودسائس الخاتلين.

- (١) الأذنبه: جمع ذنوب بفتح فضم، وهو الدلو. والنهاز: الذي يضرب بالدلو في الماء لتملاً، والمقصع: على وزن منبر البليغ أو العالي الصوت أو من لا يرتج عليه ولا يتتبع، ولعله جاء من الصقعاء وهي الشمس لما يمتاز به من الوضوح والجلاء.
- (٢) الوجار: بالكسر والفتح الجحر، والأرقم: الحية، وهو أخبث الحيات، والمتطلع وصف كاشف للأرقم؛ لأنه يتطلع إلى إيذاء الناس ويبدأ بالعدوان.

ومع هذا لم يكن الشريف يرى الدنيا في جميع أحوالها حومة قتال، فقد كانت عنده مواطن يرى فيها البلاغة تطلب لإيناس الأفتدة والقلوب، أليس هو الذي يقول في رثاء أبي منصور الشيرازي:

كم مجلس صبحته ألسنا تفض فيه لطائم الأدب^(١)
 من أثر يونق الفتى حسن أو خبر ييسط المنى عجب^(٢)
 أو غرض أصبحت خواطرننا تساقط الدر منه في الكتب
 كالبارد العذب ورقته صبا الفجر أو الظلم زين بالشنب^(٣)

وكيف لا يعشق البلاغة ويراهما من موارد الأنس من قرنهما بجمال العزم والحلم فيقول في مدح أبي سعيد بن خلف:

خطاب مثل ماء المزن تبري مواقعه العليل من القلوب^(٤)
 وعزم إن مضيت به جريبا هوى مطر القنا بدم صيب^(٥)
 وحلم إن عطفست به معيدا أطار قوادم اليوم العصيب^(٦)
 وألفاظ كما لعبت شمال ملاعبها على الروض الخصب^(٧)

(١) صبحته: سقته الصبوح وهو ما حلب من اللبن وما أصبح عند السامرين من شراب، واللطائم جمع لطيمة وهي المسلك.

(٢) يونق: يعجب ويغرب.

(٣) الظلم بالفتح الثلج وهو هنا ماء الأسنان، وأظلم الثغر تالأ، والشنب بالتحريك ماء ورقة ويرد وعذوية في الأسنان.

(٤) تبري: تشفي، فهي من البرء.

(٥) صيب: متدفق.

(٦) القوادم: هنا جمع قاذم وهو الرأس.

(٧) الشمال: بالفتح ويكسر الريح التي مهبها بين مطلع الشمس. وينات نعش أسماء كواكب. والمعروف أن ريح الشمال ميمونة الهبوب وفيها لطف ورفق.

أيها السادة:

تلکم ثقافة الشريف الرضي، وذلکم إحساسه بخطر البلاغة وقوة الكلام البليغ.

وإنما أطلنا في سرد الشواهد وضرب الأمثال لنريکم أن الشريف لم يكن في حياته الشعرية من اللاهين، وإنما كان يقتحم البلاغة اقتحام الفحول، ويؤمن بأن الفصاحة من أشرف ما يزدان به الرجال، ويرى آثار الأقلام أبقى على الزمن من آثار الرماح والسيوف.

فإن قلتم: وكيف صح للشريف أن يفتن بنفسه ويشعره ذلك الفتون؟

قلنا: إن لذلك موجبات سنعود إليها في المحاضرة المقبلة بالتفصيل.

مقام الشريف الرضي بين شعراء القرن الرابع

أيها السادة:

حديث الليلة عن شاعرية الشريف الرضي كما يصورها في قصائده القصار والطوال، وقد تعقبنا حديثه عن شعره فرأيناه زهي به واختال أكثر من ستين مرة، فساقنا ذلك إلى البحث عن السرفيا أدى به إلى الإسراف في الزهو والاختيال.

قد تقولون: وهل تفرد الشريف الرضي بالحديث عن شعره حتى تبحث عن السر في ذلك؟ ألم تعرف هذه السجية فيمن سبقه من الشعراء كأبي تمام والبحثري وابن الرومي والمنتبي؟

وأجيب بأن هذه الخصلة لم يتفرد بها الشريف، ولكنه أفرط وأسرف، فلم يكن بد من الكشف عن سر ما وقع فيه من الإفراط والإسراف.

ولكي تعرفوا كيف أفرط وأسرف، أسوق إليكم شواهد تبين غلبة الزهو على ذلك الشاعر: ثم أتبعها بالبحث عن أسرار ذلك الاختيال.

ولا أرى موجبا للإشارة إلى جميع المواطن التي زهي فيها بشعره، فقد حدثتكم أنها تزيد على الستين، وإنما أطوف ببعض الأشعار التي تكشف عن تلك الخصلة بوضوح وجلاء.

وأول ما أشير إليه هو إحساسه بأن الشعر دون قدره، وأن نفسه أعلى من أنفـس الشعراء وأرفع، وهو يحدثنا أنه يتخذ الشعر وسيلة إلى غرضه فيقول:
وما قولي الأشعار إلا ذريعة إلى أمل قد آن قود جنينه^(١)

(١) الجنيب والمجنوب: الفرس تقوده إلى جنب فرسك في السباق، فإذا فتر المركب تحولت إلى المجنوب. والذريعة: الوسيلة.

واني إذا ما بلغ الله غاية ضمنت له هجر القريض وحبه^(١)

ويرى سيماء غير سيماء الشعراء فيقول:

وما الشعر فخري ولكننا أنزهه عن لقاء الرجال
فما يتهدى إليه الملو واني وإن كنت من أهله
أطول به هممة الفاخر وأجعله تحفة الزائر
كإلا من المثل المسائر لتتكرني حرفة الشاعر

ويرى القول دون الفعل فيقول:

مالك ترضى أن يقال شاعر كفاك ما أروق من أغصانه
فكم تكون ناظما وقائلا بعدا لها من عدد الفضائل^(٢)
وطال من أعلامه الأطاول وأنت غب القول غير فاعل^(٣)

وهذه الشواهد الثلاثة ترينا كيف كان يرى الشعر دون قدره كيف كان يرى منزلته أرفع من منازل الشعراء.

ولكن هل يهرب من شاعريته؟ إن هذا محال!

فلم يبق إلا أن يرى نفسه أشعر الأمم فيقول:

كفاك بأن عرضك من طروق العار في ذممي
وذلك عصمة مني بجبل غير منجذم^(٤)

(١) الحوب: بالفتح ويضم: الإثم، وهو هنا مضموم الحاء، وهو مجرور بالعطف على الفريض.

(٢) العدد: جمع عدة بضم العين وهو ما تتوسل به إلى غرضك.

(٣) الغب: بالكسر عاقبة الشيء.

(٤) منجذم: منقطع.

وحسبك أن يفل شبا ة هجوك أشعر الأمم^(١)

أو يرى شعره فوق شعر البحري ومسلم بن الوليد فيقول:
شعر أنير به العجاج بسالة^(٢) كالطعن يدمي والقنا تتحطم
وفصاحة لولا الحياء لهجنت أعلام ما قال الوليد ومسلم

أو يتواضع فيرى نفسه زميل الفرزدق أو جرير فيقول:
وقصيدة عذراء مثنى ل تائق الروض النضير^(٣)
فرحت بمالك رقهها فرح الخميصة بالغدير^(٤)
وكانه في رصفها جار الفرزدق أو جرير
وكانه من حسنها بين الخورنق والسدير^(٥)

أو يرى قوافيه كقوافي البحري وأبي نواس فيقول:
وشرب قد نحررت لهم عقارا كحاشية الرداء الأرجواني^(٦)

(١) الشباة: إبرة العقرب وحد كل شيء، وقل شباة: هجوه كسرهما.

(٢) البسالة: الشجاعة.

(٣) التائق: البريق واللمعان.

(٤) الخميصة: الموضع يكثر فيه الشجر الملتف، والغدير: الماء يغادره السيل، والجمع غدرا.

(٥) الرصف: في الأصل ضم الحجارة بعضها إلى بعض، وهو هنا نظم الكلام.

(٦) الخورنق: قصر للنعمان الأكبر، معرب خورنكاه: أي موضع الأكل والسدير: نهر بناحية الحيرة. وقد وصفت تلك الأماكن في كتاب "ليل المريضة في العريضة في العراق".

(٧) الشرب: بفتح الشين هم القوم يجتمعون على الشراب، والعقار بضم العين هي الخمر سميت بذلك لمعاقرتها أي لملازمتها الدن أو لأنها تعقر شاربها عن المشي، والأرجواني بضم الهمزة والجيم الأحمر القاني:

كأن الشمس مال بها غروب
 فصل بدم العقار دم الأعادي
 فيوم أنت غرتك جواد
 جعلت هديتي فيه نظاما
 بلفظ فاسق اللحظات تنمى
 وصلت جواهر الألفاظ فيه
 فجاءت غصة الأطراف بكرا
 كأن أبا عبادة شق فاهما

أو يرى نفسه ضربا لزهير فيقول:
 أنا زهير فمن لي في زمانك ذا

ببعض ما افتقرت عنه يدا هرم

أو يرى شعره فوق شعر زهير فيقول:
 بز زهيرا شعري وهأنذا

لم أرض في المجد أنه هرم

أو يرى كلامه فوق كلام الرجال فيقول:
 جاءتك محصدة القوى جبارة
 من لي بان شاديكها في موقف

تستعبد الأرواح في الأجسام"
 أعتده شرفا مدى أيامي

-
- (١) الحيازيم: جمع حيزوم وهو الصدر أو وسطه، والدنان: جمع دن بفتح الدال، وهو الراقد العظيم توضع فيه الخمر.
- (٢) العوالي: الرماح.
- (٣) يبذ: يفوق، والشأو: السبق، والقران: ويكسر القاف هو هنا النيل بفتح النون.
- (٤) الحصان: بفتح الحاء: العفيف.
- (٥) محصدة القوى: محكمة الفتل، وهي عبارة مجازية، والحبارة: صفة مدح مأخوذة من الحبير وهو البرد الموشى.

لا أدعي فيه الغلو وإنما يوفى على قتل الرجال كلامي^(١)

أو يقول:

وإن قوافي الشعر ما لم أكن لها مسفسفة فيها عتيق ومقرف^(٢)
أنا الفارس الوثاب في صهواتها^(٣) وكل مجيد جاء بعدي مردف^(٤)

أو يرى لسانه أمضى من السيف فيقول:

وأنا المضارب عن علاك بمقول ماضي الغرار ولا الجراز المقصل^(٥)
يدمي الجوارح وهو ساكن غمده ولقلما يمضي بغمد منصل^(٦)

ويرى نفسه فوق الشعراء إذ كان يبتغي الكرامة وبتغون المال فيقول:

مدحت أمير المؤمنين وإنه لأشرف مأمول وأعلام مؤمم^(٧)
فأوسعني قبل العطاء كرامة ولا مرجبا بالمال إن لم أكرم

ويرى شعره يرفع أقدار الرجال فيقول:

أبا قاسم جاءت إليك قلائد تقلد أعناق الرجال المناقبا
قلائد من نظمي تود لحسنها قلوب الأعادي أن تكون ترائباً^(٨)

(١) القتل: جمع قلة بضم القاف وهي أعلى الرأس والسنام والجبل.

(٢) العتيق: الشريف، والمقرف: ما يداني الهجنة أي أمه عريية لا أبوه؛ لأن الإقراف من قبل الفحل، والهجنة من قبل الأم، والعبارة أيضا مجازية.

(٣) المردف: كالرديف، والمرتدق: هو من يركب خلف الراكب.

(٤) الصهوات: جمع صهوة وهي مقعد الفارس من الفرس.

(٥) المقول: بكسر الميم هو اللسان، والغرار: بكسر الغين حد الرمح والسهم والسيف، والجراز: بضم الجيم السيف القاطع، والمقصل: على وزن منبر صفة للسيف، من القصل وهو القطع.

(٦) المنصل: بضم الميم والصاد: السيف.

(٧) مؤمم: على وزن المفعول: مقصود.

(٨) الترائب: عظام الصدر وهي هنا موضع القلادة.

يقوم بها في ندوة الحبي خاطبا^(١)
ولو كن أحداثا لكن تجاربا^(٢)

إذا هدها راوي القريض حسبته
فلو كن غدرانا لكن مشاربا

أو يقول:

وإن غاض في المدح ماء افتخاري
فيقطعها في اتصال المزار
تجول معاصمها في سوار

فحسبك فخرا بهذا المديح
يزورك بين قلوب العداة
غدت كف مجدك من مدحتي

ويشبه أشعاره بالعقائل^(٣) فيقول:
وكنست زمانا أذود الملوكة^(٤)
أريد الكرامة لا المكرمات
فحوزوا العقائل عن خاطري

عن السلك رقرقت فيه النظاما
ونيل العلالا العطايا الجساما
إلى م أماطل عنها إلى ما

ويرى شعره أعز من أن يمدح به غير الخلفاء، فيقول في خطاب الطائع
لله:

ل وأعديتني على كل خطب
قلت قربي من الخليفة حسبي^(٥)
ل عزيزا يأمي على كل خطب

أنت أفسدتني على كل مأمو
فإذا ما أراد قربي مليك
عز شعري إلا عليك ومازا

(١) هد في هذا البيت فعل من الهد وهو الصوت والترنم.

(٢) الغدران: تكون في الأغلب مشوبة بالقذى فهي لا تكون مشارب إلا إن غلب عليها الصفاء، والأحدث: شارة الشقاء في الأغلب، ولا يغلب عليها القبول إلا إن صارت من التجاريب.

(٣) العقائل: جمع عقيلة وهي السيدة الكريمة المخدرة.

(٤) أذود: أمنع.

(٥) يشير بهذا إلى زهده في مدح الملوكة من بني بويه وكان صدف عنهم بعد أن خبس عضد الدولة أباه. ولكنه سيمدح بهاء الدولة ويظيل في الثناء عليه.

أو يمن به على أحد الوزراء^(١) فيقول:

خطبت شعري إلى قلب يضمن به إلا عليك فباشر خير مخطوب

وقد يرى شعره بشيرا بالنعيم، ونذيرا بالعذاب، فيراه غيثا ينفع الأولياء،
وصواعق تحرق الأعداء، كأن يقول في خطاب أبيه:

وهذا مقالي فيك غيث وربما رميت العدا من وقعه بالصواعق

وكان يقول في التهديد:

حذاركم بنبي الضحاك إني إلى الأمر الذي تومنون أومي

فلا تتعرضوا للذراع عاد مدل عند خيسته شتيم^(٢)

فإن تك مدحة سبقت فيني بضد نظامها عين الزعيم

وقافية تمضخض ما ترامت بها الأيام في عرض اللئيم

تردد ما لها ممن يعيها سوى الإطراق منها والوجوم

لها في الرأس سورات يطاطي لها الإنسان كالرجل الأميم^(٣)

ليعلم من أنا ضل أن شعري يطالع بالشفاء وبالنعيم

وللشريف أفانين من التهديد؛ وهو يتوعد توعد الباطشين، ويرى شعره

يعرق العظام وينكل بالأحساب. وانظروا كيف يقول.

فدونكها قاصفا عاصفا من الشر أو عارضا مرزما

قوارص تنثر نظم الدروع وتستنزل البطل المعلم^(٤)

فمن كان يسقيك أري الجنى فإني سألعقك العلقما^(٥)

(١) هو أبو نصر سابور أردشير وقد قدم بغداد مع شرف الدولة سنة ٣٧٦.

(٢) الخيسة: بالكسر والخيس: موضع الأسد. والشتيم: الأسد العابس.

(٣) الأميم والمأموم: هو الذي أصابت الضربة أم رأسه.

(٤) المعلم: بصيغة المفعول هو الذي يحمل علامة الحرب.

(٥) الأري: العسل.

ومن كان يلقاك مستسلماً فإني ألقىك مستلتماً^(١)

والشريف في وعيده يكشف عن صدر صهره الغيظ، وقلب أضرته الضغائن والحقود. وما كان يمكن لمثل هذا الرجل أن يلقى جميع الناس بقلب رقيق، وهل يعرف الرفق من يقول:

أحرجتني فهيا كهيا
والليث لا يخرج إلا
كلذعة الميسم في
والحيّة الرقطاء تر
حقا على أعراضكم
فاستنشقوها نفحة
تعرض من جنوبيكم
كأنما تضرب في
مذكورة ما بقيت
تري على عاري العظا

بنت عناق والرقم^(٢)
مخرجاً من الأجم^(٣)
شواظ نار وضم
دي أبدا بغير سم
تعطها عط الأدم^(٤)
تجدع مارن الأشم^(٥)
طم اللمام بالجلم^(٦)
عرض الأعز بالقدم^(٧)
من غير عقد لرم^(٨)
م وسمها وهي رمم

(١) المستلم: لابس اللاتمة وهي الدرع المحكمة.

(٢) العناق على وزن سحاب: الداهية، وكذلك الرقم بالتحريك.

(٣) أصل هذا المعنى لأبي تمام إذ يقول:

أخرتموه بكره عن سجيته
وطأتموه على جمر العقوق ولو
والنار قد تتضي من ناضر السلم
لم يخرج الليث لم يخرج من الأجم

(٤) تعطها. تشقها، والمعطوط: المغلوب قولاً وفعلاً، والأدم: الجلد.

(٥) المارن: الأنف، أو طرفه، أو ما لان منه.

(٦) طم الشعر: جزه أو عقصه، واللمام: جمع لمة وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن، والجلم: المقص.

(٧) القدم: جمع قدوم.

(٨) الرتم: خيط يعقد في الأصبع للتذكير.

فلو نزعست الجلد كما ن رقمها كما رقم
 كم جردت شفارها لحم فتسى بلا وضم
 خابطلة لا تتقسي صدم أخ ولا ابن عم

أيها السادة:

قد أشرت كما ترون إلى نحو عشرين موضعا زهبي فيه الشريف بشعره واختال، وقد حدثتكم أن تلك المواضع نيفت على الستين، والآن أحب أن نفهم معا كيف صح ذلك الزهو وذلك الاختيال.

كان يكفي أن نسجل هذه الظاهرة النفسية، وأن نقول: إنه سلك طريقا سار فيه كثير من الشعراء، ولكنني رأيت بعد التأمل والدرس أن هذه الظاهرة النفسية تجر وراءها أشياء، وأكاد أجزم بأنها تدل دلالة قاطعة على أن الرجل كان يحس أنه يجيا في عصره حياة المغبون، وأنه كان على أهل زمانه من الحاقدين.

ولكن كيف يصح هذا الافتراض؟ هاكم البيئات:

كان الشريف يعيش في عصر احتله الأموات واحتله الأحياء.

أما الأموات الذين احتلوا عصره فهم: البحري وأبو تمام والمتنبي، وقد شاء النقاد أن يمكنوا أولئك الأموات من ذلك الاحتلال، وأظهر شاهد على ذلك ما صنع أبو العلاء المعري الذي عاش دهره كله وهو يحقد على الشريف الرضي أبشع الحقد، فقد ألف ثلاثة كتب في شاعرية أبي تمام والبحري والمتنبي، وأراد أن يسجل أن دنيا الشعر وقف على هؤلاء الثلاثة فقال: البحري هو الشاعر، وأبو تمام والمتنبي حكيان. وكان الغرض من هذا الحكم أن يكون هؤلاء الثلاثة محور الجدل والخلاف.

ويضاف إلى هذا أن الشريف الرضي أعلن خصومته لشاعرية المتنبي.

وإعلان هذه الخصومة عاد على ذكرى المتنبي بأجزل النفع، فقد كان للشريف كثير من الأعداء، وأولئك الأعداء أصابوا فرصة لم تكن تخطر ببال، فقد مضوا يبدئون ويعيدون في الكلام عن عبقرية المتنبي، وأذاعوا في الناس أنه شاعر لن يجود بمثله الزمان، وكانت هذه الأحكام ظاهرها حب الأدب وباطنها إغاظه الشريف.

وقد أراد خصوم المتنبي أن يقوموا بحركة عكسية؛ ولكنهم لم يفلحوا، فقد أرسل الصحاب ابن عباد يستنسخ ديوان الشريف ليفهم الناس أن الشريف هو شاعر الجليل، وأن العصبية للمتنبّي لا تمنع من التسليم بأن عالم الشعر لا يزال فيه مجال للأعلام والأقطاب^(١).

قد تقولون: وكيف جاز للشريف أن يحقد على رجل مات قبل أن يجيء هو إلى الدنيا بأعوام؟

وأجيب بأن موت المتنبي في القرن الرابع لم يكن مثل موت شوقي في القرن الرابع عشر، فقد سكت النقاد عن شوقي بعد إذ مات؛ لأن شوقي كان ملك الجماهير في زمانه ملكا قويا، وكان تفرد بأفانين من الشعر عجز عنها معاصروه، فلما مات سلموا له بالإمارة الشعرية، وعادوا إلى شئونهم ساكتين.

ولم يكن الحال كذلك بعد موت المتنبي، فقد كان على جهارة صوته وجلجلة شعره يحدث الناس بما يألون، وكانت له بدوات لفظية ومعنوية تؤلب الناس عليه، وتمهيج النحويين واللغويين، فلما مات بقيت الفرصة للجدل والشغب والضجيج، وانقسم الناس حول شعره إلى فريقين: عدو

(١) وهناك سبب سياسي لعطف الصحاب على شعر الشريف: فقد كان الشريف يكره عضد الدولة؛ لأنه سجن أباه، وكان الصحاب يكره عضد الدولة؛ لأنه كان يسعى لقتله في الخفاء. فالاشتراك في بغض عضد الدولة كان من أهم أسباب المودة بين الشريف الرضي والصحاب ابن عباد.

وصديق، وكذلك ظل يثير الهيجاء وهو هامد بين الصفائح والتراب، ولو
تسمع الناس صوت رفاقه البالي لرأوه يقول:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

ومن المؤكد أن الشريف شهد الخصومة حول شعر المتنبّي وهو طفل،
ومن المؤكد أيضا أن عظمة المتنبّي احتلت أقطار ناه، ولعلها كانت السبب في
أن ينظم الشريف أجود الشعر وهو ابن عشر سنين، فليس من المستبعد أن
يكون في أساتذة الشريف من لقنه الحقد على المتنبّي، ثم ظل هذا الحقد عقيدة
أدبية يساورها وتساوره طول الحياة.

وأقف عند الغرض الأصيل فأقول: إن الشريف كان يعجب لانصراف
الناس عن شعره وإقبالهم على شعر المتنبّي، وقد انقلب هذا العجب إلى حقد؛
لأنه كان يرى نفسه أشعر من المتنبّي، وكان يفهم جيدا أن الناس لو خلصت
ضمايرهم من أوضار العصبيات الدينية والسياسية والأدبية لفضلوه على
المتنبّي؛ ولكنهم لن يخلصوا ولن يسعفوا الشريف بما يريد.

ولم يكن المتنبّي هو الشاعر الوحيد الذي يحتل أذهان أهل بغداد من
الأموات.

فقد كانت هناك أطياف ترد إلى أهل بغداد من شاعر ولد في بلد بعيد
وعاش في القرن الرابع: وهو أبو القاسم بن هاني الذي ولد في إشبيلية،
وسمت به همته إلى أن يكون أمير الشعراء في مصر، ثم احتضره الموت وهو في
الطريق، فلم يشهد بساتين الجزيرة ولا مساجد الفسطاط.

وكان أطياف ابن هاني تغيب الشريف الرضي أشد الغيظ؛ لأن الناس لم
يكونوا يجدون عبارة تفيه حقه من الثناء إلا أن يقولوا: هو متنبّي المغرب. ولا
نعرف بالضبط كيف عرف العراقيون شعر ابن هاني لعهد الشريف؛ ولكن من
المؤكد أن ابن هاني كانت له سمات تلفت العراقيين إليه، فقد كان شاعر

الفاطميين أعداء العباسيين، الفاطميين الذين أنشئوا القاهرة لينافسوا بغداد، وليخلقوا الخصومة بين دجلة والنيل.

أيها السادة:

حدثناكم حديثاً موجزاً عن شاعرين كانا يمتلآن أذهان الناس في بغداد من بين الأموات، وهما: المتنبي وابن هاني، وبيننا كيف كان الشريف يفتأ لصيرورة ما أبدعنا من الآيات، فما بالناس لا نخبط شجرة الشعر في القرن الرابع لنرى كيف كان الشريف يتعب ويضجر ويلتاع ليرفع رايته في ذلك البحر المحيط؟

لقد كان العراق في القرن الرابع مسرحاً لعرائس الشعر الجميل؛ وكان المرء لا يلتفت إلا رأياً نفائس وغرائب تبهر الأذواق والقلوب والعقول.

ففي القرن الرابع ولد السلامي، ولد بالكرخ لست خلون من رجب سنة ٣٣٥، وقد بهر الناس بشعره في مطلع صباه، فقد كان أول ما سار من شعره قوله وقد ركب سفينة في دجلة، وكان ركبها أول مرة^(١).

وميدان تجبول به خيول	تقود الدارعين ولا تقاد
ركبت به إلى اللذات طرفاً ^(٢)	له جسم وليس له فؤاد
جرى فظنت أن الأرض وجه	ودجلة ناظر وهو السواد

وقد مضى السلامي يبدع ويمجد حتى فتن أهل بغداد، وحتى استطاع أن يقول:

وفيهن سكرى اللحظ سكرى من	تعاتب حلو اللفظ حلو الشمائل
أدارت علينا من سلاف حديثها	كؤوساً وغتنا بصوت الخلاخل

(١) عبارة اليتيمة (وكان رأها أول مرة) وهذا يكاد يكون غير معقول.

(٢) الطزف بالكسر: الحصان.

واستطاع أن يجيد وصف الزنابير التي تضجر أهل بغداد فيقول:

ولا بس لون واحد وهو طائر	ملونة أبراده وهو واقع
أغر محشى الطيلسان مديح	وسود المنايا في حشاه ودائع
إذا حك أعلا رأسه فكأنما	بسالفته من يديه جوامع
يخاف إذا ولي ويؤمن مقبلا	ويخفى على الأفران ما هو صانع
بدا فارسي الزي يقعد خصره	عليه قباء زينته الوشائع ^(١)
فمعجره الوردية أحمر ناصع	ومئزره التبري أصفر فاقع
يرجع الحان الغرييض ومعبد	ويسقي كؤوسا ماؤها السم ناع

والسلامي هذا كان شغل أهل العراق في القرن الرابع فمنحوه لقب أمير الشعراء، فانظروا كيف كان يصح للشريف الرضي أن يسكت عن ضياع شعره، وهو أشعر من أمثال السلامي بلا جدال.

وفي ذلك العصر نبغ في العراق ابن نباتة السعدي الذي وصف الثعالي قصائده بأنها أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب. وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب، ابن نباتة الذي يقول:

وكم لليل عندي من نجوم	جمعت النثر منها في نظام
عتابا أو نسيبا أو مديحا	لخل أو حبيب أو هممام
تفيد بها العقول نهى وصحوا	وقد فعلت بها فعل المدام
لها في حلبة الآداب ركض	إلى حب القلوب بلا احتشام

ابن نباتة الذي يقول:

عجبت له يخفي سراه ووجهه	به تشرق الدنيا وبالشمس بعده
ولا بد لي من جهلة في وصاله	فمن لي بخل أودع الحلم عنده

(١) الوشائع: جمع وشيعة وهي الطريقة في البرد، من الوشع وهو زهر البقول.

وفي ذلك العهد نبغ بالموصل شاعر فحل هو السري الرفاء^(١) السري الذي يقول وقد شرب في زورق:

ومعتدل يسعى إلي بكأسه
وقد حجب الغيم السماء كأنها
وقد كان ضوء الصبح بالليل يفتك
يزر عليها منه ثوب ممسك
وظللنا نبث الوجد والكأس دائر
وبجلسنا في الماء يهوي ويرتقي
ونتهك أسرار الهوى فنتهك^(٢)
وإبريقنا في الكأس يبكي ويضحك

وأكاد أجزم بأن السري الرفاء نال من نفس الشريف كل منال، فقد شغل النقاد بشعر الرفاء شغلهم بشعر المتنبي، فأفنوا الليالي في إخراج سرقاته الشعرية ومزقوه كل ممزق، وكان الشريف يتمنى أن يظفر شعره من النقاد ببعض ما ظفر به شعر الرفاء.

وفي عصر الشريف نبغ في العراق شاعران ماجنان هما ابن سكرة وابن حجاج، وكان لهما في زمانها مكان مرموق، فكان يقال في بغداد (إن زمانا جاد بابن سكرة وابن حجاج لسخي جدا)^(٣) وكانت أشعار هذين الماجنين تباع في الأسواق بأثمان غالية، وكان الناس يتشوفون إلى أشعارهما تشوف الصائمين إلى طلعة شوال، وما ظنكم بديوان شعر يباع بخمسين دينارا في أزمان قضت عليها الفتن والثورات بضيق العيش واختلال الأحوال!

وقد طغى هذان الشاعران في زمانها أبشع الطغيان، بفضل ما خلبا به الناس من أشعار الهزل والمجون؛ وبفضل ما رزقا من قوة الافتتان مع خفة الروح، أما ابن سكرة فكان يبدع في وصف مجالس اللهو والأنس كأن يقول:

(١) عاش هذا الشاعر إلى سنة ٣٦٦ فكان عمر الرضي وقت وفاته نحو ثمان سنين.

(٢) الكأس قد يذكر، ومن شواهد تذكيره هذا البيت.

(٣) انظر اليتيمة.

ويوم لا يقاس إليه يوم يلوح ضياؤه من غير نار
أقمنا فيه للذات سوقاً^(١) نبيع العقل فيها بالعقار

وقد اتفق له أن يعشق قينة سوداء اسمها "خمرة" فقال فيها أكثر من عشرة آلاف بيت، وكانت هذه الحكاية مدار السمر في أندية بغداد، وأثرت في الشريف الرضي نفسه فأنشأ القصائد الطوال في التشبيب بالسود الملاح^(٢).

وأما ابن حجاج فقد تفرد بفن من السخف لم يسبقه إليه سابق^(٣) وكان السخف في ذلك الزمن شيئاً يطلبه أحرار الرجال ليتلوهوا عما يحيط بهم من المعاطب والظلمات. وقد بلغ الشعر بابن حجاج كل مبلغ فحصل الأموال، وعقد الأملاك، وصار مقضي الحاجة، مقبول الشفاعة، محذور الجانب، متقى اللسان^(٤).

ولم يكن السخف كل بضاعة ابن حجاج؛ فقد كان يجيد في سائر ضروب الشعر إجادة الفحول، واضطر الشريف إلى العكوف على دراسة شعره فأخرج منه مختارات سهاها (الحسن من شعر الحسين).

ولما مات رثاه الشريف بقصيدة جيدة ابتدأها بهذين البيتين:

نعوه على ضمّن قلبي به فلله ماذا نعى الناعيان
رضيع ولاء له شعبة من القلب فوق رضيع اللبان

وختمها بهذين البيتين:

فزل كزيال الشباب الرطيم ب خانك يوم لقاء الغواني

(١) في اليتيمة (شوقاً) بالشين وهو تحريف.

(٢) سنرى شواهد ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٣) تجارب الأمم ج ٣ ص ٤٠٣.

(٤) ص ٤٠٤.

ليبك الزمان طويلا عليك فقد كنت خفة روح الزمان

وأستطيع أن أقول: إن الشريف كان يعطف على ابن حجاج لبعض
الوفاق في المذاهب الدينية أو السياسية؛ فقد كان يعرض ببعض خصوم أهل
البيت، كأن يقول في خطاب أبي إسحاق الصابي:

فذاك الله بي وبكل حسي من الدنيا دني أو شريف
يحل لك التغافل عن أناس تولوا ظلم خادمك الضعيف
ولست بكافر فيحل مالي ولا الحجاج جدي من ثقيف
فمر بدراهمي ضربا وإلا جعلت سبال قوفا في الكثيف^(١)

ولم تمنعه مراعاة الخلافة العباسية في بغداد من مدح الخلفاء الفاطميين
بالقاهرة والظفر بما في مصر من طيبات الهدايا والدنانير^(٢).

ولكن من الظلم أن نقضي بأن ذلك التوافق المذهبي كان كل الأسباب في
عطف الشريف على ابن حجاج، فقد كانت لهذا الرجل وثبات شعرية قليلة
الأمثال، فهو الذي يقول:

ومدلل أما القضيب فقده شكلا وأما ردفه فكثيب
يمشي وقد فعل الصبا بقوامه فعل الصبا بالغصن وهو رطيب
متلون بيدي ويخفي شخصه كالبدر يطلع مرة ويغيب
أرمي مقاتله فتخطى أسهمي غرضي ويرمي مقتلي فيصيب
نفسي فداؤك إن نفسي لم تزل يجلو فداؤك عندها ويطيب
مالي ومالك لا أراك تزورني إلا ودونك حاسد ورقيب

تلکم حال ابن سكرة وابن حجاج؛ فهل يمكن القول بأن الشريف كان

(١) قوفا: هو أبو الحسن محمد بن الهادي.

(٢) تجارب الأمم ج ٣ ص ٤٠٤.

ينظر إلى نجاح هذين الشاعرين بعين الارتياح؟

وكيف وهو يراهاما يتهبان الجوّ الأدبي أفضع انتهاب، ويبلغان بالهزل ما ما لا يبلغ معشاره أصحاب الجد الصراح؟

ولا تنسوا أي أسوق هذا الكلام لأبين السر في حرص الشريف على الزهو بشعره، والاختيال بعبقريته، فقد كان مضطراً إلى تذكير أهل العراق بما له في الشعر من مقام جليل.

وفي القرن الرابع نبغ أبو الحسن الجرجاني الذي ذكر الناس بعهد البحتري، وقد فصلت الكلام عن شعره ونثره في الجزء الثاني من كتاب "النثر الفني" فلا أعود إليه الآن؛ وإنما يمني أن أنص على أنه كان من أشهر من أنصفوا المتنبي؛ وكان الشريف يبغض المتنبي، كما تعلمون^(١).

ومن نوابغ القرن الرابع أبو الفتح كشاجم؛ وكان شعره في ذلك العهد ربحانة أهل الأدب في العراق، وكان مورد رزق للنساخ والوراقين، وطوفت أشعاره بالمشرق والمغرب حتى وصلت إلى القيروان، وتخير أطايبها مؤلف "زهر الآداب" فانظروا كيف يضيّق صدر الشريف الرضي وهو يرى هذه الشهرة لشعر كشاجم على حين يظل شعره الفخم بلا رواة ولا شراح ولا نقاد، وهو في نفسه أشعر الناس.

ومن أعلام ذلك العصر: أبو حامد الأنطاكي، وهو شاعر نشأ بالشام ثم رحل إلى مصر فعاش فيها عيش الترف إلى أن مات سنة ٣٩٩ وقد كانت لهذا الشاعر في زمانه شهرة عظيمة؛ لأنه أراد أن يكون في مصر والشام كابن سكرة وابن حجاج في العراق.

(١) سنرى فيما بعد رأياً للأستاذ طه الراوي ينفي الخصومة التي قيل إنها ثارت بين المعري والشريف المرتضى بسبب المتنبي.

ويظهر أنه صادف في مصر جماعة من أهل الهزل والمجون فأوغل في السخف كل الإيغال، وسمى نفسه أبا الرقعمق، وأعلن أنه حليف الرقاعة والحماقة، حتى صح له أن يقول:

أستغفر الله من عقل نطقت به مالي وللعقل؟ ليس العقل من

ولكن هذا الشاعر لم يخل من عبقرية نبيلة، فقد سجل في شعره ليل تنيس وهي مدينة مصرية كان لها خط مرموق، وكان بها في بعض العهود خمسمائة صاحب محبرة يكتبون الحديث، وكانت كذلك من أماكن الصيد صيد الطير لا صيد الطباء، فكان بها من أنواع الطيور مائة ونيف وثلاثون صنفاً ذكرها بأسمائها صاحب معجم البلدان. وسجل الأنطاكي كذلك ملاعب الجزيرة، جزيرة الفسطاط، لا الجزيرة التي يصلنا بملاعبها في هذه الأيام جسر إسماعيل، وانظروا كيف يقول وقد طال شوقه إلى ملاعب الفسطاط:

لسلي بتنيس ليل الخائف العاني
أقول إذ لج ليلى في تطاوله
لم يكف أي في تنيس مطرح
حتى بليت بفقدان المنام فما
ما صاعد البرق من تلقاء أرضهم
ولا حنتت إلى نجران من طرب
لا تكذبين فما مصر وإن بعدت
ليالي النيل لا أنساك ما هتفت
أصبو إلى هفوات فيك لي سلفت
مع سادة نجب غر غطارفة
وذي دلال إذا ما شئت أنشدني
تفق الليالي وليلى ليس بالقاني
يا ليل أنت وطول الدهر سيان
مخيم بين أشجان وأحزان
للنوم إذ بعدوا عهد بأجفاني
إلا تذكرت أيامي بنعمان
إلا تكتفني شوق لنجران
إلا مواطن أطراي وأشاني
ورق الحمام على دوح وأغصان
قطعهن وعين الدهر ترعاني
في ذروة المجد من ذهل بن شيان
وإن أدرت غناء منه غناني

(١) مصر في هذا البيت هي الفسطاط، وجمهور المصريين يسمون عاصمتهم مصر، حتى القاهرة تسمى عندهم اليوم مصر.

وجاد لي طرفه عفوا ومناني
حتى توسد يسراه وخلاني
وما علي جناه طرفه الجاني
على تضاحك نايات وعيدان
باتت تجود عليها سحب نيسان
عن أصفر فاقع أو أحمر قاني
كأن أجفانه أجفان وسنان

سقيته وسقاني فضل رقيته
ما زال يأخذها صفراء صافية
الله يعلم ما بي من صبابته
كم بالجزيرة من يوم نعمت به
سقيا ليلتنا بالدير بسين ربا
والطلل منحدر والروض مبتسم
والنرجس الغض منهل مدامعه

ولا يمكن الشك في أن الشريف الرضي سمع بأخبار هذا الشاعر وما كان لشعره من الذبوع في الأقطار الشامية والديار المصرية.

وفي القرن الرابع نبغ ابن دراج الأندلسي، وقد فصلت أخباره ووازنته بينه وبين أبي نواس في كتاب "الموازنة بين الشعراء" وإنما يهمني أن أنص على أن في أشعاره ما يدل على أنه رحل إلى المشرق فعرف العراق وخراسان، إذ يقول:

وأنكرني فيها خليط وخلان
وأجزلت البشري علي خراسان
وإن زمانا خان عهدي لخوان
وسقيا لدهر كان لي في إخوان
ولا مسعد إلا دموع وأجفان
ولكن قلوب فارتمن أبدان
لهم غير من كنا وهم غير من كانوا
كأنني قد خنت الوفاء وقد خانوا

فإن غربت أرض المغارب موثلي
فكم رحبت أرض العراق بمقدامي
وإن بلادا أخرجتني لعاطل
سلام على الإخوان تسليم آيس
فلامؤنس إلا شهيق وزفرة
وما كان ذلك البين بين أجنة
فيا عجبا للصبر منا كأننا
مضي عيشهم بعدي وعيشتي بعدهم

ولا تندهشوا أيها السادة حين أحدثكم عن غيرة الشريف الرضي من سلطان الشعراء في المشرق والمغرب، فقد كانت الدواوين الشعرية تصل إلى

بغداد في حيوات أصحابها، وكانت بغداد تشعر بخطر المنافسة، منافسة القاهرة وقرطبة، فكانت تستورد كل ما تجود به القرائح، وإن تباعدت البلاد.

وكان العراقيون ومن والاهم من أهل المشرق يضمنون بالكتب ضمن الأشراف بالأعراض؛ فقد غلب أديب على نسخة الجمهرة لابن دريد، غلبه الفقر، وهو أبو الحسن علي بن أحمد الفالي، فباعها للشريف المرتضى بستين ديناراً، فلما تصفحها الشريف وجد فيها بخط البائع هذه الأبيات.

أنست بها عشرين حولاً وبعتهها	فقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها	ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصيبة	صغار عليهم تستهل شئوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرة	مقالة مكوي الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك	كرائم من رب بهن ضمّنين

ويقال إن المرتضى رد النسخة إلى صاحبها بعد قراءة هذه الأبيات وترك الدنانير.

أيها السادة:

رأيتم كيف كان الشعر يرفع أهله في القرن الرابع، وكيف كان الشريف يضرّج من خموله بين الشعراء مع أنه كان في نفسه وفي الواقع سيد الشعراء.

فلننظر الآن نظرة ثانية نرى بها كيف عظمت منزلة الشعر في القرن الرابع، حتى استطاع الرضي على شرف منبته أن يرى الشعر من أظهر مزاياه.

كان الشعر في ذلك العصر مما يتحلّى به الأمراء والرؤساء، فكان من أقطابه أمير مصر تميم بن المعز، وكان من أعلامه السادة الحمدانيون من أمثال سيف الدولة وأبي فراس.

وكيف لا يعز الشعر في زمن يكون من شعرائه وزراء عظام كأبي الفضل

ابن العميد والصاحب ابن عباد؟ كيف لا يعز الشعر في زهن يكون من شعرائه قاض كأبي الحسن الجرجاني وكاتب مثل عبد العزيز بن يوسف؟

ومن عجائب ذلك العصر أن رجاله كانوا في الأغلب يجمعون بين الصناعتين:

الشعر والإنشاء، فكانت البلاد تموج موجا بمواكب الخيال والبيان.

وكان الشريف الرضي ينظر إلى تلك المواكب بعين القلق والحيرة؛ لأن الظروف السياسية كانت ضيقت عليه الخناق، وأقصت عنه أسباب السلطة الأدبية، وهي سلطة هائلة كان لها الأمير يومئذ في مصائر الرجال.

وسترون في المحاضرة المقبلة تفصيل هذا الجانب من حياة الشريف، ولكن المهم في هذه اللحظة أن تثقوا بأن الظروف هي التي أخرجته وقضت عليه وهو رجل مهذب بأن يخرج على قواعد الذوق فيزهى بشعره ويختال. المهم عندي أن تعذروا الشريف حين ترونه يقول:

سيسكتني يأس في الصدر حاجة	كما أنطقتني والرجال المطامع
بضائع قول عند غيري ربحها	وعندي خسراتها والوضائع
غرائب لو هدت على الطود ذي الصفا	أصاخ إليها يذبل والقعاقع
تضاع كما ضاعت خلاة بقفرة	زفتها النعامي والرياح الزعازع"
كأن لساني نسعة حصرية	طواها ولم يبلغ لها السوم بائع"
لقد كان لي عن باحة الذل مذهب	ومظطرب عن جانب الضيم واسع
وما مد ما بيني وبين مذهب	حجاز ولا سدت علي المطالع"

(١) الخلاة: واحدة الخلا وهو الرطب من النبات، والنعامي: بالضم ريح الجنوب، وزفته طرده.

(٢) النسعة: قطعة من النسع وهو سير من الجلد تشد به الرحال.

(٣) الحجاز: هو الحاجز.

إذا افتقرت عما نقول المجامع
 لثام ومثلي بينها اليوم ضائع
 على قدركم قد تستعان الأصابع
 فياليت شعري ما تكون الذرائع
 فكيف أرجي ربه وهو شاسع
 ومالي عذر أن تفيض المدامع
 ثنية خوف ماله اليوم طالع^(١)
 موارد قد نشئت بهن الوقائع^(٢)
 ولا اللب مخلوس ولا القلب جازع
 من الشوق ما سار النجوم الطوالع
 مراجع، إن المحسب المراجع
 وإني لحبل منه الغدر قاطع^(٣)

سيدر من المغبون منا ومنكم
 وهل تدعي حفظ المكارم عصبة
 نعم لستم الأيدي الطوالععاونوا
 إذا لم يكن وصلي إليكم ذريعة
 أرى بارقاً لم يروني وهو حاضر
 سأذهب عنكم غير باك عليكم
 وأعتد فجاً أنتم من حلاله
 وما موقفي والركب يرجي على الصدى
 أفارقكم لا النفس ولهي عليكم
 ولا عاطفاً جيدي إليكم بلفتة
 ولا ذاكر ما كان بيني وبينكم
 نبذتكم نبذة المخفف ثقليه

أيها السادة:

ذلكم مقام الشريف الرضي بين شعراء القرن الرابع، وتلكم شكواه من
 جماهير الناس في بغداد؛ فليته يعود اليوم ليرى كيف تعطفون عليه بعد مئات
 السنين، وكيف تتوجعون لما كان يتوجع، وكيف تشفقون عليه إشفاق
 الأكرمين من الأوفياء.

(١) الخلال: بالكسر هم النازلون بالمكان. والثنية: العقبة في الجبل.

(٢) النش: نضوب الماء، والوقائع: مساقط الماء.

(٣) في طبعة بيروت: (منة الغدر) وقد أتعب المصحح نفسه فشكل كلمة (منة) بفتح
 الميم وتشديد النون وضم التاء، والصواب (منه) وهو الفعل ماض من المن وهو
 القطع. وفي القرآن (لهم أجر غير ممنون) أي غير مقطوع.

أعوام البؤس في حياة الشريف

أَيُّهَا السَّادَةُ:

أحدثكم هذه الليلة عن أعظم حادثة أثرت في حياة الشريف، وأضرمت النار في صدره، وبصَّرتَه بحقائق الدنيا وخلاتق الناس.

وهذه الحادثة تفسر لكم إلحاح الشريف في مدح أبيه، والتشوق إليه، بطريقة لم تُعرَف عن أحد من الشعراء.

هذه الحادثة هي اعتقال أبيه وحبسه في قلعة فارس من سنة ٣٦٩ إلى سنة ٣٧٦.

وقبل أن نفصّل أسباب هذه الحادثة نذكر أن الرضيّ وُلد في أيام كانت تفيض بالنكبات، وتعجُّ بالدماء، فقد حدث وهو صبيٌّ في المهدي أن ثارت الفتن بين الدَّيْلَمِ والأتراك ثورة عادت على بغداد بأعظم الفجائع، وأبيحت مدينة الكرخ فدام فيها الحريق أكثر من أسبوع، وأحرق الرجال والنساء في الدُّور والحمامات، وتقدم أبو أحمد الموسوي والد الرضي لمخاطبة العباس بن الحسين وزير بختيار ومحاسبه على ما وقع في الكرخ، فغضب الوزير وصرفه عن النقابة، وكانت يومئذ أعظم منصب يتولاه الأشراف.

وما كاد الشريف يدرك كيف يبتسم لأبويه وهو في المهدي، حتى وقع حادث انكشفت به الخلافة الإسلامية أبشع انكشاف: فقد وردت الأخبار إلى بغداد بأن الروم غزوا نصيبين فملكوها وأحرقوها وقتلوا الرجال وسبوا الدَّراري، ثم ورد ناسٌ من ديار ربيعة وديار بكر مدينة بغداد واستنفروا المسلمين في المساجد والأسواق، وخوَّفوا البغداديين عواقب ما يتطلع إليه الروم من غزو العراق.

وقامت مظاهرة هائلة توجهت إلى قصر الخليفة المطيع لله، وحاول

المتظاهرون الهجوم عليه، وقلعوا طائفة من نوافذ القصر، فأغلقت دونهم الأبواب بعد أن كادوا يَصِلون إلى الخليفة، ولكنهم لم ينصرفوا حتى أسمعوه أفحش السباب.

وفي تلك اللحظة الحرجة تقدم بختيار يطالب الخليفة بما عنده من المدخّرات ليستعين بها على غزو الروم، فأجاب الخليفة: إن الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وإيّ تدبير الأموال والرجال؛ وأما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفايتي، والدنيا في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف، فما يلزمني غزو ولا حجّ ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه، وإنما لكم مني هذا الاسم الذي يُحطّب به على منابركم؛ تسكّنون به رعاياكم، فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلتُ عن هذا المقدار أيضًا وتركت لكم الأمر كله.

ولكن هذا الجواب على ما فيه من فضيحة الخليفة لم يُرضِ بختيار، فما زال يُوعد ويهدّد حتى اضطر الخليفة المطيع لله إلى بيع ثيابه، وبعض أنقاض داره ليجمع أربعمئة ألف درهم يسلم بها من غضب بختيار الذي أخذ من الخليفة ومن الناس ما أخذ، ولم يخطُ خطوة واحدة في قتال الروم!

وقد تجلّت هذه البلايا عن قوتين تحاصمان بني بُويه: قوة الخلافة إن بقيت لها قوة، وقوة أبي أحمد الموسوي الذي عزله وزير بختيار عن نقابة الأشراف.

وبعد سنتين من ذلك التاريخ سنة ٣٦٣ شبت الثورة بين الترك والدَّيْلَم مرة ثانية، فسُفِكت الدماء، وأُحرقت مدينة الكرخ حريقًا ثانيًا بعد الحريق الأول، وعانت بغداد أهوالًا أسود من قطع الليل^(١)...

ولستم في حاجة إلى من ينبهكم إلى خطر هذه البلايا وآثارها السود في

(١) اعترض بعضهم على أن تجري كلمة (أسود) مجرى أفعال التفضيل، ونحن لا نلتفت إلى هذا الاعتراض، لأن كثيرًا من الشعراء تحلّلوا من بعض قيود أفعال التفضيل طلبًا للتخفيف.

تشبت الأواصر وتمزيق الصلات فما كانت الفتن تأخذ وقودها كله من الترك والديلم، وإنما كانت تمكّد ضربهما فتنتهب ما تشاء من سواد الناس في أرجاء العراق، وكانوا فريقين: فريقاً يشايح الديلم وفريقاً يناصر الأتراك.

وفي سنة ٣٣٦ قامت الحرب بين بختيار وعضد الدولة، وكانت هذه الحرب نتائج دميمة في تمزيق البصرة، فقد انضمت مضر إلى عضد الدولة، وانضمت ربيعة إلى بختيار، ولم يكن يهم ربيعة أن ينتصر بختيار، وإنما فعلت ذلك طوعاً للأحقاد الموروثة بينها وبين مضر، وكذلك استفحلت الثورة فأحرقت المحال، وانتهبت البضائع، وانتهكت الحرمات.

وفي تلك الأزمنة العصبية نرى اسم أحمد الموسوي بين الأسماء، ولكن في أي صف؟ في صف بختيار لا صف عضد الدولة، بختيار الذي عزله عن نقابة الأشراف منذ سنين، وما نقول: إن أبا أحمد الموسوي امتشق الحسام في سبيل بختيار، وإنما قبل أن يكون رسول بختيار إلى عضد الدولة في مطلب لم يكن يراه عضد الدولة لاثقاً بالملوك، فقد كان صورة دميمة من صور الشهوات.

ثم دارت الدائرة على بختيار وانتهى أمره بالقتل، وخلع الخليفة المطيع وتولى ابنه الطائع، ونال عضد الدولة من الهيبة والقوة ما فرض على الخليفة الجديد أن يمنحه خصائص لم يظفر بمثلها أحد من قبل.

وكاد الظن أن يستوحش عضد الدولة من أبي أحمد الموسوي لسابقة اتصاله بعدوّه الغادر بختيار، ولكن رأياه يعتمد عليه في بعض شئونه حين جدّت الحرب بينه وبين المسيطرين على الأقطار الشامية، فنهم أن عضد الدولة يرى في أبي أحمد قوة أدبية يُحسب لها حساب، وتُغفر لصاحبها بعض الذنوب.

ثم تقع المفاجأة بعد ذلك بعام واحد، إذ نرى عضد الدولة يقبض على

أبي أحمد الموسوي وعلى أخيه أبي عبد الله ، ثم يقضي بأن يعيشا معتقلين في قلعة فارس، ولم يكتفِ بالقبض على أبي أحمد والد الشريف الرضي، بل صادر أملاكه ليعرّض أبنائه للعوّز والاحتياج.

فما الذي جدَّ من الأمور حتى نَقَصَّ عضد الدولة يده من أبي أحمد وقضى على أملاكه بالمصادرة، وعلى شخصه وشخص أخيه بالقبض والاعتقال؟

هناك أسباب كثيرة لم تُفصّلها كتب التاريخ، وإنما فهمناها من ملامح الحروف ونحن نستخبر ما سطر المؤرخون عن ذلك العهد، ويكفي أن نشير إلى كلمة عضد الدولة وهو يقول لمن سأله العفو عن أبي الصابي: أما العفو عنه فقد شفّعناك له عن ذنب لم نَعْفُ عما دونه لأهلينا - يعني الدّيلم - ولا لأولاد نبينا ﷺ - يعني أبا الحسن محمد بن عمر وأبا أحمد الموسوي وأخاه - ولكننا وهبنا إساءته لخدمته.

ومن هذه الكلمة نفهم أن عضد الدولة كان نقم على أبي أحمد الموسوي أشياء دعتة إلى المبادرة باعتقاله، ومصادرة أملاكه ليكون عبرةً لغيره من الرؤساء.

وهنا تبدأ أعوام البؤس في حياة الشريف الرضي، ذلك الطفل الذكي النبيل الذي يواجه مكاره الحياة وهو ابن عشر سنين.

وما ظنكم بطفل يتوقّد غيرةً وحماسة، ويُقبل على الدرس إقبال الرجال فيصل النهار بالليل في درس العلوم العقلية والنقلية، ويأوي إلى بيت عامر بالكرم والجود تعجُّ أرجاؤه بأصوات الخدم والحاشية، ويرى أباه في الصباح والمساء وهو عماد المكرويين، وغيث الملهوفين، ويرى أساتذته يبالبغون في إكرامه لأنه ابن النقيب، ما ظنكم بطفل هذه أحواله يمسي بعافية ثم يصبح فيرى البيت اللب، ذاهل العقل، أن أباه جُرِّد من الحول والطَّول وألقي به في غياهب الاعتقال.

دعوا جانبًا ما حدثكم به في المحاضرة الماضية من أن شهرة المتنبي هي التي أطعمت هذا الفتى في الشعر وأنطقته به وسنّه فوق العشر بقليل، فأصدق الرأي أيها السادة، أن هذه النكبة هي التي خلقت ذلك الشاعر في يوم واحد رجلاً ينظر إلى الدنيا بعين الكهول وهو في سن الأطفال.

إن من العسير أن تتصوروا النبوغ الشعري في طفل عرير؛ لأنكم تعيشون في أزمان لا تعرف الشقاء، أزمان يكون فيها من النبوغ أن يحفظ الطفل قصيدة وهو ابن عشر سنين، ولكن يسهل عليكم تخيّل ذلك حين تتذكرون كيف كان حال الشريف الرضي حين نُقل أبوه منفيًا إلى فارس، حين تتصورون كيف أمسي ذلك الطفل فقيرًا ذليلاً بعد الغنى والعزة، حتى صح لبعض أساتذته أن يببه دارًا يسكنها.

وما أظلم الأيام التي تُحوج طفلًا مثل الشريف إلى قبول هذه الهدية بعد تمنّع وإباء! تصوروا حال الشريف وهو يحاور أستاذه فيقول: برّ أبي فكيف أقبل برك؟! فيجيب الأستاذ وهو يتوسل إليه: إن حقي عليك أعظم من حق أبيك! إي والله! إن حق الأستاذ أعظم من حق الوالد، ولكن القسوة هي في تلك الحال، حال الطفل الذي تروضه الأيام على أن يلقي أساتذته وهو غنيّ الرأس، فقير الجيب!

كانت هذه الحادثة مشثومة على الشريف الرضي وإن أحسنت في إيقاظ ما غفا من مشاعر ذلك الطفل النيبيل.

كانت مشثومة؛ لأنها سدت عليه منافذ القول في هجاء عضد الدولة وحرمته اللذة الطبيعية، لذّة التشفي بالهجاء والسباب؛ لأن عضد الدولة أخرسه وأخرس جميع أهل العراق، وسكت الطالبيون أنفسهم فلم يرتفع لهم صوت في وجه ذلك المستبد الذي أودع نقيهم غيابات السجن والاعتقال!

فإن سألتهم: وكيف صح ذلك؟ فإننا نجيبكم بأن عضد الدولة شغل

الناس جميعاً بشواغل شريفة كان لها أحسن الوقع في أنفس الأعداء قبل الأصدقاء، فقد أمر بعمارة ما هدمته الثورات من مرافق بغداد، فأعيدت المنازل والمساجد والأسواق، وأدِّرت الأرزاق على القوام والأئمة والمؤذنين والقراء.

وأقيمت الجرايات لمن يأوي إلى المساجد من الغرباء والضعفاء، وألزم أرباب العقارات التي احترقت في أيام الفتنة بإعادتها إلى أحسن أحوالها من العمارة والزينة؛ فمن قَصُرَتْ يده عن ذلك اقترض من بيت المال ليرتجع منه عند الميسرة، ومن لم يوثق منه بذلك أو كان غائباً أُقيم عنه وكيل وأطلق له ما يحتاج إليه، فأصبحت بغداد بعد مدة يسيرة وهي أحسن مما كانت عليه من قبل.

ثم مضى عضد الدولة في تجميل شواطئ دجلة مما يسائر بغداد فقضى بأن تقوم عليها عمارات المنازل ونضيرات البساتين.

وتلقت فرأى بغداد كانت تروها أنهار كثيرة ثم قضت عليها الثورات - أنهار تنقل ماء دجلة إلى سكان بغداد، تشبه القنوات التي كانت تنقل ماء النيل إلى سكان الفسطاط - تلقت عضد الدولة فرأى أهل بغداد يشربون مياه الآبار وهي ثقيلة، أو يتكلفون حمل الماء من دجلة في مسافات طويلة، فأمر بحفر الأنهار القديمة، وأقام عليها القناطر ليجتاز عليها النساء والأطفال والضعفاء.

ونظر فرأى جسر بغداد قد ضعف بحيث لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحم الناس عليه، فاختر له السفن الكبار المتقنة وعرضه حتى صار كالشوارع الفسيحة، وحصنه بالدرابزينات، ووكل به الحفظة والحراس.

وامتدت نظراته الإصلاحية فشغل نفسه بالفلاجين وأقام لهم قناطر

الأُنهار وساعدهم على استنبات الأرض وإقامة البساتين؛ فشعر العراقيون بأنهم خُلِقوا من جديد.

ولم يكفه كل ذلك بل مضى فأنشأ المستشفيات لمداواة المرضى من الفقراء، وَرَفَعَ الجبَاية عن قوافل الحجيج، وأَمَّن الطريق إلى الحج وأقام فيه المناهل وأفاض الينابيع، وهمل الكسوة إلى الكعبة، وأطلق الصلوات لأهل الشرف والمقيمين بالمدينة وغيرهم من ذوي الفاقة.

وهدته السياسة الرشيدة إلى إصلاح المُشْهَدَيْنِ بالغرَى والخائر وإصلاح مقابر قريش، فاشتركت الناس في الزيارات والمصلّيات، وكادوا ينسون ما توارثوه من العداوات.

وهدته السياسة أيضًا إلى بسط الرسوم للفقراء، والفقهاء، والمفسرين، والمتكلمين، والمحدّثين، والنسّابين، والشعراء، والنحويين، والعروضيين، والأطباء، والمنجمين، والمهندسين.

تلكم أيها السادة خلاصة ما صنع عضد الدولة في مدينة بغداد وأرجاء العراق.

فماذا يصنع الشريف لو فكر في هجاء رجل مثل هذا الداهية؟!

ماذا يصنع وقد تطوع أهل بغداد أنفسهم لخلق الأساطير والأقاصيص في الإشادة بأعمال هذا المصلح العظيم؟!

ماذا يصنع والألسنة كلها تلهج بالثناء على عضد الدولة وتراه أشرف من شهدت بغداد بعد عصور المصلحين من الخلفاء؟!

ماذا يصنع في هجاء ملك حمى البلاد من كل مفسد، وحفظ الطرق من

كل عاث، وهابه الحواضر والبوادي^(١)؟!

لقد نسي الناس أبا أحمد الموسوي ونسوا أخاه، فليظلاً في غياهب
الاعتقال؛ وليشرب الشريف الرضي كئوس الصاب والعلقم إن شاء!

ولكن عضد الدولة سيموت كسائر الأحياء، وقد مات في الثامن من
شوال سنة ٣٧٢، فماذا يصنع الشريف الرضي وقد وصل إليه هذا النبأ
السعيد؟!

كان في ذلك العهد شاباً مراحقاً يجاوز الثلاث عشرة بقليل، ولكنه كان
يفهم أن موت عضد الدولة لن يكون باب الفرج لأبيه؛ لأنه كان يرى
الظروف السياسية لا تزال حالكة السواد، وكان يدرك أن أبناء عضد الدولة
سيجرون على سنة أبيهم في معاملة من كان يعادي أو يصادق من الرجال.

فلم يبقَ إلا أن يخاطب أباه بهذه الأبيات:

أبلغا عني الحسين ألوكاً ^(٢)	أن ذا الطُّود بعد عهدك ساخاً ^(٣)
والشَّهاب الذي اصطليت لظاهُ	عكست ضوءه الخطوب فباخاً ^(٤)
والفنيق الذي تدرِّع طول الأر	ض خوى به الردى فأناخاً ^(٥)
إن ترد مورد القذى وهو راض	فبما يكرع الزلال النقاخاً ^(٦)

(١) عبارة ابن مسكويه في تجارب الأمم ج ٣ ص ٣٧.

(٢) الألوك: الرسالة، ومثلها المألكة.

(٣) الطُّود: الجبل؛ وساخ: انخسف.

(٤) باخ: برد.

(٥) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذي لكرامته على أهله ولا يركب، وخوى: سقط به.

(٦) يكرع: يعب، والنقاخ على وزن غراب: الماء البارد العذب الصافي.

والعقاب الشَّغواء أهبَّها النَّيبُ ق وقد أرعت النجوم سماخاً^(١)
 أعجلتها المنون عنا ولكن خلَّفت في ديارنا أفراخاً
 وعلى ذلك الزمانُ بهم عا د غلاماً من بعد ما كان شاخاً

هذا كل ما استطاع الشريف أن يقوله يوم مات عضد الدولة، فهو يراه فنيقاً هلك، وشهاباً هوى، وجبلاً ساخ؛ ولكنه يتخوف العواقب؛ لأن تلك العقاب تركت أفراخاً من الجوارح عاد بها الزمان غلاماً بعد أن كان اكتهل وشاب!

والواقع أن الشريف الرضي عجز عن إعلان الشهادة بالقصائد الطوال؛ لأن موت عضد الدولة أحاطت به قوتان: قوة الرأي العام، وقوة ابنه صمصام الدولة.

أما قوة الرأي العام: فتمثَّلها الكلمات التي قالها أقطاب البيان في ذلك الحين، وقد سجلها التوحيدي فقال: لما صحت وفاة عضد الدولة كنا عند أبي سليمان السجستاني، وكان القومسي حاضراً والنوشجاني وأبو القاسم غلام زحل وابن المقداد والعروضي والأندلسي والصيمري فتذكروا الكلمات العشر المشهورة التي قالها الحكماء العشرة عند وفاة الإسكندر.

فقال الأندلسي: لو تفوَّه مجلسكم هذا بمثل هذه الكلمات لكان يُؤثر عنكم.

فقال أبو سليمان: ما أحسن ما بعثت عليه! أما أنا فأقول: لقد ورن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها، وأعطاهما فوق قيمتها، وحسبك أنه طلب الريح

(١) العقاب بالضم: طائر من الجوارح. والشغواء: المختلفة نبت الأسنان بالطول والقصر والدخول والخروج، وهي تطلق على العقاب، والنيق بالكسر: أرفع موضع في الجبل. والسماخ: الارتفاع.

فيها فخر روجه.

وقال الصيمري: من استيقظ للدنيا فهذا نومه، ومن حلم بها فهذا انتباهه.

وقال النوشجاني: ما رأيت غافلاً في غفلته ولا عاقلاً في عقله مثله، لقد كان ينقض جانباً وهو يظن أنه مُبرم، ويغرم وهو يظن أنه غانم.

وقال العروضي: أما إنه لو كان مُعتبراً في حياته، لما صار عبدةً في مماته.

وقال الأندلسي: الصاعد في درجاتها إلى سفال، والنازل من درجاتها إلى معال.

وقال القومسي: من جدّ للدنيا هزلت به، ومن هزل راغباً عنها جدّت له؛ انظر إلى هذا كيف انتهى أمره؟، وإلى أي حضيض وقع شأنه؟، وإني لأظن أن الرجل الزاهد الذي مات بالشونيزية أخفّ ظهراً وأعزّ ظهيراً من هذا الذي ترك الدنيا شاغرة، ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة.

وقال غلام زحل: ما ترك هذا الشخص استظهاراً بحسن نظره وقوته، ولكن غلبه ما منه كان، وبمعونته بان.

وقال ابن المقداد: إن ماءً أطفأ هذه النار لعظيم، وإن ريحاً زعزعت هذا الركن لِعَصُوف^١.

(١) الكلمات هنا لم تبلغ العشر، وهي كاملة في ابن الأثير ج ٩ ص ٨ ومنها: كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك، وهلا اتخذت دونه جنةً تقيك؟ إن في ذلك لعلبة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين. ويقول ابن الأثير: إن عضد الدولة كان له شعر حسن، وإنه قال حين أرسل إليه أبو تغلب بن حمدان يعتذر من مساعدته بخيار ويطلب الأمان:

وهذه الكلمات - وإن كان ظاهرها الشماتة - تمثل قوة الرأي العام أصدق تمثيل، فهم كانوا يرون عضد الدولة شبيهاً بالإسكندر الذي دوّخ ممالك الأرض، ووطئت حوافر خيله أمتع البقاع في أرباض الشرق.

ومع أن عضد الدولة لم يملك العراق غير خمس سنين ونصف، فقد استطاع أن يملك قلوب العراقيين، وأن يشغلهم بالعلم والحضارة، وأن يُنسبهم ما صنعت عواصف السنين بالأنفس والأموال.

أما القوة الثانية التي صدمت الشريّف الرضي وحرمته لذة التشفي بموت عضد الدولة فهي قوة صمصام الدولة، وكان هذا الملك الجديد على جانب من صحة الرأي في بداية أمره، فقد أخفى على الناس موت أبيه عضد الدولة إلى أن تستقيم له الأمور، فلما تم له من ذلك ما أراد أعلن موت أبيه وأعلن في الوقت نفسه إلغاء الضرائب التي كان فرضها أبوه، وهي ضرائب كان يضجُّ منها الناس في السرّ، ويتهيون التضجر منها في العلانية.

وكذلك رأى الشريّف الرضي أن الدنيا بالنسبة إليه انتقلت من قُبْح إلى قُبْح، وأن سجن أبيه سيطول، فأخفى ضغائن قلبه، وأقبل على شئونه العادية وهو كاسف البال حزين.

ولكن وقع بعد ذلك ما لم يكن في الحسبان، فقد كان لعضد الدولة ابنٌ آخر هو شرف الدولة، وكان لهذا الابن رجلاً من الخواصّ يقيم في بغداد، فلما وصلت إليه الأخبار السرية بأن عضد الدولة مات، وأن صمصام الدولة يُنفي موته بادر ذلك الرجل وكتب إلى شرف الدولة بموت أبيه.

أفأق حين وطئت ضيق خناقه يبغي الأمان وكان يبغي صارما

فلأركبن عزيمة عضدية تاجية تدع الأنوف رواغما

وكان شرف الدولة يقيم بكرمان، فكتم أمره وسار إلى فارس، ثم أعلن موت أبيه، وجلس للعزاء، وأخذ البيعة على أوليائه، وأطلق لهم ما جرت به العادة من العطاء.

وعلى هذه الصورة ظهرت في دنيا السياسة لذلك العهد قوتان: قوة شرف الدولة في فارس وقوة صمصام الدولة في العراق.

أما صمصام الدولة فقد اصطنع مذاهب أبيه فكان في الأغلب يعادي من عادي ويصادق من صادق، وأما شرف الدولة فقد نظر إلى أعمال أبيه بعين المتبصر الرشيد، وكان في بواكير ما صنع: الإفراج عن أبي أحمد الموسوي وأخيه أبي عبد الله وجماعة من الأشراف (بعد أن طال بهم الاعتقال، وضعفت في خلاصهم الآمال، وكما تطرّق النوائب من حيث لا يُحْتَسَب، فقد يأتي الفرج من حيث لا يُرْتَقَب^(١)).

وهنا تحدثكم خواطركم بأن الشريف الرضي اندفع يهدر بالشعر فرحاً بنجاة أبيه من غياهب الاعتقال، ثم تأخذ منكم الدهشة كل ما أخذ حين تعلمون بأنه طوى فرحه في صدره وسكت عن هذه القضية زمناً غير قليل.

فما سبب ذلك السكوت البليغ؟!

سبب ذلك، أيها السادة، أن صمصام الدولة كان ينقم من أخيه شرف الدولة كل شيء، فكان يرى الإفراج عن أبي أحمد الموسوي ضرباً من العقوق لعضد الدولة الذي اعتقله وصادر أملاكه؛ وكان عضد الدولة أساس الميراث للأخوين المسيطرين في فارس والعراق، ولا بدّ أن يكون الشريف الرضي قد خشي أن يكون عطف شرف الدولة على أبيه سبباً من أسباب الوحشة بين أسرته وبين صمصام الدولة القابض على العراق؛ وكذلك كتم سروره بنجاة

(١) عبارة ابن مسكويه في تجارب الأمم ج ٣ ص ٨١.

أبيه وأخفى عواطفه نحو شرف الدولة إلى أن يزول العبوس من وجه الزمان.

وفي خلال تلك السنين كانت الجفوة متصلةً بين شرف الدولة وسمصام الدولة، ثم بلغ الشر أشده في سنة ٣٧٦ فأغار شرف الدولة على أطايب ما يملك سمصام الدولة، وهاجت بينهما الحرب، فانتصر شرف الدولة، وقبض على أخيه ودخل بغداد دخول الفاتحين.

وباندحار سمصام الدولة صار من حق أبي أحمد الموسوي أن يعود إلى بغداد، ويرى ابنه المحبوب الذي نظم من القصائد في التوجع لأبيه ما لا ينظم مثله إلا أبرُّ الأبناء في أكرم الآباء.

أيها السادة:

أتروني أضجرتكم بهذه الصفحات الدامية من التاريخ؟

لقد أذيتُ عيني تحت المصباح ليالي كثيرة لأراجع حوادث تلك السنين وأستخلص منها هذه الصفحات، وما أظنني ظلمت التاريخ حين وجهته على غير ما ينتظر المؤرخون، فقد دوّنوا ما دوّنوا وفهمتُ ما فهمتُ؛ ولكل باحث أسلوب.

ولا يعنيني إلا أن أصل بكم إلى تعرّف نفسيّة الشريف التي صبغتها أعوام البؤس بالدم النجيع، لا يعنيني إلا أن تعرفوا كيف صح لذلك الرجل أن ينظم عشرات القصائد في مدح أبيه، وتلك خصلة لا نجد لها بهذا الوضوح عند غيره من الشعراء.

إن الأدب، أيها السادة، لا يستطيع أن يستقل عن التاريخ؛ وكيف وهو من صور التاريخ؟

وقد استطعنا بهذه الجولة السريعة أن نعرف ألوان الأيام التي تفتّحت فيها عبقرية الشريف الرضي، وفهمنا كيف كان يرى الدنيا بأعين الكهول وهو في

نضرة الشباب، فلنسجل مع ذلك أن الشريف أفاد من أعوام البؤس نعمة باقية فقد أحب أباه حباً لم يسمع بمثله الناس، وصار يتلهف عليه تلهفاً موجعاً، وينظم فيه أشعاراً لها رنين الأسجاع؛ أسجاع الحرائم الباكية في إثر الأليف المفقود.

وما كان اعتقال والد الشريف إلا نكبة حلّت بذلك البيت، فقد ذهبت دنيا أولئك الناس مرةً واحدة، إذ سُجن سيد البيت، ثم صودرت الأملاك؛ وتابعت الرزايا على صورة تُثبت الشجى في أقسى القلوب.

وزاد في تلك المأساة أنها صادفت فتى رقيق الحس، مُرَهَف القلب، شاعر الروح، فصيرته وتراً حناناً يجيد تصوير الأسى وترجيع الأنين.

وضاعف من نكد تلك البلية أن ذلك الفتى كان يرى الكفر أهون من المكسب الخسيس، فساقه التصون إلى الضنك؛ ولم يبقَ أمامه وأمام أخيه غير التصرف فيما كانت تملك أمهها الرءوم، وقد قسا الدهر وعَنُفَ فاضطرَّ تلك السيدة إلى بيع أملاكها وحُلِّيَّها لتضمن لولديها العزيزين عيش الكفاف إلى أن يمنَّ الله على زوجها بالخلاص.

أيها السادة:

لم أرد أن أطيع القلم وأنا أكتب هذه المحاضرة فأغزو قلوبكم بالحزن على رجل صار في ذمة التاريخ، ويكفي أن تعرفوا أن صاحبنا لم يقل الشعر الجيد وهو ابن عشر سنين إلا لأن الزمن رماه في طفولته بما يمنح الأطفال عقول الكهول؛ وسترون في الليالي المقبلة أنه بدأ يشكو الشيب وهو في سن العشرين "وشيبُ الرأس من شيب الفؤاد".

والآن نواجه أشعار الشريف في مدح أبيه فنقول: إن الشريف مدح أباه بأكثر من أربعين قصيدة، وأشعاره في مدح أبيه تنقسم إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: في التوجع لأبيه وهو سجين.

والطائفة الثانية: في تهنئة أبيه بالخلاص وردِّ أملاكه إليه.

والطائفة الثالثة: في تهنئته بالأعياد بعد أن لان الزمان.

ولكل طائفة من هذه الأشعار خصائص:

فالطائفة الأولى: تصور الحزن والجزع والتفجع.

والثانية: يغلب عليها الابتسام ولكنها تفيض بالسُّمُّ الزُّعَاف في الثورة على الناس.

والثالثة: تخلع على أبيه رداء الملوك، فهو يدخل عليه في كل عيد بقصيدة كما يصنع الشعراء في تحية الخلفاء والملوك.

وقبل أن ندخل في تحليل هذه القصائد نوجه أنظاركم إلى شرح الظاهرة الأدبية التي تجدونها في ديوان الشريف الرضي، فأنتم تذكرون أن جامع الديوان يسمى قصائده القديمة "قواذف" ويُذكر في أغلب الأحيان أن الشريف حذف من تلك "القواذف" أشياء.

وتعليل هذه الظاهرة لا يصعب على من يتذكر الظروف السياسية التي فصلناها في صدر هذه المحاضرة، فتلك "القواذف" كانت بالتأكيد تمسُّ بني بُوَيْه، ثم هُذِّبَتْ طلباً للسلامة من شر أولئك الملوك.

وينبغي أيضاً أن ننص على خصائص الأشعار التي نظمها الشريف بين ٣٦٩ و ٣٧٦ فهذه القصائد كان يغلب عليها التبرم والضجر والاكْتِتاب، وقد حوَّلتها الحوادث إلى رجل ودُّود يعطف على مصائب الناس، ولا سيما المنكوبين بقسوة الملوك.

ومن شواهد ذلك قصيدته الهمزية إلى صديق حلَّتْ به نكبة، ولم يذكر جامع الديوان ما هي تلك النكبة، ولكننا نفهم أنها نكبة سياسية، إذ نراه يقول:

وأحوال يَدِبُّ لها الضراء ^(١)	حُطوبٌ لا يقاومها البقاء
وكيف يصحح والأيام داء	ودهرٌ لا يصحُّ به سقيمٌ
وفي الأموال لو قنعوا فداء ^(٢)	وأملكٌ يرون القتل عُثْمًا
كما استولى على العود اللحاء ^(٣)	همُ استولوا على النجباء منا
وليل لا يجاوره ضياء	مُقَامٌ لا يجاذبه رحيلاً
ويعطيك المهنة ما تشاء	سيقطعك ^(٤) المثقف ما تمنى ^(٥)
فلت صبح يدوم ولا مساء	بلونا ما تجيء به الليالي

وهي قصيدة كثيرة الفنون، نقف منها عند قوله في تعزية ذلك المنكوب:

كريمُ الزاد يُحِرِّزه الوعاء	وما حَبَسَتْكَ منقصةٌ ولكنْ
إذا غدرتْ وشيمتنا الوفاء	فلا تحزنْ على الأيام فينا
ويطلقه على القيم المضاد	فإن السيف يجبسه نجادٌ

وهو بهذه الأبيات يمدح السجن، أو يتكلف مدح السجن؛ لأن أباة مسجون.

وفي تلك المدة تدلنا أشعار الشريف على أن ناسًا كانوا اجترءوا على شتمه وتجريحه، فكان يتجمل ويتحلم صوتًا لنفسه عن التسليح بالسباب، كأن يقول:

(١) الضراء بالفتح: الاستخفاء.

(٢) الأملاك: الملوك.

(٣) اللحاء: القشر.

(٤) من الإقطاع: وهو الإعطاء. والمثقف: الرمح.

(٥) تمنى: تمنى بحذف إحدى التاءين للتخفيف.

يعوذُ بالحمدِ إِشْفَاقًا على النعم
 غَطَّى بِسَترِ العطايا عَوْرَةَ العُدْمِ " "
 عصمته بإخاءٍ غيرِ منجذم
 ولو رَمَوْهُ بِجِراحِ من الكلم
 أَجفان كل مُربِّب اللحظ متهم
 فاستنصرَ العذرَ واستحيا من الجُرْمِ
 كانت مناسج بُردِيته على التهم
 وعرضه آمنٌ من هاجرات فمى " "
 فأبى فاحشةً تدنو إلى حرم

ما يطلب الدهرُ والأيام من رجل
 إذا اقتضته الأمانى بعض موعده
 من مَدِّ معصمه مستعمصًا بيدي
 ومن أشيِّعه يأمن من لوائمه
 ولو هتكت حجاب الغيب لافتضح
 كفى الذي سبني أبى صبرتُ له
 بُردى عفيفٌ إذا غيري لَفَجَرْتَه
 إذا العدوُّ عصاني خاف حدَّ يدي
 جعلت سمعي على قول الخنا حَرَمًا

وما نحب أن نطيل في سرد الشواهد، فهي كثيرة في الديوان، ويكفي أن ندل على ملامحها بهذه التوجيهات، وإن كان الشريف أفصح عنها أبلغ إفصاح وهو يقول في مخاطبة الصاحب إسماعيل بن عباد:

تربى له فضلًا ومجدًا ومجيدًا
 إلى العمر إلا احتلَّ في الفضل مقعدًا
 حديثًا ولا يدعو من الناس مُنجدًا
 كفاني من الغُدران ما نَفَعَ الصدى
 وإن كان ما أعطى قلباً مُصَرِّدًا
 ولو كنت أرضى الناس ما كنت مُفَرِّدًا

فَتى سَنُهُ عن خمسَ عشرةَ حجةً
 فتى الصبا كهل الفضائل ...
 تفرَّد لا يُفشى إلى غير نفسه
 ولا طالبًا من دهره فوق قوته
 سأخذُ عيشًا صان وجهي ببائه
 وقالوا لقاء الناس أنسٌ وراحةٌ

ونعود فنذكر أن أول قصيدة قالها الشريف في التوجع لأبيه هي الدالية:

(١) العُدْم بضم العين وهو الفقر.

(٢) المعنى: أن العدو يخاف سيفه، ولكنه لا يخاف لسانه؛ لأنه لا يصون لسانه عن

الاغتياب.

نُصافي المعالي والزمانُ معانُدُ وننهض بالآمال والجهدُ قاعدُ

وقد نظمها وسنُّه فوق العشر بقليل، نظمها وهو في لفح العبارة القاسية التي فاه بها المطهر بن المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة حين اعتقل والد الشريف فقد قال: إلى كم تُدَلُّ علينا بالعظام النَّخرة !!

وكان المنتظر أن تكون هذه القصيدة ضعيفة؛ لأنها من نسج شاعر طفل ولكن قسوة الحوادث أمدت الطفل بعقل الكهول، وأضافته إلى فحول الشعراء.

تقع هذه القصيدة في ثمانية وسبعين بيتاً، فهو فيها طويل النفس، وقد عرّض فيها بالخليفة العباسي ولوّح له بعظمة الفاطميين في مصر، وكان ذلك يومئذ من المحظورات، وانظروا كيف يقول:

وطاغ يُعير البغيَ غَرَبَ لسانه وليس له عن جانب الحق ذائد
شنتت عليه الحق حتى رددته صموتاً وفي أنيابه القول راقدُ
يُبدلُ بغير الله عضداً وناصراً وناصرك الرحمن والمجد عاضدا
يُعيرُ ربَّ الخير بالي عظامه ألا تُزّهت تلك العظام البوائد
ولكن رأى سبَّ النبي غنيمَةً وما حوله إلا مريبٌ وجاحد
ولو كان بين الفاطميين رفرت عليه العوالي والظبا والسواعد

وفي هذه القصيدة تحدّث الشريف عن سجن أبيه وعمه حديث الحكماء.

وهناك قصائد بلا تاريخ، منها قصيدة:

رأيت المنى تُهزّة الثائر وسهمُ العُلا في يد القامر

وقصيدة:

أما ذُِعرت بنا بقَر الحدورِ وغزلان المنازل والقصورِ

بِإِثْمِ الْقَلْبِ نَاطِرُهُ وَأُنْجَى النَّاسِ كَسَايَرُهُ

وقصيدة:

شِمْمِي لِحَاطِكِ عِنَاظِيَةِ الْخَمْرِ " لَيْسَ الصُّبَا الْيَوْمَ مِنْ شَأْنِي وَلَا وَطْرِي

وقصيدة:

لَا تَرْقُدَنَّ عَلَى الْأَذَى وَأَعْزَمَ كَمَا عَزَمَ ابْنُ مُوسَى

وقصيدة:

وَقَى بِمَوَاعِيدِ الْخَلِيطِ وَأَخْلَفُوا وَكَمْ وَعَدُوا الْقَلْبَ الْمُعْتَى لَمْ يَفُؤُوا

وقصيدة:

بَيْنِي وَبَيْنَ الصَّوَارِمِ الْهَمَمُ لَا سَاعِدٌ فِي الْوَعَى وَلَا قَدَمٌ

وقصيدة:

بِمَجَالِ عَزْمِي يُمَلَأُ الْمَلَوَانِ وَتَضَلَّ فِيهِ بِوَانِقِ الْأَزْمَانِ

وقصيدة:

مَنْ لِي بِرَعْبَلَةٍ مِنَ الْبُزْلِ قَرَمِي إِلَيْكَ مَعَاقِدَ الرَّحْلِ "

فهذه القصائد التسع بلا تاريخ؛ ولكن الذي يتذكر ما شرحناه آنفاً يستطيع أن يعرف تواريخها بلا عناء؛ فليجعلها تلاميذنا في دار المعلمين العالية مجالاً للدرس والتحقيق.

ثم ننظر فتراه نظم ثلاث قصائد سنة ٣٧٤؛ الأولى قصيدة:

(١) الخمر بالتحريك ما داراك من شجر وغيره.

(٢) الرعبل: الناقة الرعاء، ولا تكون كذلك إلا لفرط النشاط، والبزل جمع بازل وهو

الذي يبلغ تسع سنين.

إذا احتبى بالعُشب الوادي وانحلَّ فيه الواكف الغادي

والثانية قصيدة:

بغير شفيع نال عفو المقادر أخو المجد لا مستصراً بالمعادر

والثالثة نظمها بعد أن سنحت الفرصة بالاجتماع مع أبيه عند قدومه من بلاد تدمر، كذلك يقول جامع الديوان: ولا نعرف ما هو قدوم الشريف من بلاد تدمر، ذلك القدوم الذي يسمح له بالاجتماع مع أبيه في بلاد فارس؟

ولكن لا بأس من الموافقة على أنه استطاع أن يرى أباه في ذلك العهد، فنحن في سنة ٣٧٤ وكان صمصام الدولة بدأ يشهد ضعف سلطانه في العراق.

وفي هذه القصيدة يظهر شيء من البشاشة، فنرى الشريف يتغزل فيقول:

وماء تشبه الريح كلاً عشية كما رَقَمَ البُرْدَ الصَّبِيغَ يَمَانِي
مررتُ بغزلانٍ على جَنبَاتِهِ فأطلقن دمعِي واحتبلنَ جَنَانِي (١)
وعاجلني لوم (٢) الرفيقين في الهوى عشيةً مَالِي بالفراقِ يَسْدَانِ
يقولان أحياناً بقلبك نشوةً وما علمنا أن الفراق سقاني
وكم غادرَ البين المفرُّقُ من فتى يمسح قلباً دائماً الخفقان
وما الحبُّ إلا فرقةٌ بعد ألفيةٍ وإلا حذارٌ بعد طول أمان

وفي القصيدة يعرض الشريف بمن خذلوه من الأقارب، ويذكر بعض ما لاقى من الخطوب، ثم يمضي إلى مدح أبيه فيقول:

(١) في الديوان: (اختبلن) بالخاء المعجمة وهو تحريف.

(٢) في الديوان: (يوم) والصواب ما أثبتناه.

تلاقى على عرنينه القمران^(١)
 وإن رمت طعناً بالرماح حياي
 ويمضي إذا ما زلّت القدمان
 ليوم نزال أو ليوم رهان
 كما يرتمي بالماتح الرجوان^(٢)
 يحدثنا عن يذبل وأبان^(٣)
 تجرّ العوالي عرضةً لطحان
 ضلوعٌ على الغل القديم حواني
 نجاء الثريا من يد الدبّران
 وطامن للأيام شخص مُهان
 كما حيل بين العير والنّزان
 فألقى على حكم الردي بجران^(٤)

وأبيض من غلياً معدّ كأنها
 إذا رمت طعناً^(١) بالقريض حيثه
 يجود إذا ضن الجبان بنفسه
 بصيرٌ بتصرف الأعتة إن سرى
 ترامى به الأيام وهو مصمّم
 إذا ما احتبى يوم الخصام كأنها
 أبا أحمد أنت الشجاع وإنما
 ولما غوى الغاؤون فيك وفرجت
 نجوت من الغمّاء وهي قريبة
 وغيرك غصّ الذل من نجواته
 وحال الأذى بين المراد وبينه
 وكان كفحل البيت يطمح رأسه

وهذا تعريضٌ جارحٌ برجال كان يعرفهم الشريف، رجال اضطهدهم عضد الدولة فلم يثبتوا على البأساء، وقهرتهم الحوادث على التنصل من مذاهبهم السياسية.

وقد حاولنا أن نتعرف إلى بعض كبار العلويين في ذلك العهد، ولكننا خشينا أن نظلم الأموات بلا سبب تسنده البراهين، وأول من فكرنا فيه أبو الحسن العلوي، وكان شخصية هائلة تمتلك جماهير الناس في الكرخ وبغداد أقوى امتلاك، وقد اعتُمل مع أبي أحمد الموسوي وصودرت أملاكه فكان في

(١) العرنين بالكسر هو الأنف.

(٢) أحب أن أقرأ: "إذا رام طعناً".

(٣) الرجوان: مثني الرجا وهو ناحية البئر.

(٤) يذبل وأبان: جيلان.

(٥) الجران بالكسر: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره.

خزائنه من الذهب مليون دينار، وهو أضخم مبلغ للثروة الفردية في ذلك الحين، وهذا الرجل سكت عنه الشريف الرضي حين توجَّع لأبيه وعمه، فهل يمكن الظن بأنه دخل في مكاتبات سرية مع عضد الدولة لينعم بالخلاص؟

ذلك ظنٌّ من الظنون لا يقوم عليه دليل، ويكفي أن نسجل أن ذلك الرجل كان له في تلك العهود مكان مرموق، وأن من المحتمل أن يكون الشريف قصده بذلك التعريض^(١).

وفي سنة ٣٧٥ نظم الشريف ثلاث قصائد، الأولى قصيدة:

يا دار ما طربتُ إليك النوقُ إلا وربُّك شائقٌ ومشوقٌ

وهي من روائع المدائح.

والثانية قصيدة:

وَقَفَّ عَلَى الْعَبْرَاتِ هَذَا النَّاطِرُ وَكَفَاهُ سُقْمًا أَنَّهُ بِكَ سَاهِرُ

وهي من طلائع الفرح؛ لأنه نظمها وقد توجَّه أبوه من فارس في صحبة شرف الدولة، وهي قصيدة جرى فيها على مذاهب الشعراء فابتدأها بالتشبيب ثم تخلص إلى مدح أبيه فقال:

أغضيت عن وجه الحبيب تكرمًا
هب لي وحسبي نظرة أرنوبها
فَلَمَّ أَبْلَجُ إِنْ أَهْلَ جِينَهُ
قَرُبَ الْغَمَامُ فَعَنْ قَرِيبٍ يَشْنِي
وأرسته أن الجفون كواسرُ
فمقرها وجه الحسين الزاهرُ
جمحت إليه خواطرٌ ونواظر
فبيلُ مربعك العريض الماطر

(١) ظهر لنا أن الفرض صحيح، وسببت الشاهد الذي يؤيده في ذيل الكتاب:

والثالثة قصيدة :

من الظلم أن نتعاطى الخماراً^(١) وقد سلبتنا الهمومُ العُقارا

وقد نظمها حين وصل أبوه وعمه إلى شيراز، وفيها يقول في تعزيتها عن ضياع الأملاك:

إذا ساءَ الدهرُ نفسيكما فلا حاربَ الدهرَ إلا اليسارا
أصابتكما نكبةٌ فأنجلستُ وعاودتما العزَّ إلا الديارا
ودهرٌ يرُدُّ علينا العَلا ء أجديرُ به أن يرُدَّ الغفارا^(٢)
ألم تريا من رَمثه الخطوب يمينًا تُنازعُه أو يسارا
لئن جُلتما في مَكْر الزمان فبواكما من مَداه العِثارا
فما يَقْرَع الدهرُ إلا الحليم ولا ينكث الخرق إلا الوقارا
تَفَرَّقَ ما لكما في العدا وشخصُكما واحدًا لا يمارى

وهناك قصيدة غير مؤرَّخة نظمها الشاعر وأنفذها إلى أبيه قبل دخوله بغداد بأيام يسيرة على يد بعض أصحابه، فهو كان يعرف معنى التحية، تحية الراجع إلى وطنه وهو في الطريق، كما نُرسل برقيات التحية في هذه الأيام ليفرح بها القادمون وهم على مُتون البواخر، وهذه القصيدة ليست من الطوال، ولكنها على قِصرها تصوِّر شوقه إلى أبيه، شوق الطفل المضِيع إلى الوالد العطوف، فهو يذكر كيف تركه أبوه وهو نَبْتُ ضعيف؛ ويشير إلى ما صنعت به الأيام فيقول في آخر القصيدة:

لما ذكرك عدا قلبي شوقُهُ فبكين عنه مدامعُ الأفلام^(٣)

(١) الخمار بالضم: صدامع الخمر.

(٢) الغفارا بالضم: يراد به المال.

(٣) جمع الشريف بين نون النسوة وبين الفاعل، وهذا يقع أحيانًا في شعره ومنه أيضا قوله:

خَلَقْتَنِي زَرْعًا فَظَلْتِ وَإِنَّمَا ذَاكَ الْغَرَارُ نَمَى إِلَى الصَّمَامِ^(١)
 أَكَدْتِ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ أَطْرَافِهَا وَتَدَرَّعْتَ بِمَدَارِعِ الْإِظْلَامِ^(٢)
 وَعَهْدْتَهَا خَضْرَاءَ كَيْفَ لَقَيْتَهَا أَبْصَرْتَ فِيهَا مَسْرَحًا لِسَوَامِي^(٣)
 أَشْكُو وَأَكْتُمُ بَعْضَ مَا أَنَا وَاجِدٌ فَأَعَافُ أَنْ أَشْكُو مِنَ الْإِعْدَامِ^(٤)

ثم يطلعُ البدر بعد طول الاحتجاب، ويرى الفتى أباه في بغداد سنة ٣٧٦، ولكن كيف رآه؟ رآه شاحب اللون، هزيل الجسم، قد نالته ظلمات الاعتقال، فيتمثله في حالين: حال البؤس، وحال النعيم، وتريده أحيلة الماضي المحزن تعلقاً بذلك الشيخ الجليل الذي يعود إلى وطنه عود الجراز المفلول.

ولا يعلم إلا الله كيف خَفَقَ قلب ذلك الفتى حين رأى أباه، فقد كان لا يزال طفلاً، وكانت المعاني السود والبيض تلذع قلبه لذعاً عنيفاً، والعواطف العاصفة لا يعرفها غير الأطفال.

ولكن قصيدته في استقبال أبيه تدلنا على بعض ما جاش في صدره من المعاني، ولننظر كيف يقول:

تَعَزَّيْتِ مَسْتَأْنَسًا بِالْبَعَادِ وَاللَيْثُ فِي كَمَلِ أَرْضِ غَرِيبِ^(١)
 وَأَحْرَزْتَ صَبْرَكَ لِلنَّائِبَاتِ وَلِلدَّاءِ يَوْمًا يَسْرَادِ الطَّيِّبِ^(٢)
 لِحَا اللَّهِ يَوْمًا أَرَانَا السِّدْيَا رَيْنَدِبُ فِيهَا الْبَعِيدِ الْقَرِيبِ^(٣)
 وَمَا كَانَ مَوْتًا وَلَكِنَّهُ فَرَأَى تَشَقُّقًا عَلَيْهِ الْجِيُوبِ^(٤)

فَمَا تَغْنِي الْقَوَادِمَ مِنْ جِنَاحِ نَحَامِلِ إِنْ قَعَدْنَ بِهِ الْخَوَافِي

(١) الغرار بكسر الغين: حد السيف.

(٢) أكادت الأرض: غلظت وصلبت.

(٣) الإعدام: الفقر.

(٤) الشطر الثاني يجري مجرى الأمثال.

فقد كان من فعله ما يريب
فآل وغصنُ المعالي رطيب،
أطاع ولكن عصاك الحبيب
وذلل فيك المطيِّ اللغوب
كفيل طلوع البدور الغروب
عليك وفي كل قلب وجيب
عزاءً يَغُورُ ودمعٌ ريب
والصبرُ مرتحلٌ لا يثوب
وأعلم أن لا يسر اللبيب
أن الزمان عليه رقيب
تخطر والريعُ ربعٌ جديب
ك مذبان في حاجبيه القطوب

لئن كنت لم تسترب بالزمان
رمى بك والأمر ذاوي النبات
ولما جذبت زمام الزمان
ولما استطال عليك الزمام
رجوت البعاد على أنه
رجلت وفي كل جفن دمٌ
ولا نُطقٌ إلا ومن دونه
وأنت تعلننا بالإياب
وسرَّ العدا فيك نقص العقول
أما علم الحاسد المستغرُّ
قدمت قدوم رفاق السحاب
فما ضحك الدهر إلا إليـ

إلى أن يقول:

خَلَقَ عَجِيبٌ وَخُلِقَ أَدِيبٌ^(١)
فطال وأورق ذاك القضيبي
يعبرُ عنها الفؤاد الكئيب
أن تتخطى إليها العيوب
إذا جاءني الأمل المستيب

حَيَاكَ مَنْىَ عِنْدَ اللَّقَاءِ
وخلفتني غرس مستثمر
ذخرت لك الغرر السائرات
نصون مناقبك الشاردات
وإني لأرجوك في النائبات

وفي تلك السنة يظهر لونٌ جديد في شعر الشريف: هو مدح بني بويه، وكان من قبل لا يمدح غير الخلفاء، لقد كان ذلك الفتى يبغض بني بويه بغضاً شديداً، ولكن ذلك البغض هدأ بعد أن رأى شرف الدولة الذي أنقذ

(١) الخلق الأول بفتح الخاء والثاني بضمها، يريد أن جسمه نما وعقله اكتمل وكان أبوه تركه طفلاً.

أباه من الاعتقال.

وكذلك نراه ينظم قصيدة جيدة في مدح ذلك الملك، ولكنه لا ينسى أن ينص على سبب المدح فيقول:

هذا أبي والذي أرجو النجاح به
لولا ما انفسحت في العيش همته
حططته من ذرى صمَاء شاهدة
تلعاء عالية الأرداف تحسبها
تلقي ذوائبها في الجو ذاهبة
وأنت طوقته بالمنّ جامعة^(١)
أوسعته فرأى الآمال واسعة
جذبت من لهوات الموت مُهَجَّتَه
وما كان إلا حُسامًا أغمدته يدٌ
فاقذف به تُعَرُّ الأهوال منصلتا
ولا تطيعنَّ فيه قول حاسده
أولى بتكرمة من كان يحمدها
كفناك منظرةً إيضاح مخبره
تحمّل الشرف العالي وكم شرف

أيها السادة:

(١) تلعاء : عالية، والرشاء الجبل والمستحصد المتين.

(٢) القلل: جمع قلة بالضم وهي القمة.

(٣) الجامعة: الطوق.

(٤) اللهوات: جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الخلق.

(٥) الثغرة: جمع ثغرة بالضم وهي الفتحة، والمنصلت: السيف الصقيل. والخيس بالكسر: موضع الأسد، والوعل تيس الجبل.

لقد زفت سنة ٣٧٦ أعظم بشرى إلى الشريف، إذ سمح له الدهر برؤية أبيه في بغداد، ولكن هناك بشرى ثانية، فما هي تلك البشرى؟ أهي ردُّ الأملاك التي صودرت بعد الاعتقال؟ هيهات، فلن تُردَّ الأملاك إلا بعد سنين، فما هي تلك البشرى إذن؟

هي موت المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة، وقد شمت الشريف في موت ذلك الوزير الذي اعتقل أباه وعبره الإدلال بالعظام النَّخرات، عظام أهل البيت.

وأعيذكُم أن تؤاخذوا الشريف على الشماتة في ميت، فللشريف عذره وهو أنه لا يزال فتى غض تبصَّره الأيام بمقامات الكلام، وموقفنا في هذه المحاضرات موقف المؤرخ للأفكار الأدبية، فلا بأس من الإشارة إلى هذا الحادث الذي كنا نتمنى أن لا تزَلَّ فيه قدم الشريف.

ولكن من الذي يوجب احترام عظام ذلك الميت بعد أن أهان عظام أهل البيت؟ هي غلطة بغلطة، وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها، وليس الشريف من المعصومين وفي الحق أني أنكرت تلك الشماتة، ولو كنت رأيت الشريف الرضي لرجوته تمزيق هذه القصيدة! ومن يدري فلعلي لو كنت مكانه لوقعت في أقبح مما وقع فيه، وهل للشعراء عقول؟!

ابتدأ الشريف تلك القصيدة بمدح أبيه، فلما وصل إلى التعريض بذلك الميت قال:

وَجِلَّ العَيْنِ من قِرَاعِ الرِقَادِ ^(١)	وَجَبَانٍ لَوِيتَ عَنْهُ فَأَمْسِي
عَلَى النَّاطِرِينَ شَوْكَ القِتَادِ	مَتَسَطِيرًا كَأَنَّ أَهْدَابَ جَفْنِيهِ
وَجَازَاكَ بِفِغْضَةٍ بِالوُدَادِ	لَا أَقَالَ الإِلَهَ مِنْ خَانَكَ العَهْدِ
وَالْمَوَاضِي تُصَانُ بِالإِغْمَادِ	ظَنَّ بِالعَجْزِ أَنَّ حَبْسَكَ ذُلٌّ

(١) القِرَاع بالكسر: مصدر قارعه مقارعة إذا قاتله:

قصر الدهر من ذراه وقد كا
وأذلّ الزمان بعدك عِظْفِيه
كنت ليثًا وكان ذئبًا ولكن
وتمادى بما جناه على الأيا
سمحت كفه به للمنايا
ظن أن المدى يطول وفي الآ
هكذا تدرك النفوس من الأعداء
كل حبس يهون عند الليالي؟
وتداركت ما تمنيت والأحشا
نلت بعضًا وسوف تدرك كلاً

ن بتلك الظُّبا طویل النجاد
وقد كان من أعز العباد
لا تلذُّ الأشكال بالأضداد
م حتى جنى عليه السهامي
بعد أن لم يكن من بالأحواد
مال ما لا يعان بالأجداد^(١)
بَرَد القلوب والأكباد
بعد حبس الأرواح في الأجساد
ء مزورة على الأحقاد
إنما السيل بعد قطر العهد^(٢)

أيها السادة:

في هذه البيت الأخير ترون الشريف يصرِّح بأن أباه لم ينل بعودته من فارس كل شيء، وهذا حق، فقد ضاعت من أبي أحمد الموسوي أشياء، ضاعت منه الأعمال الرسمية وكانت من أعظم مظاهر التشريف، وهي: نقابة الطالبين، وإمارة الحج، والنظر في المظالم، وضاعت منه الموارد الأساسية للرزق، وهي الأملاك التي صودرت وحُرم منها أطفاله منذ سنين.

أما الأعمال الرسمية فلم تعد إليه بعودته إلى بغداد، وإنما طاولتها الظروف فلم تعد إلا في سنة ٣٨٠، وكان لرجوع تلك المناصب إلى أبي أحمد الموسوي نشوة طرب رققت لها أخيلة الشعر في خواطر الشريف الرضي فاندفع يقول:

أنظر إلى الأيام كيف تعودُ وإلى المعالي الفرُّ كيف تزيدُ

(١) الأجداد: جمع جَد بالفتح وهو الحظ.

(٢) العهد جمع عهد وهو أول مطر الوسمي.

فارتاح ظمآن وأورق عود
 فتركنه حِمْر الجنان يميد^(١)
 فالعيش غَضُّ والليالي غيد
 يمضي وَجَدُّ في العلاء جديد
 ينسي عليه السؤدد المعقود
 ومقارعوه على الأمور قُعود
 عُدَّدُ عراض في العلا وعديد
 واندقُّ من عمد الضلال عمود
 تُصمي وآسيها الندى والجود
 أبداً ووعدٌ صادقٌ ووعيد
 ليثا تقيبه مَقَادِرٌ وَجُدود
 سهم إلى قلب العدو شديد
 ضَعْدًا فما نقع الغليل حَسودُ
 تسري وعارضها الغزير يجود^(٢)
 بين الضلوع ضغائنٌ وحقود
 كادوا وما أعطوا المراد فكيّدوا
 ظِنَّنٌ فَكَلٌّ بالعقوق بعيد^(٣)
 وألان إذ ملك الزمام^(٤) وقيدوا

وإلى الزمان نبا وعاود عطفه
 نَعَمٌ طلعت على العدو بغِيظِهِ
 قد عاود الأيام ماء شبابها
 إقبالٌ عز كالأسنة مُقبِلٌ
 وعُلا لأبلج من ذؤابة هاشم
 قد فات مطلوبنا وأدرك طالبنا
 خسأت عيونهم وقد طمحت له
 ما صال إلا انجباب غيِّ مُظلمٌ
 يأسو ويبحر فالجراحمة عزيمة
 سطوٌ وصفحٌ يطرُقان عدوّه
 عن أيِّ باع في العلاء رميتُم
 طاشت سهامكم وفارق نزعه
 حسدوك لما فات سعيك سعيتهم
 ورأوا بوائجها تلوح وريحها
 عَجَل الزمانُ بها إليك وحُطِّمَتْ
 قد كنت أخشى أن يقول مخبّرٌ
 أو أن يقال أقاربٌ نزعت بهم
 سُئلوا العواد^(٥) فجانبوه فعاودوا

(١) حمر الجنان: مكوي القلب، من قولهم: حمر الرجل، إذا توقد غضباً.

(٢) البوائج: جمع بائجة وهي الداهية.

(٣) الظنن: جمع ظنة بالكسر وهي التهمة.

(٤) في الديوان: (الزمان).

(٥) العواد: بالضم يراد به الصلح.

لولا الألية منك أن لا تنتضي
 لستنت في الأقوام غير ملوم
 اليوم أصحرت الضغائن وانجلت
 وتراجعوا غصبا إليك وخلفهم
 فاصفح فسوف ينال صفحك منهم
 عَصْبًا يقوم مقامه التفتيد
 ما سنَّ يوم ابن الزبير يزيد
 تلك الموارد والجباه السود
 عنف السباق وللقلوب وثيد
 ما لا ينال العضب وهو حديد

وهي قصيدة على جانب عظيم من السلاسة والقوة، وقد سكتنا عن رواية الأبيات الخاصة برجوع تلك المناصب، وأثبتنا الأبيات التي تعبر عن الثورة على الأقارب؛ لأن هذه الأبيات ستنتفعنا فيما بعد، حين نبحث عن السبب في شراسته وهو يخاطب الأقرباء.

أما الأملاك التي صودرت فسيطول عليها التفجّع، ولكن سيُرَدُّ منها جزء في سنة ٣٨٦ وجزء في سنة ٣٩٦، ومعنى ذلك أن أبا أحمد الموسوي سيظل في انتظار أملاكه المسلوقة إلى أن تُضعفه الشيخوخة ويقضي الزمن على نور عينيه بالذهاب.

وإنما نعبر بهذه العبارة الحزينة لنعلل فرح الشريف برجوع تلك الأملاك؛ فقد كان يرى أباه شيخاً ضعيفاً لا يعرف السبيل إلى مسالك الرزق، ولا تُسْتَرَّ شيخوخته إلا برجوع تلك الأملاك.

وهنا نشير إلى خطأ وقع فيه جامع الديوان، فقد ذكر أن الشريف هنا أباه برد أملاكه إليه بأسرها في سنة ٣٨٦، والصواب أن تقرن هذه العبارة بالقصيدة التي نظمها سنة ٣٩٦.

(١) الألية: اليمين، والعضب: السيف.

(٢) أصحرت: انكشفت، والموارن: جمع مارن وهو الأنف.

(٣) الوثيد: في الأصل هدير البعير، والمراد به هنا: الصوت العالي الشديد.

(٤) حديد: قاطع.

فعدنا إذن قصيدتان في التهنتة بردً تلك الأملاك: الأولى عينية، والثانية دالية.

أما العينية: فهي قصيدة جَزِلة تحدث فيها الشريف عن عزمه الوثاب، وبليته بالأعداء؛ ثم وجَّه الخطاب إلى أبيه فقال:

ليهنك ما تجدُّهُ الليلي	وحسبك من فراقٍ واجتماع
ومارد الزمانُ عليك حفظًا	من الأملاك والمال المضاع
تمارى الناس قبلك وهي غصب	أديوان الضَّياع أم الضَّياع ^(١)
وعادت في يدك مروّضات	وكانت فُتِّعَ قرقرة بقاع
ظفرت بما اشتهت وأنت وإن	ونال البعض غيرك وهو ساع
ييشر والقلوب مفعّعات	كأنَّ بشيره في الخلق ناع
وما كلُّ المواهب بالأمانى	ولا كلُّ الأحاظي بالقراع ^(٢)
لكلُّ في بلوغ العز طبعٌ	وبعض الناس مختلف الطباع

وقد ساقه المقام إلى أن يسجل مكرمة شرف الدولة فقال:

أجار أبو الفوارس منك سيفًا	تحاتته يمين أبي شجاع
فدى لك من ينازعك الرزايا	ويقرضك الأذى صاعًا بصاع
يَعَضُّ أنامل الأسد الضواري	عليك بغسيظ أنياب الأفاعي
رعاك بلحظ طرفٍ غير وإن	وعاج عليك سمعًا غير وواع
فكنت السيف أغمده جبانٌ	فكُلُّ وقد تصدَّى للمصاع ^(٣)
الان ^(٤) ردِّ العلاء بلا رقيب	وشمّر في الأمور ولا تسراع

(١) الضَّياع: بفتح الضاد من ضاع يضيع فهو ضائع، والضَّياع: بكسر الضاد جمع ضيعة بالفتح وهي العقار والأرض المغلة.

(٢) القراع: بالكسر القتال.

(٣) المصاع: بالكسر المضاربة.

(٤) الان: مخففة من الآن.

فذاك الصخر حَرَّ من اليقاع
وجُهَّزت الرعيعة للمراعي
تُقلب بين أضلاع السباع

ولا يغررك قَعْقَعَةُ الأعادي
الآن^(١) تراجعَتْ تلك الراعياء
وعاد السُّربُ أَمْنَع من قلوب

وأما الرائية: فهي قصيدة مرقصة:

والبِشْرُ عُنْوَانُ البَشِيرِ
بِ عَن التقلُّقِ والنفورِ
وَضَح الصِّباحِ المِستنيرِ
إِلَّا اسْتراحَ إلى السِّفُورِ
مِمعَ عَن فَم المَلِكِ الخَطيرِ
ذُلُّ المِطِيَّةِ للجِريِّ^(٢)
سَبِّ وتَسْتَطيلُ يَد المَشيرِ
ذَفِّ بِالحَنِينِ عَلى الزَّفيرِ
ضُضِّ في السِّوَالِفِ والنَّحُورِ

نَطَق اللِّسانُ عَن الضَّميرِ
الآنَ أَعفِيتَ لِلقَلْبِ سِوِ
وانجَابِستَ الظُّلْماءَ عَن
مَاطِطِ مالِ يَومِ مَلِئِمْ
خَبِرَ تَسْتَبِثُ بِالمِسا
وأذَلَّ أَعنَّاقَ العِدا
يَسْمو بِه قِصُولَ الخَطيرِ
وَضُمائرُ الأَعْداءِ تَقِ
وسِوَابِقِ العِسْبِراتِ تَرَكَ

وهي طويلة وكلها على هذا النسق المرقص.

أيها السادة:

إلى هنا أكتفي بترتيب الحوادث في مسامرة الشريف وهو يمدح أباه،
ويكفي أن ننص على أن ما سنعفله من تهنة أبيه بالأعياد له دلالة سياسية، فهو
كان يرى أباه خليقاً بأن يُهَنَّأ بالأعياد كما يُهَنَّأ الملوك والخلفاء، وأريد التهنة
الدورية التي تصاغ في كل موسم بلا تحلف، وهي بالتأكيد شارة الرياسة
وعنوان السلطان، أترك هذا الجانب من قصائد الشريف في مدح أبيه وهي
مبثوثة في الديوان يرجع إليها منكم من يشاء، ثم أشير إلى قصائد لها قيمة في

(١) الآن: مخففة من الآن.

(٢) الجري: الحبل تخطم به المطية.

بيان المنزلة الاجتماعية لأبي أحمد الموسوي.

ويشهد ديوان الشريف بأن الموسوي تلافى الفتنة بين السنة والشيعية في سنة ٣٨٠، فهو على ذلك كان من الزعماء المصلحين، ولم يكن من الزعماء المفسدين.

والخلاف بين السنة والشيعية قديم في العراق، وهو خلاف كان مشثوماً من جانب، وميموناً من جانب، كان مشثوماً؛ لأنه قسم العراق إلى جيشين يقتتلان، وكان ميموناً؛ لأنه علم العراقيين الجدل وجعلهم من أعرف الأمم الإسلامية بأصول المذاهب والآراء، وربما جاز لي أن أصرح بأن هذا الخلاف كان سبباً في حياة اللغة العربية؛ لأنه أمدَّ التصنيف والتأليف بفنون من القوة والحيوية، وعاد على الشعر والثر بأجزل النفع، وللشر مزايا في بعض الأحيان، ولكن هذا الخلاف كان في حاجة إلى من يرعاه ويحوِّله إلى جدل مقبول يُشحذُ به الذهن والعقل.

وقد استطاع أبو أحمد الموسوي أن يقف مرة موقف المصلح فيحقن الدماء، ويغنم السلامة للإخوان المتخاصمين، وتظهر قيمة هذا الموقف النبيل إذا تذكرنا أن الخلاف بين السنة والشيعية كانت تُؤرِّثه دسائس خارجية، وما نقول هذا رجماً بالظن، وإنما عرفنا هذه الحقيقة بعد التعمق في دراسة الوضع السياسي للنصف الثاني من القرن الرابع، فموقف أبي أحمد الموسوي كان موقف السياسي المحنَّك الذي يبصر ما وراء الأكمة من المعاطب والحتوف.

وقد سجل ابنه ذلك الموقف الصالح فقال:

وخطب على الزوراء ألقى جرأه
وأضرمها حمراء ينزو شرارها
سألَّت عليه الحزم حتى جَلَوَتْهُ
مديد النواحي مدلهم الجوانب
إلى جنبات الجَوْنَزُو الجنادب
كما انجاب غيمُ العارض المتراكب

وقد عَلِمَ الأعداء أنك تحتُهُ غلبت وما كان القضاء بغالب
وأقشعتَ عن بغداد يوماً دَوِيَّهُ إلى الآن باقٍ في الصِّبا والجنائب^(١)
ولولاك عُيِّيَ بالجهاجم سُورها وخُنِدِقَ فيها بالدماء الذوائب

وأنتم تلاحظون أن هذه الأبيات تمثل عطف الشريف على بغداد، فهو يكره أن تكون مسايل دماء.

والواقع أن الشريف كان قليل الرعاية للعصية المذهبية، والظاهر أنه كان حُرَّ العقل إلى حدٍّ بعيد؛ فقد كان يدرس جميع المذاهب الإسلامية ليُمَدِّدَ عقله بالأنوار التي يُرسلها اختلاف الفقهاء، واهتمامه بمذهب الشافعي معروف، مع أن مذهب الشافعي في ذلك العهد لم يكن له أنصار أقوياء في العراق، وإنما كان أنصاره من المصريين.

ويشهد الديوان أيضًا بأن أبا أحمد الموسوي سافر إلى فارس للإصلاح بين المملِكين: بهاء الدولة وضمصام الدولة، والإصلاح بين العسْكرَين: البغدادي والفارسي.

ومعنى ذلك أن هذا الرجل كان يُرَجَى لتضميد الجروح، وليس ذلك بالفضل القليل، ولا يعرف قيمة هذا الفضل إلا من يراجع ما دوَّن التاريخ من فواجع ذلك الشقاق.

وفي هذا يقول الشريف من قصيدة نظمها في رمضان سنة ٣٨٧ .

سائل عن الطُّودِ لمْ خَفَّتْ قواعدهُ وكان إن مال مقدارٌ به رجحاً^(٢)
قد جرَّسوه فما لانت شكيمتهُ وحمَّلوه فما أعياء ولا رزحاً^(٣)

(١) الصِّبا: بفتح الصاد، والجنائب: جمع جنوب، والمراد: ريح الصبا وريح الجنوب.

(٢) الطود: الجبل، والقواعد: الأركان.

(٣) رزح: ضعف وسقط إعياءً أو هزالاً.

رَمَوْا بِهِ الْغَرَضَ الْأَقْصَى فَشَافَهُ
 مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى أَجْبَالِ خُرْمَةٍ^(١)
 لَيْسَ الْمَلُومُ الَّذِي شَدَّ الْيَدَيْنِ بِهِ
 هُوَ الْحَسَامُ فَمَنْ تَعَلَّقَ يَدَاهُ بِهِ
 إِنْ أَعْمَدُوهُ فَلَمْ تُغَمِّدْ فِضَائِلُهُ
 وَلَا نَأَى ذِكْرَهُ الدَّانِي وَقَدْ نَزَحَا
 مَرَّ الْقَطَامِي جَلِي بَعْدَ مَا لَمَحَا
 يَا بُعْدَهُ مَنبَذًا عَنَا وَمُطَرَّحَا
 بَلِ الْمَلُومُ الْمَرْزِيُّ مِنْ بِهِ سَمَحَا
 يَضُمُّ عَلَى الصَّفْقَةِ الْعَظْمَى وَقَدْ رِبَحَا
 وَلَا نَأَى ذِكْرَهُ الدَّانِي وَقَدْ نَزَحَا

وفي سنة ٤٠٠ مات أبو أحمد الموسوي وسنه سبع وتسعون سنة، فرثاه
 ابنه بقصيدة بلغت تسعة وثمانين بيتاً، وهي من الطوال الجياد، نذكر منها قوله
 في وصفه بقوة الشجاعة ورسالة البيان:

أَنْعَاكَ لِلخَيْلِ الْمُغِيرَةِ شُرْبًا^(٢)
 كَالسَّرْبِ أَوْ جَسَّ نَبَاةً مِنْ قَانِصٍ
 وَالْيَوْمَ مُقَدِّدٍ لِلْعَيْوُنِ بِتَقَعِهِ^(٣)
 وَمَقَاوِمَ عَرَضَ الْكَلَامُ بُرُودَهُ
 أَغْضَى لَهَا الْمُتَشَدِّقُونَ وَسَلَمُوا
 بِالرَّأْيِ تَقَبَّلَهُ الْعُقُولُ ضُرُورَةً
 خَبَطَ الْمَغَارِ بَهِنٍ مَنْ لَمْ يَجْرِمِ
 فَمَضَى يَلْفٌ مُؤَخَّرًا بِمَقْدَمٍ^(٤)
 لَا يَهْتَدِي فِيهِ الْبَنَانُ إِلَى الْفَمِ
 فَيَهِنُ بَيْنَ مَعْضَدٍ وَمَسْهَمٍ^(٥)
 لَهْدِيرِ شَقِيقَةِ الْفَنِيقِ الْمُقْرَمِ^(٦)
 عِنْدَ النَّوَائِبِ لَا بِكَيْفٍ وَلَا لِمِ

أيها السادة:

حدثناكم فيما سلف عن الخصومة بين الرضي والمعري، وقد جاءت
 الفرصة لتصحيح ذلك، والفضل في هذا التصحيح للصدیق الکریم سعادة

(١) خرمة: على وزن سكرة موضع في أرض فارس.

(٢) الشرب: جمع شازب وهو الضامر.

(٣) النبأة: الصوت الخفي، أو صوت الكلاب.

(٤) النقع: غبار الحرب وهو العثير أيضاً.

(٥) المقاوم: جمع مقام. والمعضد: ثوب له علم في موضع العضد. والمسهم: البرد
 المخطط.

(٦) الفنيق: الفحل يكرم على أهله فلا يركب؛ والمقرم: وصف للفحل.

الأستاذ طه الراوي، أعزه الله ورعاه، فقد نبهنا إلى المراثية الماثورة التي بكى بها المعري أبا أحمد الموسوي، وهي تشهد بأن المعري كان على صفاء مع الرضي وأخيه المرتضى إلى سنة ٤٠٠، وهو لم يقم في بغداد بعد ذلك غير قليل.

ويقول الأستاذ طه الراوي: إن من المستبعد جداً أن ينسي الشريف وأخوه هذه المراثية فيسيثان إلى المعري بسبب عطفه على المتنبّي، وبذلك تتبدد الشبهة التي ذكرها مؤرخو الأدب واعتمد عليها سعادة الدكتور طه حسين في كتابه القيم "ذكرى أبي العلاء"^(١).

ومطلع مراثية المعري:

أودى فليت الحادثات كفاف^(٢) مال المسيف وعنبر المستاف^(٣)

وفيهما يقول في الثناء على الشريفين:

أبقيت فينا كوكبين سناهما متأنقين وفي المكارم أرتعا
في الصبح والظلماء ليس بخاف متألّقين بسؤدد وعفاف
قَدَرَيْن في الإرداء بل مَطَرَيْن في الإجداء بل قَمَرَيْن في الإسفاف

(١) عرضنا هذا الرأي على الدكتور طه حسين فلم يسترح إليه، وقد أعاد في كتابه "مع أبي العلاء في سجنه" ما أثبتته في كتابه "ذكرى أبي العلاء" مع أن رأي الأستاذ طه الراوي واضح كل الوضوح: فالحادثة إن كانت وقعت قبل موت الموسوي فمن البعيد أن يرثيه أبو العلاء وقد أهين في داره على يد ابنه الكبير، ووقوعها بعد موته غير معقول؛ لأن رثاء أبي العلاء للموسوي يفرض على الشريفين أن يراعيا كرامة أبي العلاء فلا يلقي الهوان وهو ضيف له عندهما عهد...

ويؤيد رأي الأستاذ طه الراوي أن تلك الحادثة لم يتحدث عنها مؤلف قبل ياقوت.

(٢) المسيف: من أساف الرجل إذا ذهب ماله، والمستاف من الاستياف وهو الشم.

(٣) كفاف: اسم معدول مبني على الكسر، جعله الشاعر اسماً لكف الأذى، أي: ليت

الحادثات يكف بعضها بعضاً ويقوم خيرها بشرها (انظر شرح سقط الزند) من ٧٦

رُزِقَا الْعَلَاءَ فَأَهْلَلَ نَجْدَ كُلَّمَا
سَاوَى الرَّضِيُّ الْمَرْتَضَى وَتَقَاسَمَا
نَطَقَا الْفَصَاحَةَ مِثْلَ أَهْلِ دِيَاْفٍ^(١)
خَطَطَ الْعَلَاءُ بِتَنَاضُفٍ وَتَصَافٍ

وَفِي خَتَامِهَا يَقُولُ:

يَا مَالِكِي سَرَحَ الْقَرِيضَ أَنْتَ كَمَا
لَا تَعْرِفُ الْوَرَقَ اللَّجِينَ وَإِنْ تُسَلِّ
وَأَنَا الَّذِي أَهْدِي أَقْلَ بَهَارَةٍ
أَوْضَعْتُ فِي طَرَقِ التَّشْرِيفِ سَامِيَا
مَنْى هَوْلَةَ مَسْتَتِينَ عَجَافٍ^(٢)
تُخْبِرُ عَنِ الْقَلَامِ وَالْخِذْرَافِ^(٣)
حَسَنًا لِأَحْسَنِ رَوْضَةٍ مِثْنَفٍ^(٤)
بِكَمَا وَلَمْ أَسَلِّكَ طَرِيقَ الْعَافِي^(٥)

وَيَحْسَنُ أَنْ نَشِيرَ إِلَى أَنْ شَوْقِي عَارِضُ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ وَهُوَ يَرِثِي إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي، عَلَيْهِمَا رَحْمَةُ اللَّهِ، وَقَدْ بَلَغَ شَوْقِي غَايَةَ الْحِكْمَةِ إِذْ يَقُولُ:

مَا أَنْتَ يَا دُنْيَا أَرْوِيَانَا نَائِمٍ
نَعْمَاؤُكَ الرَّيْحَانُ إِلَّا أَنْفُهُ
أَمْ لَيْلُ عُرْسٍ أَمْ بَسَاطُ سَلَاْفٍ
مَسَّتْ حَوَاشِيَهُ نَقِيعَ زُعَافٍ

وَالِاسْتِطْرَادَ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ فَوَائِدَ لَا يَسْمَحُ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ بِأَنْ نَوَازِنَ بَيْنَ حَضْرِيَّةِ شَوْقِي وَبِدْوِيَّةِ أَبِي الْعَلَاءِ، فَلِنَقْفِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ مِنَ الشُّثُونِ الْمُتَّصِلَةِ بَوْلِدِ الشَّرِيفِ، وَفِيهَا سَلَفَ غَنَاءٌ أَيْ غَنَاءٌ.

(١) دِيَاْفٍ: بِكسْرِ الدَّالِ مَوْضِعٌ نَبَطٌ لَا فَصَاحَةَ فِيهِ.

(٢) الْمَسْتَتُونَ: الَّذِينَ أَصَابَتْهُمُ السَّنَةُ، أَيِ الْجَدْبِ، وَالْعَجَافُ: الْمَهَازِيلُ.

(٣) الْقَلَامُ وَالْخِذْرَافُ: ضَرْبَانِ مِنَ الْحَمِضِ مِنْ نَبَاتِ الْبَادِيَّةِ، وَاللَّجِينُ: الْوَرَقُ الْمَدْقُوقُ، الْمَخْلُوطُ بِالنَّوَى الْمَرْضُوضِ وَهُوَ مِنْ عُلُوقَةِ أَهْلِ الْأَنْصَارِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الْقَصِيدَةَ بَدْوِيَّةٌ لَا حَضْرِيَّةٌ.

(٤) الْمِثْنَفُ وَالْأَنْفُ: بِضَمَّتَيْنِ الرَّوْضَةُ الَّتِي لَمْ تَرَعْ مِنْ قَبْلِ.

(٥) أَوْضَعْتُ: أَسْرَعْتُ، وَالْعَافِي: طَالِبُ الْمَعْرُوفِ.

صلوات الشريف الرضي بخلفاء بني العباس

أيها السادة ... إن محاضرة الليلة أشقتني كثيراً، ولكنها ستفصل في أعظم معضلة سياسية تحدثت بها من عرضوا لترجمة الشريف: وهي تساميه لتبوء عرش الخلافة الإسلامية، وأكاد أجزم بأن هذا المطمح لم يكن إلا خيال شعراء، ولم يجسّمه إلا الأدباء الذين يسرهم أن يكون لهم زميل يتطلع إلى المعالي، ويتسامى إلى عرش الرشيد والمأمون؛ ولذلك نرى مؤرخي الأدب يشيرون إلى هذه المسألة فرحين متهللين كأنهم ظفروا بكنز مدفون^(١).

والحق أن الظروف التي عاش فيها الشريف كانت سيئة جداً، ويكفي أي لا أستطيع اليوم بعد مئات السنين أن أذكر بالتفصيل ما كانت تضطرب به بغداد في ذلك العهد؛ لأن تلك السنين العجاف تركت عقابيل حمل الناس أثقالها من جيل إلى جيل.

وأنتم تعرفون أن أشهر من شجعوا الشريف على طلب الخلافة هو أبو إسحاق الصابي، ومع ذلك كان الصابي يشكو الفقر وسوء الحال، فلا يملك الشريف أن يعينه بشيء؛ لأن الشريف كان أفقر من الصابي وإنما كان يتجمل ويسترفقره عن الناس؛ والذي يعيش في مثل تلك الحال لا يفكر جدياً في قلب النظام السياسي؛ بحيث يصبح هو السيد الذي يسيطر على الأقطار العربية والفارسية.

على أنه لا بأس من تصوير حال الخلافة في ذلك العهد؛ لنعرف متى بدأ الشريف يداعب تلك الأمنية؟ ومتى انصرف عنها انصراف اليائسين؟

عاش الشريف في عهود ثلاثة من الخلفاء هم: المطيع، والطائع، والقادر،

(١) قد عرضنا هذه القضية في الجزء الثاني من هذا الكتاب حين تكلمنا عن صداقته للصابي؛ فارجع إليها هناك لتعرف كيف نشأت فكرة الخلافة في نفس الشريف.

وما يمكن أن نلتفت لأيامه في عهد المطيع؛ لأنه كان طفلاً لا يُحسب له حساب.

نتقل إلى عهد الطائع الذي استمر من سنة ٣٦٣ إلى ٣٨١ وهو عهد كانت فيه الخلافة قوةً وهميةً؛ لأن الدَّيْلَم كانوا هم المسيطرين على العراق، وكان الخليفة صورةً يُجيزون بها الأحكام، إذ كانت الجماهير في أعماق قلوبها تحترم الخلفاء، وكان البُويهيون لا يرون بأساً من استبقاء تلك الصورة، تجنباً لعواصف الأهواء.

والتاريخ يشهد بأن الخلفاء في القرن الرابع كانوا قد اطمأنوا إلى الحرمان من السلطة التنفيذية، حتى إمارة الحج لم يكن الخليفة يُصدر بها مرسوماً إلا نص فيه على اسم الملك الذي يحكم ويسود، فقد كتب الصابي على لسان الخليفة المطيع مرسوماً بإمارة الحج جاءت فيه هذه الكلمات:

(ولما قلَّدك أمير المؤمنين النقابة على الطالبين؛ فبان له فيها محمود سيرتك، وظهر من أفعالك ما يدل على سلامة سريرتك، رأى أمير المؤمنين أن حق العادة التي عوَّده الله فيها الصلاح، وأجرى له فيها طائر النجاح، أن يزيدك فضلاً وإحساناً، ولا يألوك إنعاماً وامتناناً؛ فأنهى معز الدولة أبو الحسين - أحسن الله حياته - أمر رفاق الحجيج الشاخصة من العراقيين، وإيثار تقليد تسييرها إلى الحرمين، و الاعتماد عليك في حمايتها، وتوليك الحرب والأحداث فيها؛ فوافق رأي معز الدولة أبي الحسين - تولى الله كفايته - الصواب، ووقع عند أمير المؤمنين موقع القبول والإيجاب).

فالخليفة في هذا المرسوم الديني ينص على اسم الأمير البويهي؛ لأنه لم يكن يملك غير ذلك.

وهناك عبارةٌ أصرح من هذه العبارة، وهي منشور كتب على لسان الطائع، جاء فيه: (إن الإمامة لا تصح ولا تسلم إلا برعاية البويهيين). وقد أخرجت من رسائل الصابي شواهد كثيرة تؤيد ما أقول، ولكن لا

موجب لسرد تلك الشواهد، فهذا أمرٌ مفروغٌ منه، ومسلّمٌ به، والذي أطلع منكم على كتاب (تجارب الأمم) يرى أن القرن الرابع لم يكن إلا مسرحاً للعراك بين الفرس والترك، ولم يكن الخلفاء يُذكرون إلا من باب الاستطراء، فكأنهم كانوا يعيشون على هامش الحياة.

ولنقل بصراحة: إن الشريّف كان حريصاً على الظهور بمظهر الولاء للديلم والأتراك؛ لأنه كان يعرف أن الأمر إما أن يكون لأولئك أو هؤلاء، وقد سافر مرة إلى الكوفة فتحدث ناسٌ أنه عزم على التوجه إلى مصر، فلما رجع إلى بغداد نفى الشبهة بقصيدة مدح فيها بني بويه وتودد إلى الأتراك، ولا يعلم إلا الله ما في تلك القصيدة من عناصر الصدق؛ ولكنها شاهدٌ على ما كان يجب أن يصطنعه الرجل من السياسة وهو يعيش في بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع، واسمعوا كيف يقول:

أفي كل يوم للمطامع جاذبٌ	يُحشمني ما يُعجز الأسد الوُرد ^(١)
كأني إذا جادلتُ دون مطالبي	أجادل للأيام السنة لُدًا ^(٢)
أحل عُقود النائبات وأنثني	وخلفي يدٌ للدهر تُحكّمها عقدا ^(٣)
إذا ما نفذتُ السدّ من كل جانب	رأيت أمامي دون ما أبغني سدا
أترك أملاكاً رزائناً خلومهم ^(٤)	حلولاً على الزوراء أيانهم تندي
كأنك تلقى منهم آجمية ^(٥)	مؤلّسة الأنياب أو قللاً صلدا ^(٦)

(١) الورد: بفتح الواو من صفات الأسد، وهي صفة لونية، والورد من الخيل ما كان بين الكميّ والأشقر.

(٢) لُد: بضم اللام جمع ألد، واللدد بالفتح هو العنف في الخصومة.

(٣) تحكّمها: من الإحكام مصدر أحكم وهو شدة الربط.

(٤) الأملاك: الملوك، والرزان: جمع رزين.

(٥) الآجمية: الأسود نسبة إلى الأجام.

(٦) مؤلّسة: معددة، والقلل: جمع قلة بالضم وهي الصخرة العالية، والصلد، بالضم جمع صلداء وهي الصخرة الصلبة المساء.

ولا الحُرُّ يأبى أن يكون لهم عبدا
فلا نعدم العلياء منهم ولا المجدا
فنبهَرُها نورًا ونغليها سعدا
وتحسبهم جِدًّا إذا ركبوا الجردا^(١)

ولا يأنف الجبارُ أن يعتفيهم^(٢)
إذا ما عدنا الجودَ منهم لعلية
نُحَاسِنُ أقمارَ السُدُجى بوجوههم
نُحَالِمُهم غِيَدًا إذا بذلوا الندى
إلى أن يقول:

ولا نشتكى للخلق لولاكم فقدا
وإذ لالكم عزًّا وإمرازكم شهدا
ويزد الأمانى عند غيركم وَقُدا
بها الوادي الممطور والكلاء والجعد^(٣)
وجدت مجازًا للمطالب أو مَعْدَى
ولا من مَرَّاحٍ للأمانى ولا مَعْدَى^(٤)
رجوعَ نزيل لا يرى منكم بُدًّا
إليكم تجاربُ الرجال ولا حمدا

أَلْ بُؤْيِهِ ما نرى الناس غيركم
نرى منَعكم جودًا ومَطلَكم جِدًّا
وعيش الليالي عند غيركم ردى
إذا لم تكونوا نازلي الأرض لم نَجِد
وكنتُ أرى أُنَى متى شئت دونكم
فلم أرى من مَطلَعٍ عن بلادكم
نُحَدُوا بزمامى قد رجعت إليكم
أريد ذهابًا عنكم فيردني

ومن الواضح أن سيطرة الفاطميين على مصر لم تكن إيذاءً مباشرًا للمطيع
أو الطائع، وإن كانت طعنةً موجَّهةً إلى من يسيطرون على فارس والعراق،
ولهذا نرى لغة المشرق في ذلك العهد لا تسمي الخليفة الفاطمي (صاحب
مصر) وإنما تسميه (صاحب المغرب) وهو تعبيرٌ كله إيجاء!

ونعود فنقول: إن الشريف أنس كل الأئس بالطائع، فكان يمدحه بصدق

(١) يعتفيهم: يطلب جودهم.

(٢) الجرد: جمع أجرد وهو الفرس القصير الشعر.

(٣) الكلاء الجعد: العشب الندي.

(٤) يشير هذا البيت إلى أن الشريف كان يرى آل بويه ملوك العراق والسياسة في ذلك
الوقت إذ لم تكن تسمح بأن يراهم دخلاء.

وإخلاص، ومع أن الطائع كان خليفة يستضعفه البويهيون أشد الاستضعاف، فقد رأى فيه الشريف رجلاً عربياً هو البقية من مجد بني العباس.

وهنا أذكر أن الأستاذ عبد الحسين الحلي أراد أن يشكك في صدق عواطف الشريف وهو يمدح الطائع، وأنا أرى غير ذلك:

أرى أن الشريف كان يفهم جيداً أنه يخاطب خليفة؛ بالرغم من فساد الأحوال، وأرى أن مطامع الشريف في ذلك العهد كانت تقف عند استرداد أملاك أبيه التي صادرها عضد الدولة منذ سنين، فمن الإسراف في حسن الظن بعزيمة الشريف أن يقال: إنه كان يطلب الخلافة في ذلك العهد.

فإن لم يكن بُدُّ من تمجيد الشريف فيكفي النص على أن عواطفه نحو الطائع كانت خالصة من شوائب الرياء، بخلاف ما أراد الأستاذ عبد الحسين.

ومن الواجب أن ننص على أن مدائح الشريف للطائع لم تبدأ إلا بعد أن اطمأن على خلاص أبيه من الاعتقال، وقرب رجوعه إلى بغداد، أي بعد سنة ٣٧٣، فأقدم قصيدة مدحه بها هي الحائية التي ذمَّ فيها أعداءه، ثم تخلَّص إلى المدح فقال:

تُعَلَّلُ بِالزُّلَالِ مِنَ الغَوَادِي	وَتُنْتَحَفُ بِالنَّسِيمِ مِنَ الرِّيَاحِ
وَحَاوَرْنَا الخَلِيفَةَ حَيْثُ تَسْمُو	عِرَانِينَ الرِّجَالِ إِلَى الطُّمَّاحِ
نَوَجَّهَ بِالثَّنَاءِ لِسَهْ مَصُونًا	وَنَرْتَعِ مِنْهُ فِي مَالِ مَبَاحِ
وَسِيَّالٍ "السَّيْدِينَ مِنَ العَطَايَا	مَهْيَبِ الجِدِّ مَأْمُونِ المِزَاحِ

(١) الواو حرف جر شبيه بالزائد: واو رب، وسيال مبتدأ مجرور لفظاً مرفوع محلاً، وخبر المبتدأ هو الجملة الشرطية في البيت الثاني، وهي في الظاهر صفة ولكنها في الواقع خبرية؛ لأن الشاعر أراد النص على أن ذلك الكريم لا يصده عن الكرم ملام.

إذا ابتدر الملام نَدَى يَدِيهِ
 أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أزال سِيرِي
 فكم خاض المطيُّ إليك بحرًا
 وكم لك من غرام بالمعالي
 وأيام تَشُنُّ بها المنايا
 فلا تَقَلَّ المهيمُنُ عنك ظِلًّا
 مضى طَلَّقًا على سنن المراح^(١)
 ذرى هذِي المَعْبُودَةِ الرزاح^(٢)
 يموج على الأماعز والضواحي^(٣)
 وهم في الأماني وارتياح
 عوايس يَطَّلَعُنُ من النواحي^(٤)
 من النعماء ليس بمستباح

وفي سنة ٣٧٦ مدح الطائع وشكره على تكرمه خصه بها وثياب وورق، فقال، عدة أبيات:

وإذا أميرُ المؤمنين أضاف لي
 بالطائع الميمون أبجج مطلبي
 قَرُمٌ إذا عرت الخطوبُ مِرَاحَهُ
 متوغل خَلَّفَ العدوَّ وعلْمُهُ
 وإذا تناقلت الرجال غنيمَةً
 ثَبَّتْ لَهْجَهَجَةَ الخطوبِ كأنها
 رأيُّ الرشيد وهمة المنصور في
 آباؤك الغُرُّ الذين انتَمَوْا
 دَرَجُوا كما دَرَجَ القرون وعلْمُهُم
 أملي نزلت على الجواد المفضل
 وعلوت حتى ما يُطَاوَلُ معقِلي
 أدمى غوارها بناب أغصَل^(٥)
 أن الجبان إذا سرى لم يُوغَل
 قسم التراث لها بحد المنصل
 جاءت تُقَعِّعُ بالسُّنَانِ لِيذْبَل^(٦)
 حُسن الأمين ونعمة المتوكل
 ذهبوا بكل تطاول وتطوُّل
 أن سوف يخبرُ آخرُّ عن أول

(١) المراح: بالكسر هو الاسم من مرح يمرح.

(٢) الرزاح: البعيدة الأطراف.

(٣) الأماعز: جمع أمعز، من المعز بالتحريك وهو الصلابة، فيقال: مكان أمعز وأرض معزاء.

(٤) تشن: تصب، ومنها شن الغارة.

(٥) الأعصل: الناب الأعوج، وفي الديوان (أعصل) بالضاد المعجمة وهو تعريف.

(٦) الهجججة: الصياح ويذبل اسم جبل.

نَسَبٌ إِلَيْكَ تَجَاذِبْتَ أَشْيَاخَهُ
هَذِهِ الْخِلَافَةُ فِي يَدَيْكَ زَمَامُهَا
أَحْرَزْتَهُمَا دُونَ الْأَنَامِ وَإِنَّمَا
طَلَعْتَ بِوَجْهِكَ غُرَّةَ نَبْوِيَّةِ
طَوَلًا مِنْ الْعَبَّاسِ غَيْرِ مُوَصَّلٍ ١١
وَسَوَاكَ يَخْبِطُ قَعَرَ لَيْلِ الْبَيْلِ
خَلَعَ الْعَجَاجَةَ سَابِقٌ لَمْ يَذْهَلْ
كَالشَّمْسِ تَمَلُّنَا نَظَرَ الْمُتَأَمِّلِ

وهي قصيد طويلة أسلم فيها الشريف أمره للطائع فقال:

أَرْجُوكَ لِلأَمْرِ الْخَطِيرِ وَإِنَّمَا
وَأُرُومٍ مِّنْ غُلُوقٍ عَزَكَ غَايَةً
كَمْ رَامَهَا مِنْكَ الْجَبَانُ فَرَاوَعْتَ
تُدْمِي قُلُوبَ الْحَاسِدِينَ وَتَنْشِي
ضَاقَ الزَّمَانُ فِضَاقًا فِيهِ تَقْلِبِي
هَذَا الْحُسَيْنِ إِلَى عِلَائِكَ يَنْتَمِي
يَرْجَى الْمَعْظَمَ لِلْعَظِيمِ الْمُعْضَلِ
قَعَسَاءَ تَسْتَلِيبُ النَّوَظِرِ مَنْ عَمَلِ
شَقَاءَ يَلْعَبُ شَقَّهَا بِالْمَسْحَلِ ١٢
فَتَرَدُّ عَادِيَّةَ الْخَطُوبِ النَّزْلِ
كَالْمَاءِ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي الْجَدُولِ
شَرْقًا وَيَنْسَبُ مَجْدَهُ فِي الْمَحْفَلِ

إلى آخر القصيدة، والحسين هنا هو أبوه، لا الحسين بن علي بن أبي طالب، وهذه القصيدة صريحة في أن الشريف كان يؤمن بأن الطائع أسدى إلى أبيه فنونا من المعروف.

وكانت سنة ٣٧٧ من أعوام الخصب بين الرضي والطائع؛ فقد مدحه خمس مرات، منها مرتان في شهر رمضان، الأولى بقدوم الصوم، وهي قصيدة نقض الشريف بها همومه، وشكا بها دهره، إذ يقول:

(١) الطول: على وزن عنب وهو الحبل، وقد مر في قصيدة سالفة بمعنى: طاقات الحبل.

(٢) المسحل على وزن منبر: المنحت أو المبرد.

بَلَوْتُ وَجَرِبْتُ الْأَخْلَاءَ مُدَّةً
 وَمَا رَاقَنِي مِمَّنْ أَوْدُ تَمَلَّقُ
 وَمَا صَحَبَكَ الْأَدْنَوْنَ إِلَّا أَبَاعِدُ
 وَمَنْ لِي بِخَلِّ أَرْضِيهِ وَلَيْتَ لِي
 تَمِيلَ بِي الدُّنْيَا إِلَى كُلِّ شَهْوَةٍ
 وَتَسْلُبَنِي أَيْدِي النَّوَائِبِ ثُرُوتِي
 إِذَا عَزَنِي مَاءٌ وَفِي الْقَلْبِ غُلَّةٌ
 أَرَى كُلَّ زَادٍ مَا خَلَّاسٌ جُوعَةٍ
 وَمِثْلِي لَا يَأْسُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ
 كَأَنَّا خُلِقْنَا عُرْضَةً لِمُنِيَّةٍ
 نَخِفُّ عَلَى ظَهْرِ الثَّرَى وَبَطُونُهُ
 وَمَا نُؤَبِّ الأَيَّامَ إِلَّا أَسِنَّةً
 وَأَنْعَمُ مَنْ فِي الْحَيَاةِ بِهَائِمٍ
 أَنَا الْمَرْءُ لَا عِرْضِي قَرِيبٌ مِنَ الْعَدَا
 وَمَا الْعِرْضُ إِلَّا خَيْرُ عَضْوٍ مِنَ الْفَتَى
 وَقُورٌ فَإِنْ لَمْ يَرْعَ حَقِّي جَاهِلٌ

فَأَكْثَرُ شَيْءٍ فِي الصَّدِيقِ مَلَالٌ
 وَلَا غَرَنِي مِمَّنْ أَحَبُّ وَصَالٌ
 إِذَا قَلَّ مَالٌ أَوْ نَبَتْ بِكَ حَالٌ
 يَمِينًا يَعَاطِيهَا الْوَفَاءُ شِمَالٌ
 وَأَيْنَ مِنَ النُّجْمِ الْبَعِيدِ مَنْ مَالٌ
 وَلِي فِي عَفَافِي وَالتَّقْنَعِ مَالٌ
 رَجَعْتُ وَصَبْرِي لِلْغَلِيلِ بِلَالٌ
 تُرَابًا وَكُلُّ الْمَاءِ عِنْدِي أَلٌ
 إِذَا كَانَ عُقْبَى مَا يَنَالُ زَوَالٌ
 فَنَحْنُ إِلَى دَاعِيِ الْمُنُونِ عِجَالٌ
 عَلَيْنَا إِذَا حَلَّ الْمَسَاتِ ثِقَالٌ
 تَهَاوَى إِلَى أَعْمَارِنَا وَنِصَالٌ
 وَأُثْبِتَ مَنْ فِي التَّرَابِ جِبَالٌ
 وَلَا فَيَّ لِلْبَاغِيِ عَلِيٍّ مَقَالٌ
 يَصَابُ وَأَقْوَالُ الْعِدَاةِ نِيَالٌ
 سَأَلْتُ عَنِ الْعَوْرَاءِ كَيْفَ تَقَالُ؟

وهو سيمدح الطائع بعد ذلك مدحًا طيبًا؛ ولكن ما رأيكم في هذه المقدمات؟ إنه يأنس بالطائع كل الأُنس؛ فيفضي إليه بذات نفسه ويشكو أمامه قسوة الفقر وخشونة الزمان.

وهو حين يصل إلى مدحه لن يقول: أعطني مالًا، وإنما سيقول: أعطني منصبًا.

- (١) أكثر أبيات هذه القصيدة يجري مجرى الأمثال.
- (٢) الغلّة: بالضم الظمأ الشديد. والبلال: بالكسر هو الري.

أزُل طمع الأعداء عني بفتكة
 فإن نفوس الناكثين مباحة
 وشمر فما للسيف غيرك ناصر
 ومن لي بيوم شاحب عجابه
 أردني مرادًا يقعد الناس دونه
 ولا تسمعن من حاسد ما يقوله
 إلى آخر القصيدة، وفي الشهر نفسه هنأه بالمهرجان؛ فمدحه ومدح أصوله
 من بني العباس:

يلقى الخطوب ووجهه طلق
 تخفي بشاشته هيته
 من معشر كانت سيوفهم
 بالفخر يكسون الذي سلبوا
 أنت الجواد إذا غلا أمل
 وفي هذه القصيدة يصرح بأنه ورت حبة الطائع عن أبيه إذ يقول:

إن المجرّد في هواك فتى
 مثل الحسين فبين أضلعه
 لا اللوم يردعه ولا العذل
 قلبٌ بغيرك ماله سُغْل

وبعد أيام هنأه بعيد الفطر تهنئة شاعر يعرف أنه يخاطب خليفة، وهي
 قصيدة تجمع بين العذوبة والجزالة، وقد عرض فيها بخصوم الطائع أعنف
 تعريض، والذي يهنا هو الشاهد الآتي:
 أعيدُ مجيدك أن أبقى على طمع
 وأن تكون عطاياي المواعيدُ

(١) المصال: بفتح الميم وهو مصدر من صال يصل.

(٢) أنال وأنال. الأول بالبناء للفاعل والثاني بالبناء للمفعول.

(٣) المحال: بالكسر هو الكذب والدهاء.

(٤) هذا البيت غاية في المدح.

وَأَنْ أَعِيشَ بَعِيدًا مِنْ لِقَائِكُمْ طمأن قلب وذالك الوردُ مورود
مَالِي أَحَبُّ حَيِّبًا لَا أُشَاهِدُهُ ولا رجائي إلى لقياه ممدود
وَأَتَعَبُ الْقَلْبَ فَيَمْنُ لَا وَصَالَ لَهُ يا للرجل أقلّ الخُرْدُ الغيد! (١)
أَكْثَرَتْ شِعْرِي وَلَمْ أَظْفِرْ بِحَاجَتِهِ فسقني قبل أن تفنى الأغاريد

وبعد شهر عزّاه في عمر بن إسحاق بن المقتدر، وكان آخر ولد بقي من
ظهر ذلك الخليفة، وهي قصيدة تكثر فيها الحكم والأمثال.

نَوَّمَلْ أَنْ نَرَوِي مِنْ الْعَيْشِ وَالرَدَى شَرِبْتُ لِأَعْيَارِ الرَّجَالِ أَكْوَلِ
وَهِيهَاتَ مَا يَغْنِي الْعَزِيزَ تَعَزَّرُ فيبقى ولا يُنْجِي الذليل خمول
نَقُولُ مَقِيلٌ فِي الْكُرَى لَجَنُوبِنَا وهل غير أحشاء القبور مَقِيلِ
دَعِ الْفِكْرَ فِي حَبِّ الْبَقَاءِ وَطَوْلِهِ فَهَمْكَ لَا الْعَمْرَ الْقَصِيرَ يَطْوِلِ
وَلَا تَرْجُ أَنْ تُعْطَى مِنْ الْعَيْشِ كَثْرَةً فكل مُقَامٌ فِي الزَّمَانِ قَلِيلِ
وَمَنْ نَظَرَ الدُّنْيَا بَعَيْنِ حَقِيقَةٍ دَرَى أَنْ ظَلَمَ يَزُلْ سَيَزُولِ
تُشَيِّعُ أَطْعَمَانَ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ وتُبْكِي دِيَارًا بَعْدَهُمْ وَطَلُولِ
إِذَا لَمْ يَكُنْ عَقْلُ الْفَتَى عَوْنًا صَبْرِهِ فليس إلى حَسَنِ الْعِزَاءِ سَبِيلِ
وَإِنْ جَهَلَ الْأَقْدَارَ وَالدهَرَ عَاقِلٌ فأضيقُ شيء في الرجال عقولِ
وَمَنْ مَاتَ لَمْ يَعْلَمْ وَقَدْ عَانَقَ الثَّرَى بكاه خليلٌ أم سلاه خليلِ

وهذا البيت يشهد بأن الشريف الرضي كان يرتاب فيما يعرف الأموات من
أحوال الأحياء.

وفي العام نفسه عاتبه بقصيدة قوية طاب فيها التشبيب وطاب فيها العتاب
وأَيُّ تَشْيِيبٍ أَعْنَفُ مِنْ هَذِهِ الْأَنْفَاسِ الْجِرَارِ؟! (١)

(١) الخرد: جمع خرود وخريدة، وهي البكر لم تمس أو الخفرة الطويلة السكوت الخافضة
الصوت، والغيد: جمع غيداء وهي المثنية لينا أو هي الطويلة العنق.

وهل ترجع الأيام ما كان ماضيًا
وراءك أيامًا وجسرًا الليالي
ولبس عفيقًا تارك الحب ساليًا
أبيتُ وفات الذلُّ من كان آيَا
وينشي على طول الغرام القوافيا
من الناس سلطت الظُّبا والعواليا
ولكنَّ حبًّا غادر القلب راضيًا
ووليتُ أنهى الدمع ما كان جاريا
وما كل ما تخفيه يا قلب خافيا
وعندي دموع ما طلعت الأماقيا
وقد قلَّ عندي الدمعُ إن كنت باكيًا
وكان الذي يُغري به القلب نائيًا

خليلي هل تثنى من الوجد عبرةً
إذا شئت أن تسألني الحبيب فخلِّه
أعفُ وفي قلبي من الوجد لوعةً
إذا عطفتنني للحبيب عواطفُ
وغيري يستنشي الرياح صبايةً
وألقي من الأحباب ما لو لقيتهُ
فلا تحسبوا أني رضيت بذلِّه
رعى الله من ودعته يوم دابق^(١)
وأكرم أنفاسي إذا ذكرتهُ
فعندي زفيرٌ ما ترقى من الحشا
مضى ما مضى ممن كرهتُ فراقهُ
ولا خير في الدنيا إذا كنت حاضرًا

ولما وصل إلى عتاب الطائع مدحه أجزل المدح ثم قال:

وتعلمني الأيام أن لا تلاقيا!!
عليل جوى لو أن ناسًا دوائيا؟
ويعرض لي ماء وأصبح صاديا

إلى كم أمّني النفس يومًا وليلةً
وكم أنا موقوف على كل زفرة
أيسنح لي روضًا وأصبح عازبًا^(٢)

(١) دابق: قرية في حلب، وردت مرات في كلام الشعراء، من ذلك قول عيسى بن سعدان:

ناجوك ما بين الأحص ودابق
يهنسيكم أن الرقباد مفارقي
إلا طربت من النسيم الخافق
من سفح جوشن كنت أول ناشق

ناجوك من أقصى الحجاز وليتهم
أمنسارقي حلب وطيب نسيمها
والله ما خفتك النسيم بأرضكم
وإذا الجنوب تخطرت أنفاسها

(٢) العازب: البعيد عن المرعى.

وما أنا - إلا أن أراك - بقانع
تركت إليك الناس طراً وكلّهم
وإن كنت جراً إلى الأعدايا
إليك وإن لم أعط منك مراديا
عليك سلام الله إنّي لفازعُ

وأنتم ترون أنه يمنّ على الخليفة بمدحه منّا صريحاً، ويقول: إنه يترك في سبيله أقواماً كرام الأكف، وسنرى فيما بعد من هم أولئك الأقوام، ولكن لا بأس من التصريح بأن الرضيّ كان يجب أن يستأثر بمودة الطائع فلا يرى في حضرته أحداً من خصومه الألداء، ومن شواهد ذلك أنه عرف أن بعض خصومه ظفر بمودة الطائع، فأرسل إليه يعاتبه عتاب الأنداد فيقول:

ونمى إليّ من العجائب أنه
وتملكت خديعةً من قولة
لعبت بعقلك حيلة الخوان
حقاً سمعت ورّبّ عيني ناظر
غرارة الأقسام والأيمان
أين الذي أضمرته من بغضه
يقيظ تقوم مقامها الأذنان
أم أين ذلك السراي في إبعاده
وعقدته بالسر والإعلان؟
سبحان خالق كل لون معجب
حنقاً وأين حمية الغضبان؟
يوم لدا، وعدّ لذاك، وهذه
ما فيكم من كثرة الألوان!!
فالأّن منك اليأس ينقع غلتي
شيمّ مقطّعة قوى الأقران
فاذهب كم ذهب الغمام رجوته
عقدت تقنعي
ولعل حالي أن يصير إلى غلا
وذوو العمام من ذوي التيجان
فاحذر عواقب ما جنيت وغيره
فالدوح منبتها من القضبان
أعطيتك الرأي الصريح وغيره
رمت الجنابة عرض قلب الجاني
وعرضت نصحي والقبول إجازة
فإذا أبيت لويت عنك عناني

وأنتم ترون أن هذه جراءة لو صدرت في عهد خليفة مثلاً الرشيد لأطاح

رأس الشاعر بلا تردد، ولكن الرضيّ كان يثق بأن الطائع يعطف عليه، وكان يثق بأن الطائع لا يملك الأمر كله في بغداد.

وفي سنة ٣٧٨ مدح الطائع بقصيدة تفيض بالوداد، إذ يقول:

يا جيلاً جماله ملء عيني	وعظيماً إعظامه ملء قلبي
بك أبصرت كيف يصفو غديري	من ضروف القذى وبأسن سيري ^(١)
أنت أفسدتني على كل مأمو	لٍ وأعديتني على كل خطب
فإذا ما أرد قربي مليكك	قلت قربي من الخليفة حسي
عز شعري إلا عليك وما زا	ل عزيزاً يأبى على كل خطب
أنت ألبستني العلافأطرها	أحسن اللبس ما يجلل عقبي ^(٢)
إنني عائدٌ بنعمك أن أكـ	سثر قولي وأن أطول عتبي
نظرة منك ترسل الماء في عو	دي وتمطى ^(٣) ظلي وتبت تُرّي
ما ترجيت غير جودك جوداً	أبرجى القطار من غير سُحب
لا تدعني بين المطامع واليأس	ووردي ^(٤) ما بين مُر وعذب

وفي سنة ٣٧٩ مدحه وعاتبه على تأخير الإذن له في لقائه بمجلس خاص، وذلك في قصيدة طويلة نشير إليها بالمطلع:

ضربن إلينا خدوداً وساماً^(٥) وقلن لنا اليوم موتوا كراماً

(١) السرب بالكسر: هو القطيع من الظباء والنساء، وهو أيضاً الطريق والبال والنفس والقلب.

(٢) العقب: على وزن كتف هو مؤخر القدم، وسكنت القاف للوزن، ويجلله: يغطيه.

(٣) تمطى: تطيل.

(٤) الورد: بالكسر الماء المورود

(٥) وسام: جمع وسيم والوسامة هي الجمال.

وفي سنة ٣٨٠ مدحه بعدة قصائد أهمها القصيدة التونية:

الآنَ أعربت الظننُونُ وعلا على الشك اليقينُ

وإنما كانت أهم قصائده في تلك السنة أفضل ما نظمت من أجله فقد كان الطائع متأثر من قصيدة قال فيها الشريف:

مَتَى أَنَا قَائِمٌ أَعْلَامُ مَقَامٍ
وَمَنْصَرَفٌ وَقَدْ أَثْقَلَتْ عِطْفِي
وَلِي أَمَلٌ أَطْلَلْتُ الصَّبْرَ فِيهِ
وَمَا خِفتُ النَّوَائِبَ تَرْتَمِي بِي
أَيَعْرِفُنِي الطَّوَى وَالرَّوَضَ حَالٍ
وَلِي قُرْبَى رءُومٌ كُنْتُ أَرْجُو
وَبَابَ الإِذْنِ مَنْسِي كُلَّ يَوْمٍ
لَكُمْ أَرْجَاءُ زَمَزَمَ وَالْمَصَلَّى
وَأَنْتُمْ أَطْوَلُ الْعِظْمَاءِ طَوَلًا
وَأَبْعَدُ مَوْطِنًا مِنْ كُلِّ عَارٍ
وَأَجْرِي عِنْدَ مُخْتَلَفِ الْعَوَالِي
بِأَبْءَاءِ مَضُوءٍ وَهَمِّ عَوَارٍ
وَأَمَاتٌ^(١) دَرَجْنَ عَلَى اللَّيَالِي

إلى أن يقول:

- (١) الأوام: بالضم الظماً الشديد.
- (٢) الطوى: هو الجوع، ويعرقه: يذهب لحمه.
- (٣) أفلج: صفة من الفلج بالتجريك وهو النصر.
- (٤) أمات: لغة في أمهات.

أَلانٌ^(١) جَذِبَتْ مِنْ أَيْدِي اللَّيَالِي عَنَانِي وَاشْتَمَلَتْ عَلَيَّ زَمَامِي
فَمَا أَحْشَى الزَّمَانَ وَلَوْ تَلَاقَتْ يَدَاهُ مِنْ وَرَائِي أَوْ أَمَامِي
أَقُولُ: إِنَّ الطَّائِعَ رَقٌّ لِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ؛ فَأَمْرٌ بِأَنْ يَسِيرَ الشَّرِيفُ إِلَى دَارِهِ فِي يَوْمِ
الْخَمِيسِ لِعَشْرِ بَقِيَّةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَجَلَسَ لَهُ جُلُوسًا خَاصًّا، وَكَانَتْ خَلَعَ
السَّوَادَ قَدْ أُعِدَّتْ لَهُ فَجُلِبِيَّتَ عَلَيْهِ، وَزَادَ الْخَلِيفَةُ فِي إِكْرَامِهِ؛ فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَّا وَهُوَ
مَثْقَلٌ بِالْهَدَايَا الْفَاخِرَاتِ، وَقَدْ ظَهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ فِي التَّوْنِيَّةِ إِذْ يَقُولُ:

أَتَسْرَى أَمَّيْنِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ لَهُ الْبَلَدُ الْأَمِينُ
لِلَّهِ دَرَكٌ حَيْثُ لَا تَسْطُو الشُّمَالُ وَلَا الْيَمِينُ
وَالْأَمْرُ أَمْرُكَ لِأَمِّمْ يُوْحِي وَلَا قَوْلٌ يَبِينُ
لَمَّا رَأَيْتَكَ فِي مَقَامٍ م يَسْتَطَارُ بِهِ الرُّكَيْنُ^(٢)
وَرَأَيْتَ لَيْثَ الْغَابِ مَعْتَدٍ رَضًا لَهُ الدُّنْيَا عَرِينُ
أَقْدَمْتَ إِقْدَامَ السُّبْذِي يَدُنُو وَشَافِعُهُ مَكِينُ
فَلِذَلِكَ مَا ارْتَعَدَ الْجَنَانُ نَحْيًا وَلَا عَرَقَ الْجَبِينُ
وَسَمْتٌ بِفَضْلِكَ عُورَةٌ تَغْضِي لِهَيْبَتِهَا الْجَفُونُ
وَامْتَدَّ مِنْ نَوْرِ النَّبِيِّ عَلَيْكَ عُنْوَانُ مُبِينُ
وَجِهَالٌ وَجَهْلٌ لِي بَنِيَّ جَمِيعٌ مَا أَرْجُو ضَمِينُ
فَأَفِيضْتَ الْخَلْءَ السَّوَا دُعَايِي تَرَشُّفَهَا الْعِيُونُ
شَرَفٌ خُصِّصَتْ بِهِ وَقَدْ دَرَجَتْ بِغُصَّتِهِ الْقُرُونُ
وَخَرَجَتْ أَسْحَابُهَا وَلِي فَوْقَ الْعَمَلِ وَالنَّجْمِ دُونُ
جَدِيلًا وَلِلْحَسَنِ مِنْ أَسْفَلِ زَفِيرٍ أَوْ أَنْبِينُ

أَيُّهَا السَّادَةُ... إِلَى هُنَا رَأَيْتَ صِلَاتَ الشَّرِيفِ بِالطَّائِعِ، رَأَيْتَ شَاعِرًا يَمْدَحُ

(١) مخففة من (الآن).

(٢) الركين: القوي القلب.

وخليفة يُثيب، فهل يدوم هذا النعيم؟

أخشى أن تكون مدائح الرضي بآبَا يدخل منه الشر إلى قصر الطائع: فقد أطال في وصفه بالشجاعة والجرأة والبطولة، وأطال في وصف جوائزهِ وعطاياه، وكان هناك قومٌ لا يرضيهم أن يكون للخلفاء جاهٌ أو مال.

وكذلك تطوع بعض الدساسين وأفهم بهاء الدولة أن قصر الخليفة مملوءٌ بالذخائر العظيمة، وزين له القبض عليه، فانخدع بهاء الدولة وتوهم أنه سيظفر بكنوز الأرض حين يقبض علي الطائع، فأرسل إليه يسأله الإذن بالحضور في خدمته؛ ليجدد العهد؛ فأذن له في ذلك، وجلس له كما جرت العادة، فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير، ولما دخل قبَّل الأرض بين يدي الخليفة وأجلس على كرسي، ودخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبَّل يد الخليفة؛ فجذب الطائع بحمائل سيفه وأنزله عن سريره والخليفة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي لحظات معدودات أخذ ما في دار الخليفة من الذخائر، ونهب الناس بعضهم بعضاً، وكاد جبل الأمن ينقطع في بغداد.

وكان الشريف الرضي في مجلس الخليفة في تلك الساعة السوداء، فلم يدفع عنه بيد ولا بلسان، وإنما لاذ بالفرار؛ ليسلم من عدوان الباغين:

وقد كان موقفه في هذه الحادثة الشنعاء شبيهاً بموقف البحري حين قُتل المتوكل؛ ولكن البحري كان أشجع وأوفى، فقد دافع عن المتوكل بيديه، ثم رثاه بعد ذلك أشرف رثاء، أما الرضي فترك صاحبه لأيدي الغادرين، وكان يملك الدفاع عنه لو شاء، ثم سجل الحادث بقصيدة أطال فيها الغزل والتشبيب، كأن تلك الفاجعة لم تُنسه ثورة الوجد ولوعة الحنين، ولما وصل إلى صميم الموضوع وصف نفسه بالحزم فقال:

إذا ظننا وقد رنا جرى قَدْرٌ بنازلٍ غير موهوم ومظنون

اعجب لمسكة نفس بعد ما رُميت
ومن نجائي يوم الدار حين هوى
مَرَقْتُ منها مُرُوق النجم منكدرًا
وكنست أول طالِعِ ثنيتها
من بعد ما كان ربُّ الملك مبتسماً
أمسيت أرحمُ من أصبحتُ أغبطه
ومنظّرٍ كان بالسراء يُضحكني
هيهات أغترُّ بالسلطان ثانيةً
من النوائب بالأبكار والعُون
غير ولم أخلُ من حزم ينجيني
وقد تلاقى مصارع الردى دوني
ومن ورائي شرٌّ غير مأمون
إلي أدنوه في النجوى ويدينني
لقد تقاربَ بين العز والهون
يا قُرب ما عاد بالضراء يبكينني
قد ضلَّ ولأج أبواب السلاطين

ولعلكم أيها السادة في غنى عنم يحدثكم أن بهاء الدولة أظهر أمر الخليفة القادر بالله ونادى بشعاره في أسواق بغداد، وكتب إلى الطائع كتابًا بالخلع وتسليم الأمر إلى القادر، شهد فيه الشهود عليه، والمُلك لله الواحد القهار.

ولكن ألا ترون من الظلم أن يقال: إن موقف الشريف شبيهٌ بموقف البحري، وإن الشريف كان يجب عليه أن يدافع عن الطائع كما دافع البحري عن المتوكل؟

إن الشبه بين الحادثين لا يتم إلا من الوجهة الشكلية، أما من حيث الجوهر فهو مفقود؛ لأن شخصية المتوكل غير شخصية الطائع، فقد استطاع بلباقته وبراعته أن يُقنع العالم الإسلامي بأن الخلافة باقية، وأنها لا تزال تملك مصاير الأمور، فترفع من ترفع، وتخفض من تخفض، وكذلك كان الفتك به في مجلس شراب جريمة يثور عليها أضعف الجبناء.

أما الطائع فتولى الخلافة وهي كالقلب المنخوب لا تثبت أمام عاصفة ولا يُحسب لها يوم الروع حساب، ومن المؤكد أن الشريف لم يرَ فيما صنع بهاء الدولة مع الطائع شيئًا جديدًا، فتلك الصورة المنكرة كانت لها سوابق في غاية من البشاعة والقبح، فقد صيغت على نموذج الحادث الفظيع الذي وقع

للمستكفي بالله يوم دخل عز الدولة ومعه أتباعه، والمستكفي على سرير الخلافة، فقبلوا الأرض بين يديه، ثم تقدم اثنان كأنهما يريدان تقبيل يده فمدها إليهما وهو متلطف مترقق فجذباه وطرهاه إلى الأرض، ووضع عمامته في عنقه ثم جراه مهيناً ذليلاً؛ لِيُعْتَقَلَ في دار عز الدولة.

ومن هذا التماثل التام بين ما وقع للمستكفي بالله وما وقع للطائع ترون أن الشريف الرضي كان يتوقع هذه الحوادث، وترون أنه كان يعرف ما يصنع في مثل هذه المواقف ولست أستبعد أن يكون الشريف وطَّن نفسه على إثارة السلامة إن وقع مثل هذا الحادث؛ لأن الظروف لم تكن تسمح أبدًا بتأليف جيش يحارب الديلم ويناصر بني العباس.

والقصيدة التي أشرنا إليها منذ لحظات تشهد بذلك، فهي قصيدة رجل يكره التضجر والتألم ولا يحتاج للقتال؛ لأنه كان يعرف أن القتال لا يُطلب منه في مثل تلك الحال.

أضيفوا إلى ذلك أنه كان جرَّب الحوادث وجربته الحوادث؛ فكان يذكر بالتأكيد أن عضد الدولة اعتقل أباه وصادر أملاكه، ثم نفاه، ومع ذلك لم تسقط السماء على الأرض، ولم يُمتسَّق في سييله سيف، ولم يُبذَل في الدفاع عنه غير قطرات من الدمع، وما أضيَع من لا يحامي عنه أنصاره بغير الدمع!

لست من القائلين بأن الشريف لم يكن يهيمه أمر الطائع؛ فذهني لا يسوغ هذا النوع من الدفاع عن الشريف؛ لأنني أعتقد أن الشريف كان صادقاً كل الصدق في مودة الطائع، ولعله أصدق علوي مدح العباسيين وأطال عليهم الشناء.

إن الأستاذ عبد الحسين الحلبي نظر إلى الشريف من وجهة مذهبية حين حكم بأنه كان يداري الطائع، أما أنا فأنظر إلى الشريف من وجهة إنسانية، وأعتقد أن الشريف لم يكن مُداجياً ولا مُراثياً ولا وصولياً في مودته للطائع،

وإنما كان يراه بقية من بقايا بني العباس الذين أذاعوا معاني العظمة في الأمم الإسلامية زمنًا غير قليل، وكان يتمنى لو يعتدل الميزان فتصبح الخلافة قوة فعلية ترتفع بها العروبة وتنهار أمامها الشعوبية.

ولستُ بهذا القول أُعطي الشريف ما لم يكن له بأهل، لا، فليس من همي أن أمنح الشريف ما لا يملك، وإنما أقول هذا القول؛ فرارًا من ظلم الشريف فإن شعره يشهد بأن توجع لنكبة الطائع، ويشهد بأنه تألم لنكوله عن الدفاع عنه في ذلك اليوم المشؤم.

وشاهد ذلك أيها السادة أن الشريف لم يكتفِ بالقصيدة التي صورَ بها ما وقع في ذلك اليوم، وإنما أذاه وأرمضه أن يرى الطائع مخلوعًا يعيش على هامش الحياة بعد أن كان بالأمس خليفة يُبرم ويتقضى، ويُعطي ويمنع، وكذلك رأيناه يقول:

إِنْ كَانَ ذَاكَ الطُّودَ خَرَّ	فَبَعْدَ مَا اسْتَعَلَى طُوبَى
مَوْفٍ عَلَى القَلَلِ الذَّوَاهِ	بِ فِي العُلَا عَرَضًا وَطُوبَى
قَرْمٌ يَسُدُّ لِحْظَهُ	فَتَرَى القُرُومَ لَهُ مُتُوبَى
وَيُرَى عَزِيزًا حَيْثُ حَلَّ	وَلَا يُرَى إِلَّا ذَلِيلًا
كَالليثِ إِلَّا أَنَّهُ انْخَمَّ	بِذَ العُلَا وَالمَجْدِ غِيَلَا
وَعَلَا عَلَى الأَقْرَانِ لَا	مِثْلًا يَعْدُّ وَلَا عَدِيَلَا
مَنْ مَعَشَرَ رَكِبُوا العُلَا	وَأَبُوا عَنِ الكَرَمِ النَّزُولَا

(١) الطود: الجبل، وخر: سقط.

(٢) القلل: جمع قلة بالضم وهي القمة.

(٣) القرم: بالفتح الفحل.

(٤) يرى الأولى بالبناء للمفعول وكذلك الثانية، والمعنى: أنه على عظمته متواضع.

(٥) المعنى أنه علا على أمثاله فلا شبيهه ولا مثيل.

كَرُمُوا فَرَوْعًا بَعْدَ مَا
 نَسَبٌ غَدَا رُوَادُهُ
 يَا نَاطِرَ السِّدِّينِ الَّذِي
 يَا صَارِمَ الْمَجْدِ الَّذِي
 يَا كَوَكِبَ الْأَحْسَابِ أَعْجَبُ
 يَا غَارِبَ النَّعْمِ الْعِظَامِ
 يَا مُصْعَبَ الْعِلْيَاءِ قَا
 لَهْفِي عَلَى مَاضِي قَضِي
 وَزَوَالِ مَلِكِي لَمْ يَكُنْ
 وَمِنَازِلِ سَطْرِ الزَّمَا
 مِنْ بَعْدِ مَا كَانَتْ عِ
 وَالْأَسَدِ تَرْتَكِزُ الْقَنَا
 مِنْ يُسْبِغُ النَّعْمَ الْجَسَا
 مِنْ يَنْتِجُ الْأَمْوَالَ يَسُو
 مِنْ يَوْرِدُ الشُّمْرَ الطَّوَا
 مِنْ يَزْجُرُ السُّدْرَ الْغَشْوَا
 وَتَرَاهُ يَمْنَسُجُ دُونَهَا

طَابُوا وَقَدْ عُجِمُوا أَصُولًا
 يَسْتَنْجِبُونَ لَنَا الْفَحُولَا
 رَجَعِ الزَّمَانُ بِهِ كَلِيلَا
 مُلِئْتُ مَضَارِبَهُ فَلَسُولَا
 لَكَ السُّدُجَا عِنَا أَفُولَا
 غَدَوْتُ مَعْمُودًا جَزِيلَا
 دَتِكَ الْعَلَا نِقْضًا ذَلُولَا
 أَنْ لَا تَرَى مِنْهُ بَدِيلَا
 يَوْمًا يَقْدِرُ أَنْ يَزُولَا
 نُنْ عَلَى مَعَالِمِهَا الْخُتُولَا
 عَلَى الْأَيَّامِ مَرْبَاةً زَلُولَا
 فِيهَا وَتَرْتَبِطُ الْخِيُولَا
 مَ وَيَسْطَفِي الْمَجْدَ الْجَزِيلَا
 مَ تَعْوُدُ بِاللَّيَّانِ حُُولَا
 لَ وَيُطْعَمُ الْبَيْضَ النَّصُولَا
 مَ وَيَكْشِفُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَا
 وَادِي النَّوَائِبِ أَنْ يَسِيلَا

(١) العجم هو الاختبار، والأصل فيه أن يعض الرجل القناة؛ ليعرف صلاحيتها لعمل الرماح.

(٢) الغارب: هو الكاهل، والمعمود: المجروح، والجزيل: هو البعير الذي يقطع القتب غاربه.

(٣) المصعب: الفحل، والنقض: بالكسر المهزول، والذلول: الطَّيِّع.

(٤) المرباة: المكان المرتفع، والذلول: الذي يذل ويسقط من يعلوها.

(٥) حُول: جمع حائل وهي الناقة لم تلقح

(٦) في هذا البيت خيال طريف.

عَقَّادُ الْوَيْبَةِ الْمَلْسُو
 هَذَا وَكَمْ حَرْبٌ تَبَزُّ الْأَسْمَاءَ
 صَمَاءٌ تَخْرُسُ أَهْلَهَا
 وَالخَيْلُ عَابِسَةٌ تَجْرُ
 اجْتَابَ عَارِضُهَا وَقَدْ
 كَالثَّيَابِ الضَّرْغَامُ وَإِنْ
 صَانَعْتُ يَوْمَ فِرَاقِهِ
 ظَعْنُ الْغَنِيِّ عَنِّي وَحَوْ
 إِنْ عَادَ يَوْمًا عَادَ وَ
 وَلَيْتَ مَضَى طُيُوعَ الْمَنُورِ
 فَلَقَدْ تَخَلَّفَ مَجْدُهُ
 وَاسْتَذَرْتُ الْأَيَّامَ مِنْ
 كِ عَلَى الْعَلَا جِيلاً فَجِيلاً
 سَدَّ سَطْوَتَهَا الْغَلِيلاً!!
 إِلَّا قِرَاعًا أَوْ صَهِيلاً
 مِنَ الْعَجَّاجِ بِهَا ذِيوَالرَّحْلِ
 الْمَنُونِ بِهِ هُمُولا
 لِسَبِّ السُّوْعِيِّ دَقَّ السَّرْعِيلاً
 قَلْبًا قَدْ اعْتَنَقَ الْغَلِيلاً
 لِرَحْلِهِ إِلَّا قَلِيلاً
 جِهَ الدَّهْرِ مَقْتَبِلًا جِيلاً
 مِنْ مَوْثَمَاتِكَ السَّبِيلاً
 عَبَسًا عَلَى الدُّنْيَا ثَقِيلاً
 نَفْحَاتِهِ ظِلًّا ظَلِيلاً

وإنما نقلنا هذه القصيدة على طولها؛ لتروا كيف كان وفاء الشريف، فمثل هذه القصيدة لا ينظمها رجل متظرف ولا متكلف، وإنما ينظمها رجل محزون وقد عالجت الشعر سنين فرأيناه لا يُسلم زمامه لغير الأوفياء، والشريف في هذه القصيدة وفي أمين.

وأرجو أن تتذكروا أن هذه القصيدة نُظمت في شعبان من سنة ٣٨١ أي في خلال الأيام العصيبة التي اقترف فيها بهاء الدولة ما اقترف، فهني من أظهر الشواهد على جسارة الشريف.

وفي سنة ٣٩٣ مات الطائع بعد أن عاش مخلوعاً أكثر من عشر سنين وهو في رعاية القادر، وهي رعاية وقعت فيها أعاجيب أشارت إلى بعضها كتب التاريخ، فهل تغافل عنه الشريف؟ هيهات، فقد رثاه بقصيدتين هما شاهد على ما كان يملك من الشرف والنبل، وفي الأولى يقول:

إِن لِلطَّائِعِ عِنْدِي مِنَّةٌ وَجِئِي قَدْ بَلَّهَالِي بِبِلَالِي
لَيْسَ يُنْسِيهَا وَإِنْ طَالَ الْمَدَى مَرُّ أَيَّامٍ عَلَيْهَا وَلِيَالِي
فَاتَنِي مِنْكَ انْتِصَارٌ يَمِينِي فَتَلَايْتِ انْتِصَارًا بِمَقَالِي

وهذه الأبيات تشهد بأن الشريف كان يتألم؛ لنكوله عن نصره الطائع يوم الدار، يوم هجم عليه بهاء الدولة وأنتصاره المجرمون.

وتلك قصيدة طويلة يراها القارئ في الديوان، أما القصيدة الثانية فمطلعها.

مَا بَعْدَ يَوْمِكَ مَا يَسْلُوْهُ بِهِ السَّالِي وَمِثْلُ يَوْمِكَ لَمْ يَخْطُرْ عَلَيَّ بِأَلِي

والمهم أن نسجل أن الشريف ظلَّ يتوجع لنكبة الطائع مدة طويلة، فرثاه بعد ذلك خفيةً بقصيدة نتخير منها هذه الأبيات:

وَمَوْءَرٌ نَزَلُوا بِهِ فِي سُوقِهِ لَا شَكْلَهُ فِيهِمْ وَلَا قَرْنَآؤُهُ
قَدْ كَانَ يَفْرُقُ ظِلَّهُ أَقْرَانَهُ وَيَعْضُّ دُونَ جَلَالِهِ أَكْفَاؤُهُ
وَمَحْجَبٌ ضُرِبَتْ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ يَعْمَشِي " الْعَيُونَ بِهَآؤُهُ وَضِيَآؤُهُ
نَادَتْهُ مَنْ خَلْفَ الْحِجَابِ مَنِيَّةٌ أَمَّمٌ فَكَانَ جَوَابَهَا حَوِيَّآؤُهُ
شَقَّتْ إِلَيْهِ سَيْوْفُهُ وَرِمَاحُهُ وَأَمِيطَ عَنْهُ عَيْبُهُ وَإِمَآؤُهُ
لَمْ يُغْنِهِ مَنْ كَانَ وَدَّ لَوَانَهُ قَبْلَ الْمُنُونِ مِنَ الْمُنُونِ فِدَاؤُهُ
حَرَّمَ عَلَيْهِ السِّدْلَ إِلَّا أَنَّهُ أَبَدًا لَيْشْهَدَ بِالْجَلَالِ بِنَاؤُهُ
أَقْنَى الْحَيَاءِ تَجْمُلًا لَوَانَهُ يَبْقَى مَعَ السِّدْمِ اللَّجْجِ حَيَاؤُهُ
فَاذْهَبْ فَلَا بَقِيَّ الزَّمَانِ وَقَدْ هَوَى بِكَ صَرْفُهُ وَقَضَى عَلَيْهِ قِضَاؤُهُ

ومن كل ما سلف ترون أن الشريف لم يكن مرثيًا في حب الطائع وأنه ندم

(١) في الديوان: (يغشى) بالغين المعجمة وهو تحريف.

(٢) أمم بالتحريك: قريب، والحوباء: بقية النفس.

على أنه لم يدفع عنه بيمينه، وأنه ظل وقيماً له بعد الخلع وبعد الممات. والظاهر أن الطائع كان أحسن إلى الشريف وإلى أبيه، والإحسان يحفظه كرام الرجال وكان الشريف من الأكرمين.

قد تسألون: وماذا صنع الشريف بعد خلع الطائع؟

ونجيب بأنه صنع ما يصنع السياسيون، وهل للسياسيين قلوب؟

لقد استقبل الخليفة الجديد بقصيدة شهد فيها أنه جدّد شرف الخلافة العباسية، وجعله موطّداً للبناء الذي وضع قواعده أبو العباس السفاح، واستباح لنفسه أن يخاطب القادر فيقول:

مجددٌ، أمير المؤمنين، أعدتهُ غصّاً كَنُورِ المُورِقِ الميَّاسِ
بعثتُ في قلب الخلافة فرحةً دخلتُ على الخلفاء في الأرماسِ
ومكيدةً أشلى عليك نيوها غضبانٌ للقريبى القريية ناسِ
فَغَرَّتْ إليك ففُتَّها وتراجعت ففَرَّتْهُ بالأنياب والأضراسِ

ثم مدحه بقصيدة (من الحدوج تهزهن الأينق).

وهي القصيدة التي ختمها بقوله:
عطفاً أمير المؤمنين فإننا في دوحه العلياء لا نتفركُ
ما بيننا يوم الفخيار تفاوتٌ أبداً كلانا في المعالي مُعِرِقُ
إلا الخلافة ميزتك فإنني أنا عاطلٌ وأنت مطوَّقُ

فقال له القادر: على رغم أنف الشريف!

وكانت هذه العبارة فيما يظهر أصل الفرقة بين الرجلين؛ فانصرف الشريف عن مدح القادر وأسقطه من حسابه، ثم مضى يمدح الوزراء والملوك ولذلك حديث طويل يضيق عنه الوقت في هذا المساء.

صلوات الشريف الرضي بالوزراء والأمراء والملوك

أيها السادة ... حدثناكم عن صلوات الشريف بالخلفاء، وفي هذه الليلة نحدثكم عن صلواته بالوزراء والأمراء والملوك. وكنت أستطيع إغفال هذا البحث، أو الاكتفاء بكلمتين موجزتين تفصحان عن جوهر تلك الصلوات؛ ولكنني راعيت الأدب معكم فأثرت الاستقصاء.

والواقع أن مدائح الشريف ليست كسائر المدائح؛ لأنه لم يكن يتكسّب بشعره على نحو ما كان يفعل بعض الشعراء الذين يقدّون من بلاد بعيدة؛ ليبعوا أشعارهم في بغداد، وإنما كانت مدائحه شاهداً على اشتباكه في المعارك السياسية التي كانت تثور في فارس وفي العراق، فالشريف الرضي شاعرٌ سياسيٌّ، أعني أن أشعاره كانت وسيلة إلى أغراضه السياسية، أو هي عنوان على متابعتها لتقلب الأحوال السياسية، فهو شاعر (متحرك) كما يعبرُ أهل بغداد في هذه الأيام.

ويجب النص أيضاً على أن ممدوحيه لم يكونوا من الأغبياء، فأكثرهم كان يتذوّق البلاغة العربية، وأكثرهم كانوا من الفتيان البهاليل الذين يهيمنون بكرائم المعاني، فليس من المستبعد أن يكون الشريف أنس بأرواحهم وأذواقهم، فطاب له أن يخصهم بالقصائد الجياد.

والمهم عندي أن تعرفوا أن حرص الشريف على الاتصال بالوزراء والملوك لم يكن حرصاً على منفعة رخيصة تُقوّم بالدراهم والدنانير، وإنما كان حرصاً على منفعة عالية، هي أن يكون رجلاً له شأن في تصريف المعضلات السياسية، وقد تمّ له من ذلك بعض ما أراد، فاستطاع أن يكوّن صلة الوصل بين الحجاز والعراق وبين فارس والعراق، وبين الشام والعراق.

واليكم أسوق بعض الأمثال:

كانت إمارة الحج إلى أبي أحمد الموسوي ثم إلى ابنه الشريف الرضي، فهل تظنون أن هذا المنصب كان يضاف إلى هذين الرجلين بفضل الوراثة؟

قد يكون ذلك، ولكنني أرجو أن تصدقوني إذا قلت: إن هذا المنصب كان يشترط فيمن يتولاه أن يكون على صلوات بالقبائل العربية التي كانت تسد المنافذ إلى البيت الحرام.

والتاريخ يشهد بأن أهل العراق وأهل فارس وأهل خراسان انصرفوا عن الحج أعوامًا كثيرة بسبب الخوف من أشواك الطريق، وكان يتفق في أحيان كثيرة أن تُنْهَبَ قوافل الحجيج، وأن يعود الحجاج إلى بلادهم منهوبين ومجروحين، ولا يكفي أن يقال: إن الموسوي كان من الفرسان، وإن ابنه الرضي كان من الفرسان؛ وإنما يجب أن نفهم أن هذين الرجلين كان يعرفان قيمة الصداقة في العلاقات (الدبلوماسية) فكانا يتصلان اتصالًا وديًّا بأكثر القبائل وينالان بالسلطة الروحية ما تعجز السيوف.

وقد رأيتم فيما سلف أن الموسوي كان يذهب إلى فارس للسفارة بين الشعبين؛ وليقيم قواعد الصلح بين الجيش البغدادي والجيش الفارسي، وهذا يشهد بأن تسوية الشئون المعقدة بين فارس والعراق كانت توجب أن يكون في العراقيين رجال يؤتمنون على الأرواح، ويهمهم أن يسود الصفاء بين أُمَّم تفرَّقها العُنْصَرِيَّةُ ويجمع بينها الدين.

وكانت أشعار الشريف نوعًا من الدعاية للعراق في زمن لم تكن فيه جرائد ولا مجلات: فكان يوزَّع مدائحه ذات اليمين وذات الشمال على من يتوسم فيه القدرة على إنصاف العراق، وكان أبوه من قبل يصنع الصنيع نفسه بالوسائل الأدبية والدينية، وذلك أسلوبٌ من التلطف لا يبرع فيه إلا الأقلون.

مصاهرات كثيرة؛ لتصل روحه إلى أشتات القبائل العربية، وما على الشريف من لوم من أن يسلك ذلك المسلك المقبول؛ ليكون صلة الوصل بين فارس والعراق.

ولكنه - وأسفاه - خاب في مسعاه!

وقد سجّل خيبته الأليمة بقصيدتين: الأولى بائية، والثانية دالية.

وكان يجب أن نقف طويلاً في تشريح هاتين القصيدتين، ولكن أين الوقت؟ فيكفي أن نذكر أن الشريف شعر بصدمة موجعة حين ضاعت تلك الفرصة الذهبية، وكان للرجل - وهو من شعراء الوجدان - أن يتألم لضياح البخت من فتاة نشأت في النعيم؛ والحسنُ المنعمُ له مذاقٌ خاصٌّ؛ ولكنه وقف حسرته على ضياح المطمّع السياسي فقال في مطلع البائية:

وغيبة حظّ لا يُرَجَّى إياها	أمانئُ نفس ما تُنّاخ ركاها
وهنّ معي إلا وضّاقت رحاها	ووفدُ هموم ما أقمت ببلدة
تراجعَ متقوضاً عليّ حسابها	وآمال دهر إن حسبت نجاحها

ثم قال:

وظنّني أن الطّول منه جوابها	ألا أبلغنا عنّي الموفّق قوله
فأخجّب عن لُقبها علماً أنت باها	أترضى بأن أرمي إليك بهمتي
بأخلافها عنّي ومنك مصابها	وأظها إلى دَرِّ الأمانئ فتثنئي
قوادم عزّ طاح في الجواقها	وليس من الإنصاف أن خلّقت لكم

(١) الطول: بالفتح هو الجود.

(٢) الأخلاف: الأنداء، والمصاب بفتح الميم مصدر الصوب أي الانصباب.

(٣) القاب: الفرخ، وهو أيضاً ما بين المقبض والسية من القوس.

وأصبحتُ محصوص الجناح مهضماً
تُعِدُّ الأعادي لي مرامي قِذافها
لقد كنت أرجو أن تكونوا ذرائعي
فهذه المعالي الآن طواعي لأمركم
إذا لم أرد^(١) في عزكم طلب العلا

عليّ غوشي ذلّة وثياجها^(٢)
وتنبحني أنى مررت كلابها
إلى غيركم حيث العُلا واكتسابها^(٣)
وفي يدكم أرسائها ورقابها^(٤)
ففي عز من يُجدي عليّ طلابها؟

وهذه الأبيات صريحة في أنه لا يبكي ضياع الحظ من فتاة جميع كان يشتهي أن تكون أنس حياته، وإنما هو يبكي فرصة سياسية ضاعت بضياع تلك المصاهرة المشتهاة.

وفي القصيدة الثانية يقول:

لك الله ما الآمال إلا ركائبُ
أبى لك إلا الفضلَ نفسُ كريمةٌ
وَطودٌ من العلياء مُدَّتْ سموكهُ
وإني لأرجو من علائك دولةً
ويومًا يُظِلُّ خافقينَ بمزنةٍ
لأعقدَ مجدًا يُعجزُ الناسَ حلُّهُ
فمن ذا يراميني ولي منك جُنَّةٌ^(٥)
عليّ رداءٌ من جمالك واسعةٌ

وأنت لها هادٍ وحادٍ وقائدُ
ورأيي إلى فعل الجميل مُعاود
فطالَتْ دُرَاهُ واطمأن القواعد
تذلل لي فيها الرقابُ العوائد
رِذَاذُ غواديهَا الرءوسُ الشوارد^(٦)
وتنحلُّ من هام الأعادي مَعَاقد
ومن ذا يدانيني ولي منك عاضد؟
وعندي عِزٌّ من جلالك خالد

(١) الجناح المحصوص: هو الذي تساقط ريشه، ويقال كذلك: رأس المحصوص.

(٢) الذرائع: جمع ذريعة وهي الوسيلة.

(٣) الأرسان: جمع رسن بالتحريك، وهو الحبل وما كان في زمام على أنف.

(٤) من ورد يرد.

(٥) الغوادي: جمع غادية وهي السحاب تنشأ غدوة أو مطرة الغداة، والرذاذ على وزن

سحاب هو المطر الخفيف، وهذا البيت من وثبات الخيال.

(٦) الجنة: بالضم هي الوقاية.

فلا تتركني عرضة لمُضاغن
ولا صدودٌ منك هانت عظامي
ولكنك المرء الذي تحت سُخطه
يُطارِد في أضغانه وأطارد
تَشُقُّ على غيري وذلت شدائد
أسود ترامي بالردى وأساود

وهذا المطمح هو من شواهد الفحولة في الشريف، الفحولة الحسية والفحولة المعنوية، وكان شاعرنا يتشهى أن يحكم ويستطيل، وشهوة التحكم والسيطرة من أشرف عيوب الرجال.

أيها السادة... ما أحب أن أضجركم؛ فأطوف بكم على جميع ما دونت من صلات الشريف بالوزراء والملوك؛ ويكفي أن تتضح الفكرة في أذهانكم؛ لترجعوا إلى أصولها في ديوانه حين تشاءون.

ولكن لا بد من الوقوف عند مسألتين مهمتين: الأولى: صلات الشريف بالحمدانيين، والثانية: صلاته بهاء الدولة الذي كان في زمانه ملك الملوك.

أما صلاته بالحمدانيين: فلها أصول سياسية يعرفها المطلعون على التاريخ وربما جاز أن نحكم بأن هواه معهم يرجع أيضًا إلى أصول وجدانية، فقد كان يعطف على إحدى نساتهم، أو كانت إحدى نساتهم تعطف عليه. وقد مرت لذلك إشارة لا نعود إليها في هذا المساء؛ والرجل قد يعطف على أمة بأسرها من أجل امرأة يهاها أو تهواها.

وعواطف الشريف نحو الحمدانيين تظهر في مراثيه لمن عرف من رجالهم، كأن يقول:

ويرب بنو حمدان كانوا حُمَّاتِه
فأين كُفَاة القَطْرِ في كل أزمَةٍ
رعت فيه دُوبان الليالي العوائثُ
وأين الملاجي منهم والمغاوثُ؟

وأين الجياد المعجلات إلى الوغى
 إذا ما دعا الذواعن للباس والندى
 يَـرِفُ على ناديبهم الحلم والحجا
 من المطعمين المجدَّ بالبيض والقنا
 إذا طرحوا عَمَّاتهم وضحت لهم
 إذا غام بالنقع الملا المتواعث؟^(١)
 فلا الجودُ منزور ولا الغوث رائث^(٢)
 إذا ما لغا لاغ من القوم رافث^(٣)
 ملاء المقاري والعريب غوارث^(٤)
 مفارق لم يعصب بها العار لائث^(٥)

وقد تفجرت عواطف الشريف نحو الحمدانيين وهو يرثي أبا طاهر بن ناصر الدولة، ويظهر أن صداقته لذلك الأمير بلغت من نفسه كل مبلغ، فقد رثاه أصدق رثاء، وتفجَّع عليه أوجع تفجَّع، حتى وقع لقوم من عقيل أن يغضبوا وأن يرد عليهم الشريف فيقول:

ألام أني رثيتُ زافرةً^(٦) كانوا نجوم الفخار أو لمعه
 إن لا تكن ذي الأصول تجمعنا يوماً فإن القلوب مجتمعه
 كم رحم بالعقوق نقطعها ورجمُ الود غير منقطعه!^(٧)

وللشريف في ذلك الأمير مرثيتان، الأولى دالية:
 تفوزُ بنا المنون وتستبدُّ ويأخذنا الزمان ولا يردُّ
 وانظر ماضيًا في عُقبِ ماضٍ لقد أيقنت أن الأمر جدُّ

ثم يخاطب المبكي فيقول:

- (١) المتواعث: الكثير التراب، والملا: الصحراء.
- (٢) منزور: قليل، والرائث: البطيء.
- (٣) الرافث: الذي ينطق بالفحش.
- (٤) المقاري: في الأصل رءوس الآكام وهي هنا الجفان، والغوارث: الجياع ويقال للجائع: غرثان.
- (٥) العمات: جمع عمة بالكسر لغة في العمامة وهي مستعملة في مصر.
- (٦) الزافرة: الجماعة.
- (٧) هذا بيت نفيس.

عليك فما يُعَد ولا يُحَدُّ
ويَدَمَى بالأواخر منه خَدُّ
عليك من الأقارب لا يسود
لَسَدُونٌ بكاءً من يَبْكِيه ودُّ^(١)

أبراهيمُ أماد مع عيني
يُغَصِّصُ بالأوائل منه طَرْفُ
بكيتهك للوداد ورب باك
وإن بكاءً من تبكيه قُربى

ثم يقول في تحقير من قتلوه:

وكان العَضْبُ ضَوَاهُ الفِرْنَدُ
لقاتله به عَزٌّ ومَجْدُ^(٢)
وإماموئى يطول عليه عبدا!

قَتِيلٌ فَلَهُ نَابٌ كَهَامُ
وَذَلٌّ بِذَلِّ قَاتِلِهِ فَأُضْحَى
فيا أسدًا يصول عليه ذئبٌ

والقصيدة كلها على هذا النسق الطريف.

أما القصيدة الثانية فهي أعجوبة في الجودة والرصانة والخيال، وسنعود إلى درسها حين نتكلم عن المراثي في السلسلة الثانية من هذه المحاضرات.

قلت: إني لن أطيل الحديث عن صلوات الشريف بالوزراء والأمراء وإني سأنتقل من كلامه عن الحمدانيين إلى وفائه لبهاء الدولة، ولكن لا بد من تذكير القارئ بأن هناك شخصيات سياسية عرضنا لها في مواطن مختلفات من هذه المحاضرات، أمثال: شرف الدولة، وعبد العزيز بن يوسف، والصاحب بن عباد.

وقبل أن نواجه الحديث عن بهاء الدولة نذكر أن الشريف كان له ذوقٌ لطيف في التفرقة بين مقامات الخلفاء ومقامات الملوك، فهو كان ينشد الخلفاء شعره بنفسه، أما الملوك فكان يكتفي بإرسال القصائد إليهم، وقد فطن بعض الدساسين إلى هذه التفرقة الذوقية؛ فاغتابوه عند بهاء الدولة واتهموه بالتكبر

(١) أرجو القارئ أن يتأمل في عدوية هذه الأبيات.

(٢) وهذا أيضًا بيت نفيس.

والازدهاء.

فلما بلغتة الدسيسة كتب إلى بهاء الدول يقول:

جَنَانِي شَجَاعٌ إِنْ مَدَحْتُ وَإِنَّمَا لِسَانِي إِنْ سَيِّمَ النَّشِيدَ جِبَانُ
وَمَا ضَرَّ قَوَالاً أَطَاعَ جَنَانُهُ إِذَا خَانَهُ عِنْدَ الْمَلُوكِ لِسَانُ
وَرُبَّ حَيِّيٍّ فِي السَّلَامِ وَقَلْبُهُ وَقَّاحٌ إِذَا لَفَّ الْجِيَادَ طِعْمَانُ
وَرُبَّ وَقَّاحِ الْوَجْهِ يَحْمِلُ كَفُّهُ أَنَا مَلٌّ لَمْ يَغْرَقْ بِهِنَّ عَنَانُ
وَفَخْرُ الْفَتَى بِالْقَوْلِ لَا بِنَشِيدِهِ وَيُرْوِي فُلَانٌ مَرَّةً وَفُلَانُ

وللشريف في بهاء الدولة مدائح كثيرة جدًا.

فمن هو بهاء الدولة؟ أكان يستحق أن يُنفق الرضي في سبيله كل تلك الثروة من الشعر الجيد؟

نظلم الأدب والتاريخ ونظلم صديقنا الشريف إذا تركنا القارئ يفهم أن بهاء الدولة لم يكن إلا طاغيةً يُجيد ثل العروش، كالذي صنع مع الطائع.

كان بهاء الدولة - مع غطرسته - شخصية فارسية مصقولة الحواشي، وكان يتذوق الأدب الرفيع، وكانت له أخلاق.

إي والله، كانت له أخلاق!

والشاهد الآتي يُفصح عما نريده:

كان لشرف الدولة خادم اسمه نحرير، وكان وفيًا لسيدة أصدق الوفاء، وكان بهاء الدولة يسمع بوفائه فيشتدُّ شوقه إليه، فلما توفيَّ شرف الدولة وتولَّى

(١) في هذين البيتين يفرق الشاعر بين الوقاحة في القلب والوقاحة في الوجه، والوقاحة هنا معناها الشجاعة، فهي في هذا المقام كلمة ثناء.

الأمر بهاء الدولة كان همّ الملك الجديد أن يجتذب نحريًا إليه؛ ليجري في خدمته على ما كان يجري عليه في خدمة أخيه.

ولكن نحريًا امتنع، وتظاهر بلبس الصوف؛ ليفهم الناس أنه طلق دنياه^(١).

قال الراوي: كنت قائمًا بين يدي بهاء الدولة وهو يخطب نحريًا بقوله: لا تزهد فيّ مع رغبتني فيك، فأنا أولى بك على ما كنت عليه من قبل، ونحريير يقبل الأرض ويستعفي إلى أن انتهى بهاء الدولة إلى أن قال له باللغة الفارسية وقد دمعت عيناه: افعل لله! فأقام نحريير على أمر واحد في اللجاج الذي لا يقابل الملوك بمثله وانصرف من بين يديه^(٢).

ثم زين السفهاء لبهاء الدولة أن يأذن بالقبض على نحريير.

قال الراوي:

وبقي أبو الحسن محمد بن عمر ونحريير، فقال له محمد بن عمر: يا هذا، قد أسرفت في الدالة^(٣) ومن أنت وما قدرُك حتى تمتنع من خدمة هذا الملك العظيم - وأغلظ^(٤) له في القول ونحريير مطرق -؟!.

فلما زاد الأمر عليه؛ رفع رأسه وقال له: أيها الشريف! أين كان هذا القول في أيام مولاي وأنت ترى أفضل آمالك إذا ابتسمت في وجهك؟ فأما الآن وأنا على هذا الحال فاستعمال ما أنت مستعمله لؤم قُدرة، وسوء ملكة، وكيف ألام

(١) هذه شاهد جديد على أن التصوف مشتق من الصوف، وهو يؤيد ما قلنا به في كتاب (التصوف الإسلامي).

(٢) تجارب الأمم ج ٣ ص ١٥٤، طبع مصر بعناية مرجليوث.

(٣) في تجارب الأمم (الدولة) وهو تحريف.

(٤) في طبعة مرجليوث (فأغلظ) وما أثبتناه أصح.

على ترك الدنيا بعد ملكٍ ابتاعني بألف درهم ثم رفعني إلى أن كنت تخدمني ولا أخدمك، وتحتاج إليّ ولا أحتاج إليك“.

وما نريد أن نأتي على بقية القصة؛ فليس يسر القارئ أن يعلم ما صنعت الدسائس التي انتهت بقتل نحرير، فقد يكون في ذلك ما يُحَقِّرُ الجنس الذي اشترك في تكوينه آدم وزوجته حواء!

وأريد أن أقول أيها السادة: إن بهاء الدولة كان رجلاً له قلب وذلك مما يعطف عليه شاعرًا مثل الشريف، وهو قد استطاع أن يُثَبِّت قواعد الملك في العراق، والموصل، وخوزستان، وشيراز، وكرمان، واستطاع أن يطمئن على بغداد فيتركها ويقوم في خوزستان ويولي عليها حاكمًا يسميه: عميد العراق.

ومعنى ذلك أن العراق شهد في عهده أطيايف الرخاء.

قلت: إن بهاء الدولة كان يتذوق الأدب الرفيع، وشاهد ذلك أن الشريف كان يداعبه بالشعر؛ فيرسل إليه القصائد الوحشية والقصائد الإنسية.

كان يخاطبه بالشعري الوحشي فيقول:

رأى على الغور وميضًا فاشتاق	ما أجلب البرق لماء الأماق
ما للوميض والفؤاد الخفاق	قد ذاق من بين الخليط ما ذاق
داء غرام ما له من إفراق	قد كلَّ أسية وقد ملَّ الراق
لآل ليلى في الفؤاد أعلاق	تزيد من حيث تقضي الأشواق

إلى آخر القصيدة وهي طويلة.

وكان يخاطبه بالشعر الإنسي فيقول:

خَلَّ دمعِي وطريقَهُ
أحرام أن أريقَهُ؟

مَا قَضَى الدَّمْعُ حَقْوَقَهُ
 ضُيَّبَ فِي الْعَمْدِ شَقِيقَهُ
 رُبَّ وَدَّاءٍ وَرَفِيقَهُ
 مَنْ أَبَانِينَ وَسُوقَهُ؟^(١)
 يَنْشُدُ نَجْدًا وَعَقِيقَهُ
 يَنْقَلُ اللَّيْلُ وَسُوقَهُ^(٢)
 عَازِبَ اللَّيْلِ مَسْشُوقَهُ
 أَرْوَاحَ زُرُودٍ وَبُرُوقَهُ
 يُذَكِّرُ الْقَلْبَ حَقْوَقَهُ
 بُّ عَلَى الْعَيْنِ طُرُوقَهُ
 بُّ مَسْنِ الشُّوقِ حَقِيقَهُ
 وَإِنْ كُنْتَ سَحِيقَهُ^(٣)
 قَى عَلَى النَّأْيِ وَرِيقَهُ
 وَاشْكُوكَ عَلَيْنَا أَنْ نَذُوقَهُ

كَمْ خَلِيطٍ بَانَ عَنِّي
 يَا شَقِيقِي وَالْقَنَا يُعْنَى
 عَاصِبًا نَاصِحَهُ الْأَقْصَى
 مَنْ لَبَّرِقَ هَبَّ وَهَنًا
 مَنْ شَرِيقِيَّ الْحَمَى
 مَنْ غَمَامَ كَالْمَتَالِي
 لَاحَ فَاقْتَادَ فَوَادًا
 طَالَ ذَكَرَ النَّفْسِ
 وَعَقَابِيَّ غَمَامَ
 وَخِيَالَ دَلَسَ الْقَلْبَ
 كَذِبَ تَحْسِبَهُ الصَّصَ
 أَنْعَمِي يَا سَرْحَةَ الْحَيِّ
 أَعْتَمَى لَكَ أَنْ تَبْصَرَ
 نَمَّرُ حَرَّ مَمَّ

وهذا نسيبٌ مُرَقِصٌ.

ثم يمدح بهاء الدولة فيقول:

رَجَّ لِلْمَدِينِ مَسْضِيقَهُ
 إِذَا ضَلَّ طَرِيقَهُ

يَا قِوَامَ الْمَدِينِ وَالْفَا
 أَنْتَ رَاعِيَهُ وَهَادِيَهُ

(١) أبانين: مثنى أبان، وهما جبلان يقال لأحدهما: أبان الأبيض، وللثاني أبان الأسود، وانظر بقية الفروض في معجم البلدان. وسوقه: بضم أوله موضع بنواحي اليمامة، وقيل: ماء وجبل لباهلة.

(٢) المتالي: الإبل، والوسوق: جمع وسق وهو الحمل.

(٣) سحيقة: بعيدة.

ممن رجال ركبوا المجد
 معشرٌ كانوا قبيح
 وملوك في سراهم
 ومغاور الحفيظ
 حَسَبٌ يحسب من في
 من ترى يدفع رَوْقِيهِ
 لهم الأيدي الطوال
 ومواريت مقالي الليل
 بوجوه واضحات
 وأكُفٌ منفقات
 وبأخلاق رقاق
 تَخَذُوا المجد أباما
 إن فيهم مَوْلِدُ المَلِكِ
 ناشئاً تُسَلِّمُهُ الأُمُّ
 هم رَمَوْا عني جليل الخط
 طردوا الأيَّامَ عن وِرد
 أطلقوني من إسار الدهر

سد فما ذُمَّوا عَنِيهِه^(١)
 ل العز قِدمًا وفريقه
 ضرب المجد عروقهِه
 ت وفُرسان الحقيقهِه
 ه وأعرأق عَرِيقهِه
 ه ومن يطلع نيقهِه^(٢)
 الطول والببيض الزليقهِه^(٣)
 ل والنار العتيقهِه
 في دجى الأزل طليقهِه^(٤)
 في الندى الغمر عريقهِه
 دون أعراض صفيقهِه^(٥)
 استحسنوا قطُّ عقوقهِه
 ومن قبلُ علوقهِه^(٦)
 إلى الظئر السر الشقيقهِه
 ب يُدمي ودقيقهِه
 دمي طرد الوسيقهِه^(٧)
 ر إطلاق الربيقهِه^(٨)

(١) العنيق: السير.

(٢) الروقان: مشى روق وهو القرن. والنيق: بالكسر أرفع موضع في الجبل.

(٣) البيض الزليقة: السيوف الماضية.

(٤) الأزل: بفتح فسكون هو الضيق والشدة.

(٥) المراد من صفاقة: الأعراض قوتها وصلابتها.

(٦) العلوق على وزن صبور: المرضع.

(٧) الوسيقة: من الإبل كالرفقة من الناس.

(٨) الربيق: البهيمة المربوطة في الربيق.

إلى أن يقول:

عَشْتُ تَسْتَدْرِكُ فِينَا	حَطَّ بِلِ الدَّهْرِ وَمُوقِهِ ^(١)
وَأَثَقْنَا بِالدَّهْرِ تُعْطِي	مَنْ رَزَايَاهُ وَثَبَقِهِ
كَلِمًا عَفِيتَ صَبُوحَ الـ	عَمْرٍ عَوَّطِيَتْ غَبُوقِهِ
مَطْلَعِ الشَّارِقِ إِنْ غَا	بَ رَجَسَا النَّاسُ شُرُوقِهِ
أَمَّنَ الْمَرْتَعِ تَرَعَى	رَوْضَةَ الْعِزِّ أَنْيَقِهِ
إِنْ يَكُنْ عَيْدًا فَأَيَا	مُسْكٍ أَعْيَادِ الْخَلِيْقِهِ
إِنَّمَا أَنْوَارُ أَحْسَادِ	قِيٍّ وَنُورٌ حَدِيقِهِ ^(٢)
إِنْ نَعَّاقَ الْأَعْيَادِي	أَسْكَنَ السُّذُلَ نَعِيْقِهِ
لَفِظَ الْمَلِكِ شَجَاهُ	وَأَسَاغَ الْيَوْمِ رَيْقِهِ

وهذا الشاهد المطول لا يهمننا لذاته، كما تظنون، وإنما يهمننا لدلالته على
أريحية الشريف وهو يمدح بهاء الدولة، وهذه الأريحية تحتاج إلى قليل من
البيان:

إن الشريف ظل موصول الأواصر بمودة بهاء الدولة نحو عشرين سنة،
وهي مودة كان لها أثر كبير في شاعرية الشريف؛ لأنها أفسحت أمامه المجال
للتطريب والتغريد، وراضته على الطواف حول كرائم المعاني، فقد كان
الشريف يحب أن يمدح الرجال، لا لتكسب ولا لتزلف؛ ولكن للمعنى الذي
شرحناه في الطبعة الثانية من كتاب (البدائع) وهو معنى دقيق لم يتنبه إليه أحد
من الذين أرخوا الأدب العربي، فالمدائح كانت يسجلها لما يفهم الشعراء من
مكارم الأخلاق، وكان الشريف في حدود هذا الفرض يسره أن يتكلم عن
الشائل والخصال التي ترفع أقدار الرجال.

(١) الموق: بالضم هو الحمق في غباوة، ويقال: حمق مائق.

(٢) النوار: بضم النون هو الزهر.

فمدائح الشريف صورًا لما كان يؤمن به من الحقائق الأخلاقية، وشاهدًا على أنه كان في أعماق قلبه يود التخلق بما اصطفاها لممدوحيه من أخلاق.

وهذه القصيدة فيها إشارة إلى ماضي الفُرس، حتى النار، وهي في شعره نارٌ عتيقة أي كريمة، والعتق هو الكرم في الخيل وفي الصهباء.

وأريد أن أقول: إن ثناء الشريف على ماضي الفرس كان شواهد تلتطفه مع بهاء الدولة؛ لأن الشريف له قصائد في تفضيل العرب على الفرس، وبعبارة أدق تفضيل مجد الإسلام على مجد الفرس، كالقصيدة التي قالها حين اجتاز بالمدائن وشهد إيوان كسرى سنة ٣٩٧.

وقربوهن ليعبدن المغارا ويبدلن بدار الهون دارا

وكان يتفق له أن يتغنى بمجد العرب وما صنعوا في قهر الفرس وهو يمدح بهاء الدولة، فما تعليل ذلك؟

أغلب الظن أن الفرس لم يكن من همهم أن يقاوموا مجد العرب في الحدود التي رسمتها الشعوبية، لأن الفرس أسلموا وتعصبوا أشد التعصب للغة العربية، وكان إسلامهم واستعراجهم من أهم الأجداد في حياة العروبة والإسلام.

وأغلب الظن أيضًا أن الشعوبية لم تكن نزعة إجماعية في حياة الفُرس، وإنما هي مناوشات أدبية أثارها الأدباء، وهم مصدر الشر في بعض الأحيان!

أقول هذا لأفهم وتفهموا كيف جاز للشريف أن يذكر انتصار العرب على الفرس في قصيدة يمدح بها بهاء الدولة فينص على أن عارض الحرب يوم ذي وقار:

رحض الأغلف في تياره ورد العليج وما كاد يرد

يَصْطَلِي نَارَ طَعْمَانِ مَضَّةٍ أَوْ قَدَّتْ فِيهَا نَذَارَ بَنِ مَعْسِدٍ

والحقيقة أن الفرس في مؤلفاتهم وأشعارهم كانوا من نماذج القومية العربية الإسلامية، فلم يكن يجرحهم أن يقول شاعر: إن الإسلام انتصر عليهم؛ لأنهم رحبوا بالإسلام منذ عرفوه، وكانت بلادهم من الحصون التي اعتزت بها لغة القرآن.

وإنما نوهتُ بهذه القضية لأشرح كيف كان الشريف يتردد بين الإشارة بمجد العرب ومجد الفرس، وكيف جاز له أن يدور حول هذه المعاني بلا تهيب ولا إشفاق؟

وما يجوز لنا أيها السادة أن نزن التاريخ بموازين الحوادث في هذه الأيام، فالأمم الإسلامية في هذا العصر يستقلُّ بعضها عن بعض؛ بحيث يظن الغافل أنها كانت كذلك في الأيام الخالية، وما كانت كذلك، وإنما كان يتنقل المؤمن من أرض إلى أرض فلا يفهم أنه انتقل من وطن إلى وطن، وإنما كان يشعر بأنه يسير تحت راية الإسلام، ولم تكن ياء النسب إلا علامة تمييز لا علامة تفريق.

أيها السادة ... كانت مدائح الشريف لبهاء الدولة فرصة عظيمة لجموح الخيال، ففي تلك المدائح لفتاتٌ ذوقية وروحية وخُلُقِيَّة. والذين اهتموا بغراميات الشريف وقفوا عند الحجازيات، وفاتهم أن الشريف كانت له في مدائحه وثبات غرامية، كأن يقول:

من رأى البرق بغوري السند	في أديسم الليل يفري ويقُدُّ
حيرة المصباح تزهوه الصُّبا	حَلَّلَ الظلماء يجبو ويقُدُّ
كلما أنجد عُلوِّي السُّنا	قام بالقلب اشتياقٌ وقعد
كم أضاء البرق لي من معهد	ذاب دمع العين فيه وجمد
ومغان أنبت الحسن بها	هَيْفًا ترعاه عيني وغَيَد

نزلوا القلب أقساموا
 زمن الوجد سقام
 وب الليل مُقام^(١)
 مس كما ريع النعام^(٢)
 وعجيج وبغمام
 نى لقد شط المرام
 وعلى الخيف خيام؟
 ن على الجزع لِمَام
 دك والطوق لِمَام
 ل ثناياك البَشَام^(٣)
 علي فيك اللثام
 أول الحسرب كِلام
 كثر فيفه السهام
 نك والسداء عَقَام^(٤)

بذلو الدور فلما
 يا خلبيلٍ اسقياني
 وصفا لي قلعة الركة
 من الال حفزوا العيم
 فزفيرٌ ونشيج
 ومنى أين منى منى
 وهل على جمع نزول
 يا غزال الجزع لوكا
 أحسد الطوق على جيم
 وأعض الكف إن نا
 وأغار اليوم إن مر
 أنا عرضت فؤادي
 أن جعلت القلب مرمى
 من يداوي داء أحشا

وأنا أكتفي بهذه الشواهد الثلاثة؛ لأريكم أن مدائح الشريف في بهاء الدولة

(١) القلعة: بضم القاف الارتفاع، ولليل مقام: إشارة إلى الرحيل في ظلام الليل.
 (٢) الال على وزن سحاب: اسم جبل بعرفات، قال ياقوت: وأما اشتقاقه فقيل: إنه سمي الألا؛ لأن الحجيج إذا رأوه ألوا: أي اجتهدوا. وقد ذكره الشريف في قصيدة أخرى فقال:

فأقسم بالوقوف على الال ومن شهد الجمار ومن رماها
 لأنت النفس خالصة وإن لم تكونيها فأنت إذن مناها

(٣) البشام: على وزن سحاب شجر يؤخذ منه المسواك.
 (٤) داء عقام: بالفتح والضم، والضم أفصح: لا يبرأ منه.

بنا الأذى لابكم إذ نزل الخـ
ودمتُم للعلّاء وعيشُكُم
لا عجبٌ أن نقيكم حذرًا
طَبَّ طَرَوْقًا وصمَّم الأجل
غَضٌّ وراووق عزُّكم خَضَل
نحن جُفُونٌ وأنتم مُل

وإذا يقول في تعزيتة عن إحدى بناته وهي التي عقد عليها للخليفة القادر

بالله:

لَمَّا ن الغمد ما بقي الحسامُ
إذا سلك العلاء سَلِمَتْ قواه
وأهون بالمناكب يوم يبقى
وما شكوى المناهل حين تسي
وهل هو غير فذِّ أخلفتُهُ
وما شَرُّرٌ تَطَارَحَ عن زنادِ
أفق يا دهر من أمسيت تحدو
قدعت مبرِّز الحلبات يغدو
ولوذا مثل ما خالست منه
وبعضُ النقص آونةً تمامُ
فلا جَزَعٌ إذ انتقص النظام
لنا الرأس المقدم والسَّنام
مغيضةً إذا بقي الغمام
لنا العلياء والسنعم التَّوامُ
بمفتقِدٍ إذا بقي الضرام
وقد منع الخزامة والزمَام
جموحًا لا ينهنهه اللجام^(١)
وأنت بمثله أبداً عَقَام^(٢)

أما اللفطات الخلقية فكثيرة جدًا، كأن يقول:

كان قضاء الإله مكتوبًا
ما بقيتُ كفك الصنّاع لنا
ما احتسب المرء قد يهون وما
نهضًا بها صابِرًا فأنت لها
لولاك كان العزاء مغلوبًا
فكل كسر يكون مرء وبًا^(٣)
أوجع ما لا يكون محسوبًا!
والثقل لا يعجز المصاعيبا

(١) القدح: الكبح.

(٢) العقام والعقيم: من العقم وهو انقطاع النسل.

(٣) الكف الصناع: الماهرة في الصنع، وليست من الصنيع بمعنى الإحسان كما في هامش

طبعة بيروت.

فقد أرتك الأسى وإن قَدُمْتُ عن يوسفِ كيف صبرٌ يعقوباً^(١)

وما نقصر المعاني الخلقية على الشعر الذي يجري مجرى الأمثال، وإنما هي تشمل كل ما أشاد فيه بالشائيل والخصال، ومن الواضح أن هذا الحكم ينساق على جميع المدائح في الشعر العربي؛ ولكن لا مفر من الاعتراف بأن الشريف كان ينوّه بخلائق الرجال وهو يُجسها أقوى إحساس.

أما بعدُ، فليس من همنا أن نستقصي ما قال الشريف في بهاء الدولة، فذلك بحثٌ يطول، ويكفي أن تكونوا عرفتم أن الشريف عاش مدة وهو في حركة عقلية وذوقية ومعاشية بفضل ذلك الملك، وتشهد قصائد الديوان بأن بهاء الدولة أعدق عليه نعم التشريف والتبجيل وأنه كان يعتمد عليه في كثير من الشؤون.

وفي جمادى الآخرة سنة ٤٠٣ مات بها الدولة؛ فرتاه الشريف بهذه القصيد الباكية:

ماذا الطَّلابُ أترجو بعدها درَكا ^(٢)	دع الذَّميل إلى الغايات والرَّتكا
على الدُّجى وقِوام الدين قد هلكا	مالي أُكَلِّفها التهجير ^(٣) دائبة
ولا مَرُورٌ إذا لاقيته ضحكا ^(٤)	حُلَّ الغروضِ فلا دار ملائمة
بين الرجاء وبين اليأس معتركا ^(٥)	اليوم صرَّحت الجلى وقد تركت
ولا غمائمًا ولا نجمًا ولا فلَكًا	رزينةً لم تَدع شمسًا ولا قمرًا
لأنفق المجدُ فيها كل ما ملكا	لو كان يُقبَل من مفقودها عِوضٌ
وإنما اليومَ أذرى دمعته وبكى	قد أدهش الملك قبل اليوم من حذر

(١) الأسى: بضم الهمزة جمع أسوة وهي القدوة في العزاء.

(٢) الذمیل والرنتك: من ضروب السير.

(٣) التهجير: السير في وقت الهجير.

(٤) الغروض: جمع غرض وهو للرحل كالحزام للسرّج.

(٥) الجلى: الأمر العظيم.

وهادماً من بناء المجد ما سمكا^(١)
 يَجْمَلُنْ شَوْكُ القَنَا اللِّذَاعِ وَالشُّكَا؟^(٢)
 من الدماء ومن هام العدا نَبْكا^(٣)
 حكم القصاص لا عقل لما سفكا؟^(٤)
 من للقلوب لها الأطواق والمسكا؟^(٥)
 فكم وردن فريسا بعد ما انتهكا؟
 وينزع الظفر منها كل ما سدكا؟^(٦)
 منها لمن يطلب العلياء مَرَّكا
 عيصا ألف بعيص المجد فاشتبكا^(٧)
 دراري الليل لو كانت لها سلكا
 رأى من الجحد فعلاً قبله فحكى
 والمالكين عناناً قلسماً مُلِكا
 من ضامن للعلا من بعدها الدركا^(٨)
 من واقع طار أو من عاجز فنكا
 لا سُوقَةً بَدَلًا مِنْهُ وَلَا مَلِكا
 فأخصر الطُّرُقَ فِي العَلِيَاءِ مَا سَلِكا
 وكيف يسقي القطار النازل الفلكا؟

أمسى بها عاطلاً من بعد جليته
 من للجياذ مراعيها شكائهمها
 يطا بها تحت أطراف القنا زلقا
 من للظبا يختلي زرع الرقاب بها
 من للقنا جعلت أيدي فوارسه
 من للأسود نهاها عن مطامعها
 من للخطوب ينجي من مخالبيها
 من معشر أخذوا الفضلى فما تركوا
 قُدُوا من البيض خَلَقًا وَالْحَيَا خُلُقًا
 لو أنهم طبعوا لم ترض أوجههم
 هم أبدعوا المجد لا أن كان أولهم
 الراكبين ظهورًا قَلِمًا رُكِبَتْ
 يا صفقة من بياع كلها غَرَّرُ
 خلالها كل ذئب مع أكيلته
 الموت أخبث من أن يرتضي أبدًا
 لا تتبعوا في المساعي غير أخصه
 ما مثل قبرك يُسْتَسْقَى الغمام له

(١) سمك البناء: ارتفع.

(٢) الشكك جمع شكة بالكسر: وهي السلاح.

(٣) النبك: جمع نبكة بالتحريك وتسكن وهي أكمة محدودة الرأس.

(٤) الاختلاء: القلع، والقصاص: الأسد، والعقل: الدية.

(٥) المسك: جمع مُسكة بالضم وهي ما يمسك به.

(٦) سدك: ثبت ولزم.

(٧) العيص: بالكسر الشجر الكثيف الملتف.

(٨) الغرر: بالتحريك وهو المعرض للضياع.

لا يُبْعِدُ اللهُ أَقْوَامًا رُزِئَتْهُمْ
فَقَدْتُمْ مِثْلَ فَقْدِ الْعَيْنِ نَاطِرَهَا
إِذَا رَجَا الْقَلْبُ أَنْ يَنْسِيَهُ غَصْبَتُهُ
إِنْ يَأْخُذُ الْمَوْتَ مَنًّا مِنْ نَضْنٍ بِهِ
إِنِّي أَرَى الْقَلْبَ يَنْزُو لِأَذْكَارِهِمْ
لَا تَبْصُرُ الدَّهْرُ بَعْدَ الْيَوْمِ مَبْتَسِمًا
لَوْ تُلَّمُوا مِنْ جُنُوبِ الطُّودِ لَامْتَهَكَا^(١)
يَبْكِي عَلَيْهَا بِهَا يَا طُولَ ذَاكَ بُكََا
مَنْ يُجَدِّثُ الدَّهْرَ أَدْمَى قَرْحَهُ وَنَكَا
فَمَا نَبَالِي بِمَنْ بَقِيَ وَمَنْ تَرَكََا
نَزُو الْقَطَاظَةَ مَدُّوا فَوْقَهَا الشَّرَكََا^(٢)
إِنْ اللَّيَالِي أَنْسَتْ بَعْدَهُ الضَّحَكََا

وكذلك كان بهاء الدولة آخر من اعتر الشريف بمدحه بين الملوك، وربما كان صادقاً فيما ادعاه من ذهاب الضحك بذهاب ذلك الفقيد، فإنَّ الشريف لم يُعمر من بعده طويلاً.

(١) هذا المعنى نفيس جداً.

(٢) القطاظة: هي القطة.

العلا والمعالي في قصائد الشريف

أيها السادة

أريناكم فيما سلف صورًا كثيرة من صلة الشريف بعصره، وصلاته بمن عرف فيه من علماء وشعراء وأمراء وخلفاء وملوك، وأريناكم كيف عرف النعيم والبؤس والضحك والبكاء.

والآن نحدثكم عن غرامه بالمجد، وهيامه بالعلياء، وفنائه في التخلق بأخلاق الأبطال.

والشريف في هذه الناحية هو صورة الشاعر الحق؛ لأن الشاعر الحق لا يخلو قلبه أبدًا من التسامي إلى كرائم المقاصد وشرائف الغايات، وهو قد يلهو وقد يلعب، ولكنه يظل مشغول القلب بما يتسامى إليه، وتدور خواطره حول أمانيه في كل وقت، وإن ظنّه الناس من اللاهين.

وما رأيتم من هُو الشريف، وما سترون لم يكن هُوَ خ صيان، وإنما كان هُوَ فحول، فهو لم يكن في غرامياته من الشعراء الضعفاء الذين يستريحون إلى البكاء والأنين، وإنما كان شاعرًا فحلًا يرى الحُسن لم يُخلَق إلا لغرامه الجموح، وسترون فيما بعد أنه تزوج وأنجب، ولم يترك الدنيا إلا وهو ملء العيون والقلوب.

أيها السادة

نحن مُقبِلون على مصافحة الجبل الأشمّ، نحن مقبلون على مواجهة الفارس الذي بذ جميع الفرسان حين قال:

نبهتُهُم مثل عوالي الرماح إلى الوغى قبل نُوم الصباح
فوارسٌ نالوا المنى بالقنا وصافحوا أغراضهم^(١) بالصِّفاح

(١) في الديوان "أغراضهم" والصِّفاح: السيف.

يَغْصُّ مِنْهَا بِالزَّلَالِ الْقَرَّاحِ
 وَلَا عَلَى الْمُجَلِّبِ مِنْهَا جُنَّاحٌ^(١)
 دُمَى مِبَاحَاتٍ وَمَالٌ مِبَاحٌ^(٢)
 لَا نَطَأَ الْعِذْرَاءُ إِلَّا سِفَاحٌ^(٣)
 فَلَيْسَ مِنْ عِبَاءِ الْأَذَى مُسْتِرَاحٌ
 طَوِيلٌ مُنَاجَاةِ الْمُنَى أَنْ يُرَاحَ
 وَقَاحَةٌ تَحْتِ غِلَامٍ وَقَاحٌ^(٤)
 دُونَ الَّذِي قَدَّرَ أَوْ بِالنَّجَاحِ
 وَالْعِزُّ فِي شَرْبِ ضَرْبِ اللَّقَاحِ^(٥)
 وَلَا مُطَاعٌ غَيْرَ دَاعِيِ الْكِفَاحِ
 طَوَّحَهُ الْهَمُّ بَعِيدًا فِطَاحِ
 رَاحٍ وَمَنْ لَا يُطِيقُ الْبَذْلَ رَاحِ
 أَنْ لَا يُرَدَّ الضَّمِيمُ دَفْعًا بِرَاحِ
 تَمَطَّرَ بِالْبَيْضِ الظَّبَا أَوْ تُرَاحِ؟
 مِنْ الْعَوَالِيِ وَالْمَسَاضِيِ فِصَاحِ
 يَحْتُهَا أَرْوَعُ شَاكِيِ السَّلَاحِ
 نَعَامَةٌ زَيَّافَةٌ بِالْجُنَّاحِ

لِغَارَةِ سِنَامِعِ أَنْبَائِهَا
 لَيْسَ عَلَى مُضْرِبِهَا سُبَّةٌ
 دُونَكُمْ فَايْتَدَرُوا غُنْمَهَا
 فَإِنَّنَا فِي أَرْضِ أَعْدَائِنَا
 يَا نَفْسُ مِنْ هَمٍّ إِلَى هَمَّةٍ
 قَدْ آتَى لِلْقَلْبِ الَّذِي كَدَّهُ
 لَا بَدَأَ أَنْ أَرْكَبَهَا صَعْبَةً
 يُجَاهِدُهَا أَوْ يَنْشِي بِالرَّدَى
 الرَّاحُ وَالرَّاحَةُ ذُلُّ الْفَتَى
 فِي حَيْثُ لَا حُكْمَ لِغَيْرِ الْقَنَا
 وَأَشْعَثُ الْمَفْسِرِ قِذْيُ هَمَّةٍ
 لِمَا رَأَى الصَّبْرَ مَضْرِبًا بِهِ
 دَفْعًا بِصَدْرِ السَّيْفِ لِمَا رَأَى
 مَتَى أَرَى السَّزْوَاءَ مُرْتَجَّةً
 يَصِيحُ فِيهَا الْمَوْتُ عَنِ اللَّسُنِ
 بِكُلِّ رَوْعَاءٍ عَظِيمِيَّةٍ^(٦)
 كَأَنَّمَا يَنْظُرُ مَنْ ظَلَّهَا

(١) المجلب في هذا البيت هو الذي يكثر الصياح من الفزع، والمراد وصف هذه الحرب بالقسوة والعنف بحيث لا يكون على الهارب منها جناح.

(٢) الدمى: جمع دمية بالضم، والمراد بها المرأة الجميلة، وهي في الأصل صورة توضع في المحراب.

(٣) هذا البيت قوي جدًا.

(٤) الغلام هو الفتى في شعر الشريف، والوقاحة هي الشجاعة.

(٥) الضرب: اللبن، واللقاح: النوق، والمفرد لقوح على وزن صبور.

(٦) العظيمة: المنتفخة البطن من أكل العظون، وهو شجر (أحمد عباس الأزهري).

متى أرى الأرض وقد زُلزلت
 متى أرى الناس وقد صبَّحوا
 يلتفتت الهارب في عطفه
 متى أرى البيض وقد أمطرت
 متى أرى البيضة^(١) مصدوعة^(٢)
 مضمَّخ الجيد نؤوم الضُّحى
 إذا رَدَّاح السَّرَّوع عَنَّتْ لَهُ
 قومٌ رَضُوا بالعجز واستبدلوا
 توارثوا الملك ولو أنجبوا
 غطسى رداء العزِّ عسوراتهم
 إني والشاتم عرضي كمن
 يطلب شأوي وهو مستيقن^(٣)
 فارم بعينيك مليًا ترى
 وأرق على ظلمك هيهات أن
 لا همَّ قلبي بركوب العلا
 إن لم أنلها باشسراطٍ كما
 يطمح من لا مجد يسمو به
 وخطبة يضحك منها الردى
 صَبْرَتْ نفسي عند أهوالها

بعارض أغبر دامي النواح؟^(٤)
 أوائل اليوم بطعن ضراح؟
 مروَّعا يرقب وَقَعَ الجراح
 سيل دم يغلب سيل البطاح؟
 عن كل نشوان طويل المراح؟
 كأنه العذارى ذات الوشاح
 فسَرَ إلى الكعاب السَّرِّاح^(٥)
 بالسيف يذمِّي غرْبُهُ كأس راح^(٦)
 لورثوه عن طعان الرماح
 فافتضحوا بالذَّلَّ أي افتضح
 روع أساد الشرى بالنُّباح
 أنَّ عناني في يمين الجراح
 وقع عُباري في عيون الطُّلاح
 يُزَعزَع الطُّودُ بمرَّ الرِّياح
 يومًا ولا بلَّ يدي بالسماح
 شئتُ على بيض الظبا واقتراح
 إني إذا أَعْدَر عند الطُّماح
 عسراء تبري القوم بري القداح
 وقلست من هبوتها لا براح

(١) النواح: هي النواحي: أعلت بحذف الياء.

(٢) البيضة هنا: ما يلبس من الحديد.

(٣) الرِّدَّاح على وزن (سحاب): هي الكتبية الثقيلة الجرارة، وهي أيضًا المرأة الثقيلة الأوراك وهذا يفهم البيت.

(٤) الغرب بالفتح: حد السيف.

إما فتى نال العسلا فاشتفى أو بطل ذاق الردى فاستراح

ماذا ترون، أيها السادة؟ حدثوني، ماذا ترون؟

هل رأيتم في الشعر كله قصيدًا يشبه هذا القصيد؟

إن باب الحماسة في ديوان الحماسة لو وُضِعَ كُلُّهُ في الميزان لثالت كفته ورجحت كفة هذه القصيدة، ولكن أين من يفهم المعاني؟!

إنّ هذا القصيد خليقٌ بأن يكون "نشيد الفتوة العربية"، وأهل لأن يحفظه جميع الشبان في سائر البلاد العربية؛ فهو جذوة من الفتوة، وقبَس من الرجولة، وشهاب من العزم المصمّم الذي يطيح المصاعب والأهوال.

أرأيتم:

نبهتهم مثل عوالي الرماح إلى السوغى قبل نوم الصباح

أرأيتم هذه الصورة، صورة الفتك، وصورة القائد الذي يختال بما يصنع وهو ينه جنوده إلى الحرب قبل أن تظهر تباشير الصباح؟!.

أرأيتم كيف وصف جنوده بأنهم مثل عوالي الرماح؟!.

انظروا هذه الصورة، ثم تذكروا ما يقابلها من الصور، فهناك شعراء ينهون رفاقهم أيضًا، ولكنهم لا ينهون إلى الاصطباح بالحرب، وإنما ينهونهم إلى الاصطباح بالصهباء.

أرأيتم كيف ينه الجنود:

لغارة سامعُ أنبائهنَا يَغصُّ منها بالزُّلال القَراح

أرأيتم هذه الصورة، صورة الحرب التي تُغصُّ سامع أخبارها بالماء القَراح؟ فكيف ترونها تصنع بمن يصطلي لظاها؟

أرأيتم كيف يشوق جنوده إلى الحرب؟!، فيقول:
 دونكم فابتدروا غنمها دُمى مباحات ومال ومباح
 فهو يُطعمهم فيما سينالون من الأموال ومن النساء، وهي مطامع حسية
 كانت على الدهر من أعظم مغنم الحروب.

أرأيتم كيف يحدّد مقامه ومقام جنوده من الحقائق الأخلاقية؟!، فيقول:
 فإننا في أرض أعدائنا لانطأ العذراء إلا سيفاح
 وهذه الأخلاق تبدو في بشاعة الوحشية، ولكنّ للشاعر عذراً وأنتم
 تلمومون، فهو يسجّل أخلاق الجنود المغاوير، والجنود المغاوير لا يعرفون
 المصقول من آداب الناس؛ فالجنديّة هي في ذاتها وحشية، وهل اشتقت
 الفروسية إلا من الافتراس؟

ثم يقول:

يا نفس من همّ إلى همّة
 ليس من عبء الأذى مستراح
 قد آن للقلب الذي كدّه
 طول مناجاة المنى أن يراح

فيصوّر لكم قلق الرجل الطّمّاح الذي تُغرقه مطامحه في بحر من الهموم
 فلا يرى نجاته في غير القتال.

ثم يقول:

لا بُدّ أن أركبها صعبة
 وقاحة تحمت غلام وقاح
 يُجهدها أو يتثنى بالردى
 دون السذي قدر أو بالنجاح

والغلام في هذا الشعر هو الفتى ، والشاعر لا يرى لنفسه غير غايتين:
 النصر، أو الموت، وهو معنى سيكرره في آخر القصيدة؛ إذ يقول:
 إما فتى نال العُلا فاشتفى أو بطل ذاق الردى فاستراح

وهو بهذا سبق الفرنسيين في هذه الحكمة العالية، سبقهم بمئات السنين إلى الحكمة المسطورة على محراب البانتيون في باريس: **Vaincre ou mourir**.

ولم يكن الشريف أول من قال هذا المعنى بين شعراء العرب، ولكنه أوردّه مورداً قوياً جداً، بحيث لا يكون من المغالاة أن نعدّه من معانيه المبتكرات.

ثم يقول:

الراح والراحة ذلُّ الفتى والعزُّ في شرب ضريب اللقاح
في حيث لا حُكْمَ لغير القنا ولا مُطاعٌ غير داعي الكفاح

فنفهم عن طريقه أعظم معضلة في تربية الأبدان والنفوس، وهل نسيتم أن الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم ليتربوا في البادية؟ هنا نفهم السر: فاللغويون يظنون أن الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية؛ لينشأوا على فصاحة الأعراب، وهذا له وجه، وإنما كان الخلفاء يرسلون أبناءهم؛ لينشأوا على الصراحة والصرامة والطغيان. فالحكم في البوادي لا يكون لغير السيف والرمح، وعيش البادية مرانٌ على الخشونة والصلابة والفتك.

وقد سمعتم ألف مرة أن الترف هو داء الأمم، وداؤها العقام الذي يعزُّ منه الشفاء، وإنما كان الترف داء الأمم؛ لأنه يجردها من الخشونة التي لا يمكن بغيرها صراعٌ ولا قتال.

إن ربيب البادية هو وحده الذي يقدر على منازلة الطبيعة في رُعودها وبروقها وجحيمها، أمّا ربيب الحواضر فهو كما قال توفيق البكري: "غادةٌ ينقُصها الحجاب، ينظر في المرأة، ولا ينظر في كتاب"، أو كما قال الشريف:

مضمخ الجيد نسووم الضحى كأنسه العذراء ذات الوشاح
إذا ردّاح السروع عنّت له فرّ إلى ضم الكعاب الرداح

وأنتم ترون أن الأمم التي ليست عندها بادية، تخلق لنفسها بادية، وهل

وأنتم ترون أن الأمم التي ليست عندها بادية، تخلق لنفسها بادية، وهل كان نظام الكشافة إلا رجوعاً إلى النظام البدوي الذي مكن أسلافنا من أن يكونوا أشجاراً قوية تقاوم الزعازع في مختلف البقاع والأجواء؟.

إنما كان الترف داء الأمم؛ لأنه يورث اللين، والشاب اللين لا يصلح لقتال ولا صراع.

ويصورُ الفتى الصوّال فيقول:

وأشعثُ المفرق ذي همّة طوّح به الهُمُّ بعيداً فطاح
لما رأى الصبر مضرّاً به راح ومن لا يُطيق السُّدْل راح
دفعاً بصدر السيف لما رأى أن لا يُردُّ الضيمُ دفعاً براح

فالفتى عنده هو الأشعث المفرق، أمّا صاحب المفرق المعطر فليس من الفتيان، الفتيان المغاوير الذين يأبون الضيم، ويقارعون الخطوب، وأنتم قد ترون في دنياكم فتياً من أبناء الزمان يضيّعون في تزيين مفارقهم ما يضيّعون، وهم فتيان لهم شأن في التمدن الحديث، وإليهم مصاير الأمور في أكثر الأحيان، ولكنهم سيظلون حيث وَقَفَتْهُمُ نفوسهم الصغيرة، فلا يعرفون دفع الضيم بالسيف حين لا يغنى دفعه بالراح، فهم كما قال الشريف:

قوم رضوا بالعجز واستبدلوا بالسيف يدمى غرْبُهُ كأس راح
توارثوا الملك ولو أنجبوا لورّثوه عن طعان الرماح

وللشريف في هذه القصيدة إشارات لا تخفى عليكم، فقد وجّه إليخصومه كلمات أشد من وقع النبل، وحق لمثله أن يقول:

يطمح من لا مجدّ يسمو به إني إذا أُعْدِرُ عند الطُّمّاح

صدقتم أيها البطل، صدقت!

ويتوثب الفارس إلى الفتك فيقول:

سَأْتَرُكَ فِي سَمْعِ الزَّمَانِ دَوِيَّهَا بِقَرَعِي ضَرَابِ صَادِقٍ وَطَعَانِ
وَأَخْصَفَ أَخْفَاقًا بَوَاقِعَ حَوَافِرِ إِلَى غَايَةِ تَقْضَى مَنِيِّ وَأَمَانِي
فَإِنْ أَسْبَرَ فَالْعِلْيَاءَ هَمِّي وَإِنْ أُقِمُّ فَاثْنِي عَلَى بَكْرِ الْمَكَارِمِ بَانِي
وَإِنْ أَمْضَى أَتْرَكَ كُلَّ حَيٍّ مِنَ الْعِدَا يَقُولُ: أَلَا لِلَّهِ نَفْسُ فُلَانِ!

فهذا الفارس ينكر الترقب، ويراه من العجز، ويشوقه أن يتأثر المتنبئ الذي كان يرى المجد في الفتك والطعان، ويؤمن بأنه الفائز في كل حال، فهو إن نهض فإلى الحرب، وإن قعد فلبناء المجد، ويشعر بأن أعداءه سيترحمون عليه يوم يموت.

والأبيات الآتية قالها الشاعر في مطلع صباه، والظاهر أنه كان مفطوراً على الفتوة منذ الحداثة، وإلا فكيف صح له أن يقول وهو في سن المراهقين:

سَتَعْلَمُونَ مَا يَكُونُ مَنِّي إِنْ مَدَّ مِنْ ضَبْعِي طَوْلُ سَنِّي
أَدْعُ الْوَدُنِيَّةَ وَلَمْ تَدْعُنِي يَلْعَبُ بِي عَنَاوُهُمَا الْمَعْنِي؟
نَاطِحَةٌ بِالسَّجْمِ هَامَ الْقِرْنِ نَطَّاحَ رَوْقِ الْجَازِي الْأَغْنِ"^(١)
وَسِعَتْ أَيْبَامِي وَلَمْ تَسْعُنِي أَفْضَلُ عَنْهَا وَتَضْيِقُ عَنِي
لَمْ أَنْأَمْثَلِ الْقَاطِنَ الْمُبِينِ"^(٢) أَسْحَبُ بُرْدِي صَرَخَ وَأَقْنِ"^(٣)
وَلِي مِضَاءٌ قَسِطٌ لَمْ يَخْتَنِي ضَمِيرُ قَلْبِي وَضَمِيرُ جَفْنِي"^(٤)
أَحْضَلُ مِنْ عَزْمِي عَلَى التَّمْنِي وَلَيَتَنَسِي أَفْعَلَ أَوْ لَوَاتِي
رَاضٍ بِمَا يُضْوِي الْفَتَى وَيُضْنِي سَسَّ أَبَائِي وَسَوْفَ أَبْنِي
قَدْ عَزَّ أَصْلِي وَفِعَزَّ غَصْنِي غَنِيْتُ بِالْمَجْدِ وَلَمْ أَسْتَعْنِ

- (١) الجَمَّة: جمع أجم، وهو الرجل بلا رمح، والكبش بلا قرن. والقرن بالكسر: هو كفوك في الشجاعة. والرَّوْقُ بالفتح: القرن، والجازي الأغن: كناية عن الظبي.
(٢) الصَّرْعُ بالتحريك: هو الذل. والأقن: ضعف العقل.
(٣) يقال: بن بين، وابن بين إذا أقام، فالمبن: هو القيم.
(٤) ضمير الجفن: هو العين وقد يراد به السيف.

قد عزَّزَ أصلي وبعزُّ غصني
 إن الغنسى مجلبةٌ للضنن
 الفقريتي والثرء يُدني
 إن كنتُ غير قارح فإني
 جئتُ بأما والشجاع جئني
 تشهد لي أن الزمان قري
 قساطلا مثل غوادي المزن
 جري عزالي^(١) المطر المستن
 بين المواضي والقننا تجدي
 جون الذرا أقود مُرججن
 لتعرفني ولتعرفني
 أقر عين الفاسق^(٢) المرن
 كم صبر خافي الشخص مستجن
 مرتن بهمسة تعني
 من قبل أن يغلق يوماً رهن^(٣)
 والنصل عيني واللسان أذني

غَيْبَتْ بِالْمَجْدِ وَلَمْ أَسْتغْنِ
 وَلِلْقُغُودِ وَالرُّضَا بِالْوَهْنِ
 وَالْحَرَصِ يُشْقِي وَالْقَنُوعِ يُغْنِي
 أَبَدُ جَزِي الْقَارِحِ الْمُسِينِ^(٤)
 أَنَارُ طَعْمِ الدَّهْرِ فِي مَجْنِي
 سَوْفَ تَرَى غِبَارَهَا كَالدَّجَنِ
 تَجْرِي بِضَرْبِ صَادِقٍ وَطَعْمِ^(٥)
 إِنْ غَيْبَتْ يَوْمًا عَنْكَ فَاطْلُبْنِي
 أَمَامَ جَيْشِ كَجُتُوبِ الرَّعْنِ^(٦)
 أَنْفُضْ عَنِّي نَقَعَهُ بِرُدْنِي^(٧)
 أَيَّامَ أُنْفِي بِالْقَنَّا وَأُغْنِي
 عَسَايَ أَنْفِي الضَّمِيمِ أَوْ لَعْنِي
 مَطْمَرٍ مِنَ الْأَذَى فِي سَجَنِ
 يَا لِيْتَهَا بِنَهْضَةِ فِدْتِنِي
 مَتَى تَرَانِي وَالْجَوَادِ خِدْنِي
 وَأُمِّي السَّدْرِ وَلَمْ تَلِدْنِي

(١) القارح من ذوي الحافر: بمنزلة البازل من الإبل.

(٢) القساطل: جمع قسطل، أو قسطال وهو الغبار.

(٣) العزالي: جمع عزلاء وهي في الأصل مصب الماء من الراوية.

(٤) الرعن بالفتح: أنف يتقدم الجبل.

(٥) الأقود: المستطيل. والمُرججن: المرتفع. والنقع: الغبار. والردن: الكم.

(٦) في الديوان (الفاقد)، والفاقر أظهر في المعنى، وهو الذي يكسر الفقار. والمرن:

المصوت، ويقال أيضًا: قوس مرنان. و (لعني) لغة في (لعلي).

(٧) قال الفيروزآبادي: غلق الرهن كفرح استحقة المرتن، وذلك إذا لم يفتك في الوقت

المشروط، قلت: وهذه العبارة هنا: كناية عن الموت.

أَجْرٌ فَضَّلَ ذِيهَا الرِّفْنَ "
 وَلَا قَرَعَتْ مِنْ قُنُوطٍ سَنِي
 وَعَذَّ بِأَغْضَائِي وَأَسْتَغْذِي
 يَنْطِقُ عَنِّي بِلِسَانِ ضَغْنِي
 مَخْرَقُ الثُّوبِ بَطْعَنُ اللَّدْنِ "
 وَالخَوْفُ يَغْرِي طَلْبِي فَخَفْنِي
 جَنَيْتُ مِنْ قَبْلُ وَسَوْفَ أَجْنِي

فَمَا رَأَيْكُمْ فِي هَذَا الطِّفْلِ الَّذِي أَنْضَجَهُ الْعِزْمَ، وَسَقَتَهُ نَفْسَهُ ذُوبَ الْحَدِيدِ
 الْمَتَوَقَّدِ؟

مَا رَأَيْكُمْ فِي الطِّفْلِ الْوَاعِدِ الَّذِي يَصْرُخُ فَيَقُولُ:
 سَتَعَلِّمُونِ مَا يَكُونُ مِنِّي إِنْ مَدَّ فِي ضَبْعِي طَوْلُ سَنِي

مَا رَأَيْكُمْ فِي الطِّفْلِ الَّذِي يَبْدَأُ بِمَحَاسِبَةِ نَفْسِهِ فَيَقُولُ:
 أَدَّعِ السُّدْنِيَا وَلَمْ تَدَّعْنِي يَلْعَبُ بِي عَنَاؤُهَا الْمَعْنِي

مَا رَأَيْكُمْ فِي الطِّفْلِ الَّذِي يَرَى نَفْسَهُ قَرِينَ الزَّمَانِ:
 إِنْ كُنْتُ غَيْرَ قَارِحٍ فَإِنِّي أَبَدُ جَرِي الْقَارِحِ الْمَسْنِ
 جُنْتُ بِأَسَا وَالشُّجَاعِ جَنِي آثَارُ طَعْنِ الدَّهْرِ فِي مَجْنِي
 تَشْهَدُ لِي أَنَّ الزَّمَانَ قَرْنِي وَسَوْفَ تَرَى غِبَارَهَا كَالسُّدْجَنِ

مَا رَأَيْكُمْ فِي الَّذِي يَتَشَوَّفُ إِلَى مَصِيرِهِ فِي الْفِتْوَةِ فَيَقُولُ:
 مَتَى تَرَانِي وَالْجَادِ خَدْنِي

(١) الرفن: الطويل.

(٢) اللدن: الرماح.

(٣) لم يؤمني: لم يصبني.

سأطلع من ثنائنا الدهر عزمًا
ولا أنسى المسير إلى المعالي
وكنّا لا يروّ عننا زمان
ونأنف أن تُسبِّهنا الليالي
فها أنا والحبيب نوذُّ أنا
وليل أذهم قلق النَّواصي
وصبح تطلع الآجال فيه
عقدت ذوائب الأبطال منه

يسسيل بهمة الحرب العوان
ولو نسيته أخفّاف الحواني^(١)
بما يعدي البعاد على التّداني
بشمس أو سنا قمر هيجان^(٢)
تدائنا ونحن الفرقان
جعلت بياض غرته سناني
وناطر شمس في النقع عاني^(٣)
بأطراف المثقفة السدواني

والأغرب والأعجب أن تعلموا أن هذا الشعر هو مطلع قصيدة في المدح وهي تجربة طريفة؛ فقد كان الشعراء يبدؤون قصائد المدح بالنسيب، وكثر منهم ذلك حتى صح للمتنبي أن ينقدهم فيقول:

إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدم
أكلُ فتى قد قال شعراً مُتَمِّمٌ

والمهم أن تعرفوا ما في هذه القصيدة من الشاعرية، المهم أن تعرفوا أن ذلك الفتى كان يشعر بأنه أعلى من الأمانى والزمان؛ فيقول:

أمن شوق تعانقني الأمانى
وعن ودٍّ يخادعني زماني؟

وأي شاعرية أجمد وأعظم من شاعرية من يُمتدح بأن جدّه كفتته السيوف، وغسلته الرماح:

قضى وجياده جول العوالي
تكفنه ظبا البيض المواضي

ووفد ضيوفه حول الجفان
ويغسله دم السُّمر اللدان

(١) المراد بالحواني: الإبل. والشاعر يتمثلها دائبة الحركة.

(٢) الهجان على وزن كتاب: الخالص البياض.

(٣) العاني: هو الأسير.

وهل رأيتم أحلى وأعذب من شاعرية الفارس الذي تغزل في جواده
فيقول:

خفيري في الظلام أقبُّ هَهْدُ
جوادٌ تُرْعِدُ الأبصار فيه
كأنى منه في جاري غدير
حييُّ الطرف إلا من مَكْرَرُ
إذا استطلعتهُ من سَجْفِ بيتِ
يساعدني على ذمِّ الزمانِ
إذا هزأت برجليه اليدانِ
الأعب من عناني عُصن بانِ
يبيِّن من خلائقه الحسانِ
ظننتُ بأنَّه بعض الغواني

ذلكم هو الفارس، وتلكم هي الفروسية، والذي يقول هذا الشعر فتى
كان يرشِّح نفسه لإمارة الحج، ومنصب القضاء، ونقابة الأشراف، وكذلك
كان أسلافنا فتياناً يستهويهم جمال الخيل وميادين القتال.

وقد ظن جامع الديوان أن الشريف وصف الأسد، وما وصف الشريف
الأسد بلى، وصف الشريف الأسد؛ لأنه وصف نفسه، فقال:

سِيرِعِبِ الْقَوْمِ مَنِي سَطُوْ ذِي لَبْدِ
لَا يَطْعَمُ الطَّعْمَ إِلَّا مَن فَرِيَسْتِهِ
ماشى الرفاق يراعي أين مسقطهم
يستعجل الليلة القمراء أوتها
حتى إذا عرَّسوا في حيث تُفْرِشُهُمْ
دنا كما اعتسَّ ذو طِمْرين لَمَّظَه
ثم استقرت به نفس مشيعة
فعاث وما عاث واشتَبَلِي عَقِيْرَتُهُ
له بعثَرُ أَعْرَاسٍ وِوِلْدَانِ
إِنْ يَعْدَمُ الْقِرْنَ يَوْمًا فَهُوَ طَيَّانِ
والسمع منتصب والقلب يقظان
إذا بنو الليل من طول السرى لانوا
نهارق الرمل أنقضاءً وكتبان
من فضلة الزاد بالبيداء ركبان
لها من القَدَرِ المجلوب معوان
يجرها مطعم للصيد جَذْلان

(١) عَثْرٌ بفتح العين، وفتح الثاء مشددة: اسم مأسدة.

(٢) طَيَّانٌ: جائع، وهو من الطوى.

(٣) عَسٌّ، وَاَعْتَسَّ: طاف بالليل. والتلمظ تتبع اللأظة بالضم: وهي بقية الطعام.

لم تَقْد منه دمَاء القوم ألبان
 البطون على الأعواد مُخْصَانٌ^(١)
 كأنها خطفت بالقوم عقبان
 كَأَنَّهُ من تمام الخلق بنيان^(٢)
 خان التوجس أبصارٌ وآذان^(٣)
 من غائر الجري الباب وأرسان
 يهفو بأبيانهم نَبْعٌ ومُرَّان^(٤)
 بيضٌ عقائل يجميهن غَيْرَانُ
 لها من النعي إعوَالٌ وإرنان
 مَنَّا على غُدَوَاءِ الداءِ نَشْدَان
 فالدار واحدة والسدين أديان^(٥)
 فوارغٌ ووعاءُ الشر ملآن
 في أن يعودوا إلى البُقْيَا كما كانوا
 وللرشاد أماراتٌ وعنوان
 واستوضحوا الحقَّ إن الحقَّ عُريَان
 هوجاءٌ مائلة الضبعين مسدعان
 أئسَى عميدٌ بما يلقون أسوان

قِرْنٌ إذا طلب الأوتار عن عرض
 وغلمة أخذوا للروع أهبتُهُ لف
 طارت بأشباحهم جُرْدٌ مسوْمَةٌ
 من كل أعنقٍ ملطومٍ بغرْتِه
 يمدُّ للجرس مثل الآستين إذا
 فاستمسكوا بنواصيها وقد سقطت
 كعمت فاغرة الثغر المخوف بهم
 كأنَّ غرَّ المعالي في بيوتهم
 إلى كم الرحم البلهاء شاكية
 حيرى يُضِلُّونها ما بيننا ولها
 النَّجْر متفقٌ والرأي مختلفٌ
 وثمَّ أوعية الإحسان مكفأة
 إِنَّا نَجْرُهُمْ^(٦) أعراضنا طمعاً
 أئسَى يُتَاه بكم في كل مظلمة
 ميلوا إلى السَّلم واسعة
 ياراكبا ذرعت ثوبَ الظلام به
 أبلغ على النأي قومي إن حللت بهم

(١) خِصَان: ضامرون.

(٢) الأعتق: القوي العنق. وملطوم بغرته: كناية عن البياض.

(٣) الجرس: الصوت أو خفي الصوت. والآستان: مثني آسة، واحد الآس وهو يصف الجواد بدقة السمع.

(٤) كعمت بهم الثغر المخوف: سدته بهم. والكعم في الأصل: شد فم البعير؛ لثلا بعض. والنبع والمران من الأشجار: التي تتخذ منها الرماح.

(٥) النجر بالفتح هو الأصل.

(٦) نجرهم أعراضنا: نطمعهم أعراضنا، كناية عن الصفح.

يا قوم إنَّ طويل الحلم مفسدةٌ
 مالي أرى حوضكم تغفو نصابتهُ
 مدفعين عن الأحواض من ضرع
 لا يُرهبُ المرءُ منكم عند حفظتهِ
 إن الأولى لا يعزُّ الجار بينهمُ
 كم اصطبارٌ على ضيمٍ ومنقصةِ
 وفيكم الحامل المهمام مسرحةُ
 والخليل مخطفة الأوساط ضامرةُ
 الله الله أن يبتزَّ أمـرـكـم
 تُوروا لها ولتتهن فيها نفوسكمُ
 فمن إباء الأذى حلّت جماجمها
 وعن سيوف إباء الضيم حين سَطَوْا
 فإن تنالوا^(١) فقد طالت رماحكمُ

وربما ضرَّ إبقاءً وإحسان
 وذودكم ليلة الأوراد ظمآن^(٢)
 ينضو بهامكم ظلمٌ وعدوان^(٣)
 ولا يراقبُ يوماً وهو غضبان^(٤)
 ولا تُهان عواليهم لذلان^(٥)
 وكم على السدل إقرارٌ وإذعان
 داج ومن حَلَق الماذي أبدان^(٦)
 كائننَّ على الأطواد ذوبان
 راع رعيتيه المعزي والضان
 إن المناقب للأرواح أثمان
 على مناصلها عيسٌ وذبيان
 مضى بغصته الجعدي مروان
 وإن تُنالوا^(٧) فللأقران أقران

ذلك وصف الأسد كما تصوّره جامع الديوان، فماذا ترون في هذا القصيد؟

إن الشاعر هنا قويُّ الروح جدًّا، ولا يمكن إدراك قوة الروح في هذا

-
- (١) النصاب: حجارة حول الحوض، ويشد ما بينها من الخصاص وبالمدّر المعجون. والأذواد: جمع ذود بالفتح، وهو جماعة الإبل.
 - (٢) الضرع بالتحريك: هو الدلّ.
 - (٣) الحفظة بالكسر: هي الحمية والغضب، ومثلها الحفيظة.
 - (٤) ذلان بالضم: ذليل.
 - (٥) المهمام: الأسد. والماذي: كل سلاح من الحديد.
 - (٦) بالبناء للمفعول.
 - (٧) بالبناء للفاعل.

القصيد إلاً بقراءته مرتين أو مرات، وهو شَبَّه نفسه بالأسد، وساقه ذلك إلى وصف الأسد، ولكن أي وصف؟ إنه وقف عند المعاني النفيسة التي تصور ما في الأسد من عِزَّة وكبرياء.

ثم تحدث عن رفاقه في الحرب أجملَ حديث فجعل المعالي في بيوتهم بيضاً عقائل تحميها الغيرة، ويجرسها الإباء.

ثم التفت إلى قومه فعنَّفهم على التناؤذ والتقاطع، وعجب من أن يتفق الأصل ويختلف الرأي، وجزع من تعدد الأديان مع وحدة الوطن.

ثم استصرخهم إلى حماية الوطن، وذكَّرهم بالذين نثروا جماجمهم على المناصل في سبيل الحفاظ.

والقصيدة جيدة جداً، ومن العجب أن يسكت عنها نقاد المعاني.

وللشريف قصائد طوال قصرها على هومو في المعالي، منها الميمية:
أرى نفسي تتوق إلى النجوم سأحملها على الخطر العظيم

وفيها يقول:

ولي أملٌ كصدر الرمح ماض ويمنعني المدام طروق همِّي وما أوفت على العشرين سني
سوى أن الليالي من خصومي فما يحظى بها إلا نديمي
وقد أوفى على الدنيا عزمي^(١)

وله فيها نفثات موجعات:

أرى الأيام عاديةً علينا بضلُّ نفوسنا داءً عُقَامٌ
يبيض من نوائها وشيم^(٢) فيسلمنا إلى أرض عقيم

(١) في الديوان (غريم) وهو تحريف، العزيم: مذكر العزيمة.

(٢) الشيم: جمع شياء، وهي السوداء.

وتُبَّع بالدموع وأيُّ دمع
ويُفردنا الزمان بسلا قريب
ونلقى قبل لقيان المنايا
ويجبر ولو أقام على الشُّجوم
يُذِمُّ من الزمان لاجمِيم^(١)
رماح الداء تطعن في الجسوم^(٢)

وفيها يقول:

ألا مَنْ مبلغ الأحياء أني
وأني قد أبيتُ مقامُ رحلي
وعن قُرب سيثغلني زماني
ومالي من لقاء الموت بدُّ
سألتمس العُلا إمَّا بعُرب
قطعتُ قرائن الزمن القديم؟
بوادي الرمث أو جبل الغميم
برعي الناس عن رعي القُروم^(٣)
فمالي لا أشدُّ له حزيمي^(٤)
يرؤون اللهاذم أو يرؤوم

وهذا كلامٌ نفيس جدًّا، وهو قويُّ الدلالة على خطر ما كان يصطرع في تلك النفس من آمال.

وله ميمية أخرى منها هذه الأبيات:

وما ابنُ غيل تُذيع الموتَ طلعتُهُ
يجلو دُجى شدقه عن صبح عاصلة
إذا تطَّعَ غَضبانًا من الأجسم^(٥)
مطرورة كسَّبا المطرورة الخذُم^(٦)

(١) يذم من أذم، إذا رفع أسباب الذم واللوم.

(٢) سنذكر في (بكاء الشباب) بالجزء الثاني أن الشريف كان يشكو علة خفية يكتمها عن الناس، وهذا البيت من شواهد ذلك.

(٣) القروم: الفحول، بمعناها الأصلي، والمعنى: أنه سيتقل من رعاية الإبل إلى رعاية الناس.

(٤) الحزيم على وزن أمير: هو الصدر.

(٥) الغيل: هو الشجر الكثير الملتف، وهو الأجمة.

(٦) العاصل والعصلة: السهم الشديد، والمراد التاب. والمطرورة: المحددة. والخذم: القاطعة.

يَوْمًا بِأَقْدَمِ مَنْي فِي مُلْمَلَمَةٍ“ شَعْوَاءَ تَعَزِّفُ بِالْعَقْبَانِ وَالرَّخْمِ

وله ثالثة جمع فيها بين الفخر والنسيب، فقال:

أَلَا خَبْرٌ عَنِ جَانِبِ الْغَوْرِ وَارِدٌ
وإني لأرجو خطوةً لو ذعيبةٌ
نداوي بها من زفرة الشوق أنفَسًا
وإني على ما يوجب الدهر للفتى
مقيمٌ بأطراف الثنايا صبابه
وأرقب خفّاق النسيم إذا حدا
بناتِ السرى هذا الذي كان قلبه
ومن كل وضّاح الحسام مشمرًا
إذا شهد الحربَ العوانَ تدافعتْ
وعفّ فرسان العدا ودمأؤهم
حدا فقدّه كلّ العيون إلى البكا
وما خطرث منه على المجد زلةٌ
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً
وهل تقذف البيداء رحلي إليكم
ولا بدّ أن ألقى العدا في حميلة

تَرَامِي بِهِ أَيْدِي الْمَطِيِّ الرَّوَاسِمِ
تُجِيبُ بِنَا دَاعِي الْعُلَا وَالْمَكَارِمِ
تَطْلُعُ مَا بَيْنَ اللَّهِى وَالْحِيَازِمِ
لَوْ سَامَهُ حَمَلُ الْأُمُورِ الْعِظَامِ
أَسْأَلُ عَنِ أَظْعَانِكُمْ كُلِّ قَادِمِ
مِنَ الْغَرْبِ أَعْنَاقَ الرِّيَاحِ الْهُوَاجِمِ
يَسُومُكَ أَنْ تَصَلِّيَ بِنَارِ الْعِزَائِمِ
إِذَا شَجِبْتَ فِينَا وَجُوهَ الْأَرَاقِمِ
صَدُورِ الْمَوَاضِي فِي الطَّلَى وَالْجُهَاجِمِ
جَوَامِدُ مَا بَيْنَ اللَّحَى وَالْعِمَائِمِ
فَقَطَّعَ أَرْسَانَ الدَّمُوعِ السَّوَاجِمِ
فَيَقْرَعُ فِي آثَارِهَا سِنَّ نَادِمِ
أَلَا طَمُّ أَعْنَاقِ الرُّبَا بِالْمُنَاسِمِ؟
تَنْفَسُ عَنِ لَيْلِي أَنْوْفِ الْمَخَارِمِ؟
مِنَ الْخَيْلِ تُولِي بِالْقَنَا وَالصُّورَامِ

والجمع بين الفخر والنسيب كثير في شعر الشريف، وهو شاهد على اشتباك النوازع في تلك الروح، فذلك قلب يجمع بين العنف واللفظ، والقسوة واللين، وهو قلبٌ عامر النواحي، فيه حنان الأطفال، وصيال الأبطال، ويرق فتحسبه نسيماً، ويقسو فتحسبه جحيماً، وانظروا كيف يقول وهو يجمع بين الفخر والنسيب:

يا دارُ ما طربتِ إليك النوقُ
 جاءتك ترح في الأزمة والبرى
 ونحنُّ ما جدَّ المسير كأنها
 دارٌ تملكها الفراق فرقتها
 شرقتُ بأدمعها المطيِّ كأنها
 الآن أقبل بي الوقار عن الصبا
 ولو أنتي لم أعطِ مجدي حقُّه
 رُمتُ المعالي فامتنعن ولم يزل
 وصبرت حتى نلتهنَّ ولم أقل
 ما كنت أول من جثا بقميصه
 كثرت أماني الرجال ولم تزل
 من كل جسم تقتضيه حفرةً

إلا وربُّعُك شائقٌ ومشوقٌ
 والزجرُ وردٌ والسَّياطُ عليق
 كلُّ البلاد محجَّرٌ وعقيق
 بالمخل من أسر الغمام طليق
 فيها حنين اليعمَّلات شهيق
 فغضضت طرفي والظباء تسروق
 أنكرت طعم العزِّ حين أذوق
 أبدًا يمانع عاشقًا معشوق
 ضجرًا دواء الفارك^(١) التخليق
 عبَّئُ الفخار وجيبه مخروق
 متوسعات والزمان يضيق
 فكأنَّه من طينها مخلوق

والقصيدة طويلة جدًا، ويكفي أن ننبه إلى بعض المحاسن فيما أنشدناه.

والشاعر في هذا النسب يجعل المطيِّ باكيات، والشعراء يتصورون المطيِّ باكيات، ولكنها في هذه المرة تبكي لبكاء الشاعر، فهي لا تحنُّ إلى الوطن الذي ستعود إليه، وإنما تبكي على الديار التي يفارقها صاحبها الأمين.

ويصور الشاعر ما يقع من النزاع بين العقل والهوى، فيقول:

الآن أقبل بي الوقار عن الصبا فغضضت طرفي والظباء تسروق

ثم ينصُّ على أن العزَّ لا طعم له إلا إن ناله الرجل عن طريق الكفاح، فيقول:

ولو أنتي لم أعطِ مجدي حقُّه أنكرت طعم العزِّ حين أذوق

(١) الفارك: المرأة تبغض الرجل.

ويرى المعالي معشوقات، فيقول:

رُمتُ المعالي فامتنعن ولم يزل أبداً يمانع عاشقاً معشوقُ

وقد صدق: فالعزائم كالقلوب لها صَبَوَات، والمعالي أحق بالعشق من الملاح، ويتأثر الخلق النبيل خُلُقُ الفتیان الذين يمتدحون بالقميص الممزق، فيقول:

ما كنت أول من جثا بقميصه عَبَقُ الفخار وجيئه مخروق

وعبق الفخار أشرف من عبق الطيب، وإن غضب الشبان الظرفاء.

والنصُّ على الخشونة والتشعث في شجعان الفتیان قديمٌ في الشعر العربي، فما ابتكره الشريف، ولكنَّ إلحاحه في توكيد هذا المعنى له دلالة قوية عند من يعقلون، وانظروا أيضًا كيف يقول:

وعدت يا دهر شيئاً بتُّ أرقبهُ وما أرى منك إلا وعد عرقوب
وحاجة أتقاضاها وتمطلني كأنَّها حاجة في نفس يعقوب
لأنعبن على البيداء زاحلةً والليلُ بالريح خفاق الجلابيب
في فتية هجروا الأوطان واصطنعوا أيدي المطايا بالإدلاج وتأويب
من كل أشعث ملثا اللثام له لحظُّ تكرُّره أجفانُ مذبوب
يوسد الرحلُ خدًا ما توسده قبل المطالب غيرُ الحُسن والطيب

وهو في هذه المرة يجعل جنوده شبانًا نشأوا في النعيم، ثم قهرهم حب المعالي على فراق النعيم، وهذا أبلغ في تصوير المجد.

ويصور قلق الفتى الصَّوَال، فيقول:

سئمتُ زمانسا تتحجني صروفهُ وُثوبُ الأفاعي أو ديبب العقارب
مُقامُ الفتى عجزٌ على ما يضيئهُ وذُلُّ الجريء القلب إحدى العجائب

سَأرْكِبُهَا بَرِّزْلَاءَ إِمَّا لِمَادِحِ
 إِذَا قَلَّ عَزْمُ الْمَرْءِ قَلَّ انْتِصَارُهُ
 وَمَا بَلَغَ الْمَرْمَى الْبَعِيدَ سِوَى امْرِئٍ
 وَمَا جَرَّ ذَلًّا مِثْلُ نَفْسٍ جَزُوعَةٍ
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَسَالَمَنِي النَّوَى
 إِلَى كَيْفِ أَذُودِ الْعَيْنِ أَنْ يَسْتَفْزَها
 حُصِدْتُ عَلَى أَنْي قَنَعْتُ فَكَيْفَ بِي
 وَمَا زَالَ لِلْإِنْسَانِ حَاسِدٌ نَعْمَةً
 وَأَبْقَتْ لِي الْأَيَّامُ حَزْمًا وَفِطْنَةً
 تَوَزَّعَ لِحْمِي فِي عَوَاجِمِ جَمَّةٍ

وفي هذه القصيدة يبدو الشريف هادئ النفس، ولكنه هدوء من يُزعجه الهدوء؛ وكيف يهدأ من يتصور الحوادث وهي تدب دبيب العقارب، أو تثب وثوب الأفاعي؟

وهو يرى مقام الفتى على الذل عجزاً قبيحاً، ويرى ذل القلب الجريء إحدى الأعاجيب، وانظروا الصورة الشعرية التي يمثلها الشطر الثاني من هذا البيت:

إِذَا قَلَّ عَزْمُ الْمَرْءِ قَلَّ انْتِصَارُهُ وَأَقْلَعَ عَنْهُ الضَّمِيمُ دَامِي الْمَخَالِبِ

هو يرى الذل من ثمار الجزع، ويرى خوف العواقب داء يقتل عزائم الرجال.

وهناك دالية نرى تنبيهكم إليها من أوجب الفروض، وهي مما جمع فيه بين الفخر والنسيب:

وأكثر هذا الناس ليس له عهدٌ؟
 وكلُّ صديق بين أضلعه حقدٌ؟
 وصالٌ ولا يُلهيه عن خَلِّه وعد
 وأين العلا إن لم يساعدي الجَدُّ؟
 وسابغةٌ زعفٌ وذو مِئعة تَهْدُ
 ويالي من دمع قريح به الخد
 وما بين أضلاعي لها أسدٌ وزُدُّ
 إساژٌ وحلاه عن الطلب القَدُّ
 فللضارب الماضي بقائمه الحدُّ
 طواعن لا يعنيه السحس والسعدُ
 وإن نُدبوا يوماً إلى غارة جَدُّوا
 بضاجعني فيها المهند والغمد
 تطالعني فيها المغاوير الجُرد
 ترامى بنا في صدرها الغُور والوهد
 عليها غلامٌ لا يمارسه الوجد
 تشابَهة في ظلماته الشَّيب والمُرد
 وتلقى بي الأعداء أحصنة جُرد
 كأنَّ دم الأعداء في فمه شهد
 ويطعن حتى ما لذابله جهدُ

لأي حبيب يَحْسُنُ الرأي والسودُّ
 أكلٌ قريب لي بعيدٌ بسودُّه
 والله قلبٌ لا يُئِلُّ غليله
 يكلفني أن أطلب العز بالمنى
 أحنُّ وما أهواه رمحٌ وصارمٌ
 فيالي من قلب معنى به الحشا
 أريد من الأيام كل عزيمة
 وليس فتى من عاق عن حمل سيفه
 وإذا كان لا يمضي الحسام بنفسه
 وما العيش إلا أن تصاحب فتية
 إذا طربوا يوماً إلى العز شمروا
 وكم لي في يوم الثوية رقدة
 ولو شاء رمحي سدَّ كل ثنية
 نصلنا على الأكور من عجز ليلة
 طردنا إليها خُفَّ كل نجبية
 ودُسنا بأيدي العيس ليلاً كأننا
 ألا ليت شعري هل تبلَّغني المنى
 يعيد عليه الطعن كل ابن همة
 يضارب حتى ما لصارمه قُوى

(١) الزعف: هي الدروع الواسعة المحكمة.

(٢) حلاه مخفف من حلاه بمعنى: منعه. والقَدُّ: القيد.

(٣) طواعن: جمع طاعن، وجمع فاعل على فواعل للعاقل قليل، ولكن له شواهد كثيرة في شعر الشريف.

(٤) الصارم: السيف. والذابل: الرمح.

إِذَا عَرِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ سَيْفِهِ مِضَاءً عَلَى الْأَعْدَاءِ أَنْكَرَهُ الْجَدُّ

القصيدة طويلة، وفي هذه النثبات كفاية.

والشاعر يذكر أن قلبه يكلفه طلب العز بالأمانى، ثم يثور على هذا المطلب؛ لأنه يعرف أن المعالي لا تتأل بالأمانى، وإنما تُنال بالجهاد.

ويرى أن الحسام إن لم يَمْضِ بنفسه فليس له حَدٌّ، وإنما الحدُّ للضارب الماضي، وهذا معنى نفيس.

وإليك بيت القصيد:

إِذَا عَرِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ سَيْفِهِ مِضَاءً عَلَى الْأَعْدَاءِ أَنْكَرَهُ الْجَدُّ

وانظروا روعة الفخر في هذه الأبيات:

شبابي إن تكن أحسنت يوماً
فقد ظلّم المشيبُ وقد أساء
وبما معطي النعيم بلا حساب
أتاني من يقترّ لي العطاء
متاعٌ أسلفتناه الليالي
وأعجلتنا فأسرعنا الأداء
سأمضي للتسي لا عيب فيها
وإن لم أستفد إلا عنساء
وأطلب غايةً إن طوححت بي
أصابت بي الحسام أو العلاء
أنا ابن السابقين إلى المعالي
إذا ركبوا تضايقت الفيافي
نماني من أباة الضميم نام
عطلّ بعضُ جمعهم الفضاء
شأونا الناس أخلاقاً لِدانا
أفاض عليّ تلك الكبرياء
ونحن النازلون بكل ثغر
وأيماننا رطاباً واعستلاء
ونحن الخائضون لكل هول
نُريق على جوانبه الدماء
وإذا دبّ الجبان به الضراء

ونحن اللابسون لكل مجد
أقمننا بالتجارب كلَّ أمر
إذا شئنا أدرأعنا وارْتداء
أبى إلا اعوجاجًا والتواء
كعرض الليل يتبع اللواء
إلى أن نُورد الأسَل الظَّماء^(١)
نُطيل به صدى الجُرد المذاكي

أقف عند هذا الحد، أيها السادة، فما يتسع وقتي للنصّ على جميع المواطنين التي تحدّث فيها الشريف عن العُلا والمعالي، وهي محفوظة في مذكراتي، وأنا أضنُّ بها على تلاميذي؛ لأنني أحب لتلاميذي أن يرجعوا بأنفسهم إلى ديوان الشريف، وأن يرفعوا ما أقام أستاذهم من قواعد البناء.

أحبُّ أن يرجع تلاميذي، فيفتشوا على ما أغفلت من القصائد، أحبُّ لهم أن يطيلوا صحبة هذا الروح المتوقد الذي أقام الشرائع لعزائم الفتیان.

وأنتهز هذه الفرصة، أيها السادة، فأعتب على القدماء من مؤرخي الأدب العربي، فقد رأيت أن هذا الشاعر لم يفتنهم إلا بقصائد الحجازيات.

ولو أن الله كان هداهم فالتفتوا إلى أشعاره في المعالي، كما التفت أبو تمام إلى أشعار العرب في المعالي؛ لأخرجوا من ديوان الشريف مجموعة نفيسة تنفع أجزل النفع في توجيه الشبان إلى التخلق بأخلاق الأبطال.

واسمحوا لي أيها السادة أن ابتكر عبارة جديدة هي عبارة (معالي الشريف)؛ فهي عندي أفحل، وأصدق من (حجازيات الشريف)، وهي أعظم من (زهديات أبي العتاهية)، و(تشبيهات ابن المعتز)، و(مدائح البحري)، و(خمريات أبي نواس)، إنَّ (معالي الشريف) قصائد مقدودة من الفُتوة، وَمَنحوتةٌ من العزيمة، والنظرُ فيها يعود على الروح بأقباس الفحولة، والبطولة، ويُدخل على الدم جبروت النار والحديد.

(١) المذاكي من الخليل: التي أتى عليها بعد قروحها سنة، أو ستان.

الشريّف كاتباً ومؤلفاً

١- في الرابع عشر من صفر سنة ١٣٥٧ فرغت من كتاب "عبقريّة الشريّف الرضي" وأنا اليوم في اليوم السابع والعشرين من المحرم سنة ١٣٥٩، وقد لا أفرغ من هذه الحواشي إلا في الرابع عشر من صفر؛ لأنّي مؤزّع الوقت والجهد بين أسفار وشواغل لا تمنحني من هدوء البال ما أريد.

فأين كنت من صُحبة الشريّف قبل فراق عامين؟

كنت أنهيت القول في حياته الشعرية، ولم يبق إلا أن أتحدث عن مكانته في الكتابة والتأليف، فما الذي جدّ بعد ذلك الفراق؟

ظهرت فصول عن الشريّف الرضي في مجلة "الغري" كتبها سماحة السيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء، وهو من أكابر أهل العلم بالنجف، ولكن تلك الفصول لم تحملني على أن أرجع إلى كتابي بشيء من التغيير أو التعديل؛ لأنّ طريقتي في البحث تختلف عن طريقتة كلّ الاختلاف، ولأنّي أحرص دائماً على تجنّب الطريق المسلوك عساني أوفق إلى رأي طريف.

٢- والآن أرجع إلى الشريّف الكاتب والمؤلف بعد أن استجمعت عامين، فأقول:

لم يصح عندي أن الشريّف كان من كتاب الرسائل القصار أو الطوال، وإن كنت احتفظت بالآثار التي نقلتها مجلة "العرفان" عن كتاب "الدرجات الرفيعة، في أعيان الشيعة" للسيد علي خان الشيرازي^(١).

وتعليل ذلك سهل فالشريّف غلبت عليه النزعة الشعرية في كل ما يتصل

(١) قيل: إن المراسلات بينه وبين الصابي بلغت ثلاثة مجلدات، ولكننا لا نعرف مكان تلك الرسائل حتى نحكم له أو عليه.

بنقد المجتمع أو الإفصاح عن الوجدان.

والثروة التي أثمرت عنه في التأليف لا تنفي ما أقول؛ لأن تأليف الكتب غير إنشاء الرسائل، فالمؤلف يتخذ أسلوباً في التعبير يغير أسلوب النثر الفني، قد يبعد عنه أشدَّ البعد في كثير من الأحيان.

الشريف كاتب بلا جدال، ولكن طريفته في التعبير طريقة علمية لا فنيّة، وإن غلبت عليها الصنعة في بعض الأحوال.

والمهمُّ هو النصُّ على أن الشريف شاعر أولاً وقبل كل شيء، فحياته الشعرية هي ثروته الباقية على الزمان، وإن كان من أعظم الباحثين في الحدود التي تسمح لرجل مثله بأن يكون من أقطاب الحياة الفكرية العلمية في عصر "إخوان الصفا".

ومعاذ الأدب أن أستخفَّ بآثار الشريف في ميادين والفكر العقل؛ فقد بلغ الغاية في كتاب "المجازات النبوية"، وكتاب "حقائق التأويل"، ولو كان الشريف غير شاعر لاستطاع أن يزاحم أمثال العلماء، ولكن عبقريته الشعرية جنت عليه، فخفَّ ميزانه في الحياة العلمية بالقياس إلى بعض معاصريه ومنهم أخوه الذي أتى بالأعاجيب في الفقه والتوحيد.

ولو أن الرضي وقف عند آثاره العلمية لكان له مكان بين أقطاب المؤلفين لكنه شغل الناس بشعره الفائق، فظنوه وسطاً بين الباحثين، وهو عند التأمل من أساطين الفكر المنظم الدقيق.

٣- وهنا تسنح الفرصة لتسجيل خصيصة من خصائص الشريف:

فأشعاره لا تشهد بأنه من المشتغلين بالعلوم اللغوية والشعرية؛ لأنها في الأغلب خالية من السّمات الاصطلاحية؛ لأنها أدبٌ صرف لا يعرف البهرج والتزويق إلا في الحدود المقبولة من الصنعة الشعرية، و لو قيل: إن الشريف

شاعر بدويٌّ ينطق بالفطرة والسليقة، وإنه أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب لجاز ذلك في أذهان من يجهلون مكانته في التاريخ.

الشريف شاعرٌ بدويٌّ منقطعٌ عن الحياة العلمية أشد الانقطاع وهو في هذه الناحية ظاهر كل الظهور بحيث يُظنُّ أنه لم يعرف من حياة العلم ما عرف بشارٌ، وأبو نواس، وابن الرومي، والمتنبي.

والشريفُ في شعره بعيدٌ كل البعد من أساليب العلماء من نحاة ولغويين وفقهاء، وهو شاعرٌ بدويٌّ لا تظهر عليه سيما الحضارة إلا في ترف العقل والذوق، وهو في شعره أقلُّ حضارةً من عمر بن أبي ربيعة، ومن الكميت، ومن جميل مع أنه نشأ في بغداد وعرف المترفين أهل فارس وأهل العراق.

والشريف في شعره نموذج للسليقة البدوية التي لم تعرف من الحضارة غير أطياف، ولم تسمع بقعقة النحاة واللغويين في بغداد.

٤- فإذا انتقلنا إلى نثر الشريف رأينا شخصية جديدة، رأينا عالماً يشهد نثره العلمي بأنه من أقطاب الأدباء، رأينا رجلاً يكتب في العلوم اللغوية والشعرية بأسلوب مضمَّن بعطر الأدب الرفيع.

وكذلك نعرف أن للشريف شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف: شخصية الشاعر المطبوع، وشخصية العالم الأديب.

فكيف اتفق لصديقنا الشريف أن يكون كذلك؟!!

أغلبُ الظن أن الرجل كان يعمد إلى الابتكار والابتداع؛ كان يرى شعراء عصره قد غلبت عليهم المظاهر الحضرية، فأثر التفرد بالسائل البدوية، فهو في الشعر بدويٌّ وهو في العلم أديب. وتلك خصيصةٌ نادرة في ذلك الزمان.

تظهر هذه الخصيصة إذا وازناً بينه وبين أخيه، وقد نشأ في بيت واحد،

وتلقيا العلم في الحداثة على رجل واحد هو الشيخ المفيد، فأخوه المرتضى يكتب كما يكتب العلماء، ويشعر كما يشعر العلماء، ونفسيته نفسية عالم لا نفسية أديب، حتى قيل: إن المرتضى كان يحرص على منافع دنياه حرص الفقهاء، أما الرضي فكان رجلاً سمحاً يجود بما يملك، ويرى الكرامة أثنى ما يحفظ الأحرار من ذخائر الوجود.

٥- شخصية الشريف شخصية معقدة عند من يجهل، ولكنها في غاية من البساطة والوضوح عند من يعرف، هو رجل يحب التفرد بكرائم المعاني، فهو يشتهي أن يكون شاعراً لا كالشعراء، وأن يكون عالماً لا كالعلماء، وقد وصل إلى ما يريد.

ولو اتسع المجال لدرس خصائص الشريف لوصلنا إلى طرائف؛ فأنا أعتقد أن لغة الشريف في شعره تجمع النواذر من الألفاظ البدوية، وأن لغة الشريف في نثره تجمع الأطايب من المصطلحات العلمية.

ومن المحتمل أن لا تكون حياة العلم عرفت باحثاً أمضى قلباً من الشريف قبل ذلك العهد، وقد قوي عندي الظن بأنه مهّد السبيل لعبد القاهر الجرجاني، فعبد القاهر عندي تلميذ الشريف في الميادين البيانية، وليس كتاب "دلائل الإعجاز" إلا خطوة ثانية بعد كتاب "المجازات النبوية"، وإن كان الجرجاني أقدر من الرضي على الإفاضة والاستقصاء.

٦- قد أقول: إن البويطي في "الأم" هو أول عالم شرح دقائق الفقه بأسلوب أدبي، وإن سيويه في "الكتاب" هو أول نحوي شرح تكوين الجمل بعبارة أدبية، ولكنني مع ذلك مقهورٌ على الاعتراف بأن الشريف تفرد من بين سائر الباحثين بأسلوب يجمع بين الرقة والجزالة في شرح أغراض القرآن والحديث.

فكيف اتفق ذلك للشريف؟.

أعتقد أن مرجع ذلك إلى أخلاقه الشخصية:

فالشريف كان رجلاً صريحاً في جميع ما يتناول من الشؤون، وأظهر صفة من صفات الشريف هي بغض النفاق، ألم يتخذ الحج موسم صيد وهو نائب عن خليفة المسلمين؟.

كان الشريف يرى أن التعبير الصريح عن أوطار القلوب لا يقع إلا من أشراف الرجال، وبهذا الرأي صح له أن يعبر عن أحلام هواه بقصائده خالية من شوائب الزور والرياء.

وقد انساق هذا الطبع السَّمح إلى حياته العملية، فعبر عن أغراضه في اللغة والفقه والتوحيد بعبارات هي أسلس وأرشق من تبخر الجدول الرِّقراق.

٧- وهنالك خصيصة ظاهرة من خصائص الشريف، هي اندماجه اندماجاً كلياً في الجو الذي يعيش فيه؛ فهو في الشعر يخيل إليك أنه لا يخلق في غير الأجواء الشعرية، ويكاد من يطلع على ديوانه يؤمن إيماناً جازماً بأنه لم يعرف التعبير عن أغراضه بغير القوافي، ومثله في ذلك مثل ابن الرومي، وقد قيل: إن الشعر كان أقل أدواته، وهو قول لا نصدقه إلا بعناء؛ لأن شاعرية ابن الرومي أدت إلينا محصولاً يمنع من الاطمئنان إلى أنه كان يعبر عن أغراضه بغير القوافي، وقد قرأنا مرة أن البحري كان من المؤلفين فلم نصدق؛ لأن البحري فيما نرى لا تجود فطرته بغير الغناء.

وقد اتفق لأبي تمام أن يكون مؤلفاً، ولكن كيف؟ غلب عليه التصنيف في اختيار الأشعار، وهي فن ينساق مع ذوق الشاعر كل الانساق.

٨- يمكن للشاعر أن يكون مؤلفاً، كما يمكن للمؤلف أن يكون شاعراً، ولكن الذي وقع للشريف عجب من العجب، فمؤلفاته تشهد بأنه أديب،

ولكنها توهمك أنه لم يكن شاعراً تُعَدُّ جياذ أبياته بالألوف.
ما الذي نراه حين نقرأ مؤلفات الشريف؟.

نجد رجلاً يُجِيل على مباحثه الماضية بأسلوب يُشعرنا بأنه قضى دهره وهو مشغول بالتأليف، نجد رجلاً يحدِّثنا أن مؤلفاته بلغت العشرات في موضوعات مختلفات، وتشهد قوةً تعبيره، وغزارةً علمه بأن (المؤلف) هو الشخصية الأصيلة التي تحتل صدر ذلك الباحث الجليل.

ومؤلفات الشريف تقنعنا بأنه لم يعرف غير الحياة العلمية، ولم يُعانِ شواغل السياسة والشعر والحب، ولو أن ديوان الشريف كان ضاع وبقيت مؤلفاته لما صدَّق أحدٌ أنه كان من أعلام الشعراء، فضلاً عن التصديق بأنه أشعر قريش.

٩- يضاف إلى ذلك أن الشريف المؤلف كان واسع الأفق؛ فهو يكتب في الفقه والتوحيد والنحو والبيان، وله إشارات إلى مؤلفات الأكابر تدل على أنه من المطلعين على ذخائر العلوم الأدبية والشرعية، وله توجيهات لكلام من سبقوه، توجيهات تشهد بأنه تناول حياة التأليف بالنقد والتمحيص والتهذيب، والشريف العالم شخصية هائلة جدًّا، وهي تنسيك مواهبه الأدبية والسياسية والوجدانية، وتفرض عليك الإيمان بأنه لم يُجد غير ذلك الفن من فنون التفكير الحصيف.

فكيف اتفق له ذلك؟

لا تنس أنه كان إمامًا من أئمة الدين، وأن شهرته بالشعر والحب كانت تورِّقه من وقت إلى وقت؛ لأنها كانت دعامة يعتمد عليها أعداؤه في الغض من مكانته الدينية، مساهم يهونون من شأنه فيُقصونه عن مناصب الشريف باسم الدين.

فهل نستطيع أن نقول: إن الشريف كان يتعمد الكتابة في الشئون اللغوية والعلمية؛ ليصد عن مجده الأدبي والسياسي عدوان خصامه ومنافسيه.

لذلك شواهد في العصر الحديث، فقد كان شاع أن الشيخ محمد عبده رجلٌ أدبٍ لا يصل ذهنه إلى قرارة العلوم الأزهرية، فحمله ذلك على الدفاع عن سمته العلمية، فألّف في شئون دقيقة لا يحسنها إلا الأزهريون المتفوقون.

١٠- لم يبق عندي شكٌ في أن الشريف كان يفهم جيداً أنه مُعَرَّضٌ للكاذب والأراجيف؛ بسبب إيغاله في شعاب الصباية والوجد، وبسبب حيرته في بيداء الحياة السياسية، فلم يكن له بدٌّ من تمزيق الحبال التي ينصبها أعداؤه وحاسدوه، وكذلك أقبل على التأليف بعزائم الفحول؛ ليقيم الأدلة والبراهين على أنه أهلٌ للتشريف باسم العلم والدين، فما الذي وصل إليه؟

ما زال الرجل يُبدئ ويعيد، حتى أتى بالغرائب والعجائب في ميادين الفكر والعقل، وحتى صحَّ القول بأنه تفرّد بآراء لم يهتدِ إلى مثلها الأسلاف.

١١- وهنا تظهر خصيصة جديدة من خصائص الشريف، هي خصيصة العالم المزوّد بأدوات الأدب، والأدب هو ديوان العرب، وهو التعبير الصادق عن ذوقهم الأصيل.

ولو بقيت آثار الشريف لجاز القول بأنه طرازٌ فريد بين أقطاب المؤلفين، ولكانت له منزلة تعزُّ على من رامها وتطول.

على أن الآثار الباقية لهذا الباحث المبتكر لم تُحْيَبْ ظنون محبيه، فهي تدلُّ على القيمة الأصيلة لمواهبه العقلية، وهي تُعرب عن قدرته على التصرف في علوم القدماء.

١٢- وليست أولئك الخصائص هي كل ميزات الشريف المؤلف، فهناك

خصيصةً أعظم وأروع، وهي طغيان العقلية العلمية على النزعة المذهبية.

كان الشريف شيعياً، والشيعه فيما يظهر كانت لهم آراء خاصة في فهم أغراض القرآن والحديث، والشريف نفسه لم يحفظ القرآن إلا في سن الثلاثين مع أنه نشأ في بيت من بيوتات الدين، وتلك ظاهرة قد تُوهم أن حفظ القرآن لم يكن عند جماعته فرضاً على المشتغلين بالشئون الدينية، ومن أجل ذلك كثرت القالة حول أولئك القوم، واحتاجوا إلى الدفاع عن أنفسهم من هذا الجانب الدقيق.

و حين زرت السيد آل كاشف الغطاء بالنجم رأيت أمامه نسخة من المصحف الشريف، فحدّثني في وجهي وقال: اشهد أنك رأيت المصحف في يدي وقد زرتني على غير ميعاد!

وإنما احتاج الرجل هذه العبارة؛ لأن في الشيعة فرقة لا تهتم كثيراً بالمصحف الشريف، وهي فرقة لا يرضى عنها جمهور الشيعة في العراق.

والمهم هو النصُّ على أن الشريف كان شيعياً سليماً، أعني أنه كان مسلماً صحيح العقيدة، والتشيع في جوهره لا ينافي الدين إلا حين يُوكَل أمره إلى الجهلاء من أهل الانحراف.

ولا يحتاج الشريف إلى من يشهد له بصحة الدين، وهو من عظماء المؤمنين، وإنما انساق القول إلى فضل هذا الرجل في حماية البيئات الشيعية من ضلالات الذين كفروا باسم التشيع، وهو فضل عظيم.

مثل الشريف بين أهل التشيع كمثل الجاحظ بين أهل الاعتزال، فالجاحظ لا يدرك مراميه غير الخواص، وكذلك الشريف لا يدرك مراميه غير الخواص.

وأقول: إن اهتمام الشريف بشرح خصائص البلاغة القرآنية والبلاغة النبوية هو دحض للمفتريات التي وُجّهت إلى التشيع والتي ادّعت أن الشيعة

لا يهتمون بالقرآن والحديث.

ومن هنا نفهم أن الشريف المؤلّف كان معلّمًا عظيمًا، وكان من الساهرين على رعاية الوحدة الإسلامية، وهو بالتكريم خليق.

النّفحات السارية في مؤلفات الشريف هي أنفاس المؤمن الحق، المؤمن الخالص من شوائب الابتداع والتجديف^(١).

١٣- يؤيد هذا ما أثير عن الشريف من الاهتمام بدرس مذهب الشافعيّ وهو مذهبٌ سُنيٌّ أصيل، ولا يقال: إن مرجع ذلك إلى عدوثة لسان الشافعيّ فيما يتصل بأهل البيت، لأن تعظيم أهل البيت مما يرعاه السنيون كما يراعون كرامة سائر أهل العلم والدين.

وإمارة الحج التي وُكّلت إلى الشريف وإلى أبيه من قبل تشهد بأن التشيع لم يكن يُنظر إليه بعين الغضب والمقت، فقد كان مذهب أهل السنة هو السائد يومئذ في العراق، ولم يكن السنيون يرون ما يمنع من أن تكون إمارة الحج لرجل شيعيّ في مثل فضل الشريف.

فما معنى ذلك؟

معناه أن الغلو في التحاقد بين المذاهب الإسلامية لم يكن يقع إلا من أهل الغفلة والحمق، أما أهل اليقظة والعقل فكانوا يعرفون أن الاختلاف في الفروع لا يضير مع الاتفاق في الأصول، وكذلك اشترك عقلاء السنة والشيعية في الالتفاف حول راية القرآن والحديث، ولن تمر أعوام طوال قبل أن تسود

(١) في كتاب (التصوف الإسلاميّ) تفاصيل وافية عن أصل فكرة التشيع وعمّا عرض لها في ميادين الأدب الأخلاق، وعن صلتها بالسياسة الإسلامية، وكذلك تحدّثنا عنها بالتفصيل في كتاب (المدائح النبوية) فليرجع القارئ إلى هذين الكتابين إن كان يهمه الاستقصاء.

الألفة بين سائر المذاهب الإسلامية، ويحلُّ الوفاق مكان الشقاق.

١٤- ومهما يكن من شيء، فالخلاف بين السنة الشيعة هو جزء من ماضينا، وهو خلاف كان له فضلٌ عظيم في يقظة العقول والآراء، فواجبنا اليوم هو الدعوة إلى التآخي الصحيح بحيث يمكن نسيان ما وقع في ماضينا من صراع ونضال.

والعبرة من هذا الكلام: هي إبراز شهامة الشريف، الشريف الشيعي الذي عاش في عصور لا تخلو من ظلمات، واستطاع مع ذلك أن يكون مثلاً في السباحة والمذهبية، وأن يظفر بعطف من ترجموا له من أهل السنة، وأهل السنة رجالٌ ينصبون الموازين لأقدار الرجال.

١٥- وهنا ملاحظة تستحق التسجيل.

لما دخلت العراق وجدت قومًا من أهل العلم يحقدون عليَّ أشنع الحقد؛ بسبب كتاب (الأخلاق عند الغزالي)، ثم هالني أن أعرف أن السيد هبة الدين الشهرستاني من أولئك الحاقدين وهو شيعيٌّ لا سنيٌّ، فكيف يتعصب للغزالي وهو خصمه في المذهب؟.

تعصّب الشهرستاني للغزالي لمعنى نبيل هو الغضب للنيل من إمام جليل مثل الغزالي، وكذلك تكون شمائل العلماء.

ورأيت هناك باحثًا يعطف عليَّ لاهتمامي بدرس أشعار الشريف وهو الأستاذ عباس العزاوي فقدّرت أنه شيعيٌّ، ثمّ عرفت أخيرًا أنّه سنيٌّ، وكذلك يكون الصدق في فهم المعاني.

ورأيت الأستاذ طه الراوي يحفظ ديوان الشريف عن ظهر قلب فحسبت ذلك برًّا بالعصية المذهبية، ثم عرفت أنّه سنيٌّ لا شيعيٌّ، وطه الراوي من أعيان الفضل والعلم والذوق في بغداد.

صديقنا الشريف هو الذي سنَّ شريعة التسامح بين المذاهب والآراء، وفضله على الشيعة عظيم؛ لأنه خلق لهم صداقات في البيئات السنيّة، وحفظ لهم مكانة عالية في العراق بفضل جهاده في الأدب والدين.

ونحن في مصر لا نحسُّ الخلافات المذهبية، ويؤذينا أن نعرف أن إخواننا في الدين يثور بينهم الخلاف من حين إلى حين، فهل أرجو التقرب إلى الله بتهوين شأن تلك الخلافات!، وهل أستطيع الترحم على الشريف؛ لأنه منحني الفرصة لهذه الكلمات التي أردت بها التقريب بين القلوب.

الله يشهد أنني أكتب هذا وأنا متوجع، فما يرضيني أن يقال: إن في المسلمين أقوامًا يخاف بعضهم بأس بعض.

الخلاف جميل على شرط أن لا يصل إلى القلوب.

الخلاف نعمة ربانية إذا وقف عند اصطراع العقول، فإن جاوز ذلك فهو رجسٌ من عمل الشيطان.

الشقاقات المذهبية لم يعرفها الشرق والغرب إلا في عصور الظلمات، ونحن في عصر النور، فإن لم يكن بدٌّ من الخلاف فلنختلف في أساليب الخلاص من أقباص الظلم والاضطهاد، والقراء يعرفون ما أعني ومن أعني.

يرحم الله الشريف، فقد داس الشهوات المذهبية بقدميه، فظفر بالإعزاز والتبجيل من الجميع ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

١٦- أيراني القارئ حددت خصائص الشريف كاتبًا ومؤلفًا؟

لقد وضعت الأساس لمن يهّمه أن يستقصي أحوال الشريف في الكتابة والتأليف، ولم يبق إلا أن أقدم بعض الشواهد التي تعين مذاهبه في التعبير، فما هي تلك المذاهب؟.

أنا أعتمد في تحديد مذاهبه الإنشائية على كتابين اثنين: المجازات النبوية، وحقائق التأويل.

أمّا كتاب المجازات النبوية فقد طُبِعَ أولاً في بغداد طبعاً ممسوخاً تأذى به روح المؤلف، ثم طُبِعَ أخيراً في القاهرة بعناية الأستاذ محمود مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية، وقد تأنقت مكتبة مصطفى الحلبي بإخراجه في حُلَّة رقيقة الحواشي.

وأمّا كتاب "حقائق التأويل" فقد طُبِعَ بالنجف، وأخرجه (متدى النشر) في رونق جميل.

١٧- ما هي تلك المذاهب الإنشائية؟

نلمح أولاً: أنّ الشريف الكاتب قصير النفس، فهو لا يُطنب إلا في قليل من الأحيان.

ونلاحظ ثانياً: أن الشريف الكاتب قليل الفضول فهو لا يتكلم إلا بميزان.

ونرى ثالثاً: أن الشريف المؤلف قليل الاستطراد، وهذا يشهد بأن النزعة الفنية أغلب من النزعة العلمية؛ لأن العلماء الذين سبقوه كانوا يتخذون الاستطراد وسيلة إلى عرض ما تقضي به المناسبة من المعارف الأدبية واللغوية والشرعية.

ونشهد رابعاً: إن الحرفيات قد تسيطر عليه، فقد همّه أن يسجل أن قول الرسول في أحد: «هذا جبلٌ يُجَبُّ ونُجَبُه» محمولٌ على المجاز؛ لأن الجبل على الحقيقة لا يُجَبُّ ولا يُجَب.

وهذا خطأ من الشريف ساقه إليه خضوعه للحرفيات في بعض الأحوال،

فالرسول في رأبي أراد الحقيقة لا المجاز، وسرُّ ذلك لا يدركه غير من يطمئن إلى فكرة "وحدة الوجود".

ونسجّل خامسًا: أن الشريف يحرص بعض الحرص على السجع والازدواج، ولذلك شواهد ماثورة في المجازات النبوية وحقائق التأويل يدركها المطالع بدون عناء.

ونقرر سادسًا: أنه قد ينسى الزخرف نسيانًا تامًّا في بعض المواضع، فيصبح أسلوبه، وهو مثل أعلى في سماحة التعبير، كأن يقول في تلخيص ما قاله علي بن عيسى النحوي في أحوال كان:

"قال لي في القراءة عليه: إن لـ (كان) أربعة مواضع:

أحدها: أن تكون مستقلة بالفاعل غير مفتقرة إلى الخبر، نحو: كان الأمر، أي حدث ووقع.

والثاني: أن تكون ممنوعة من الحدث مفتقرة إلى الخبر، نحو: كان زيدٌ منطلقًا ويكون عمروً شاخصًا.

والثالث: أن تكون زائدة، مثل قولهم: زيدٌ - كان - منطلقًا، وما - كان - أحسنَ زيدًا، أي: ما أحسنَ زيدًا، كقول الشاعر: "وجيران لنا كانوا كرام" إذا لم تجعل (لنا) الخبر وجعلته صفة جيران كأنك قلت: "وجيران لنا كرام كانوا".

والرابع: أن تكون كصار، تقول: كان زيدٌ منطلقًا، أي صارت حاله هذه؛ تريد هو الآن كذا لا فيما مضى، وأنشد قول الشاعر:

بفبفاء فقر والمطيُّ كأنها قَطَا الحزن قد كانت فراخًا بيوضها

يريد صارت فراخًا. قلت أنا: والصحيح في رواية هذا البيت (قد صارت فراخًا بيوضها) وإنما غير ليوافق الاستشهاد، فلأجل ذلك ضعف هذا القسم

من بين أقسام كان^(١).

فهذا كلامٌ تقريرِي يقوم على أساس الدقة والجلالة، ثم ختمه بلفتة نقدية تؤرخ عبث النحاة برواية الشعر ليوافق الاستشهاد!

وهذه اللمحة تبيح لنا أن نسجل -سابعاً- أن الشريف في مؤلفاته كثير الاهتمام بشرح الدقائق النحوية، والنحو كان في تلك العهود ميداناً لسباق القرائح الجياد.

١٨- أما بعدُ، فتلك حال الشريف الكاتب والمؤلف، وهي تجلوه في صورة تُضيف إلى حياته الشعرية ألواناً من الظلال، وهي تؤكد ما قلناه من أنه شاعرٌ مثقف يرى الوجود في ظواهره وخوافيه بعين الناقد البصير الذي لا يشغله التأمل في جمال الوجود عن النظر في فهم الرجال لحقائق الوجود.

الشريف عجيب حقاً، فهو تارةً يحدِّثك بأنه كان يقرأ على شيخه فلان بابَ كذا من أبواب النحو، وأن شيخه قال له: كَيْتَ وكَيْتَ، وتارةً يحدِّثك بأنه كان يقرأ على شيخه فلان بابَ كذا من أبواب الفقه، وأن شيخه قال له: زَيْتَ وزَيْتَ، وحيناً يذكر أنه اختلف مع بعض أشياخه في فهم آية أو حديث، وأنه اعترض بكَيْتَ فأجيب بزَيْتَ، وأحياناً يتحدث عن مصاولاته مع اللغويين وما نقل عنهم من توجيه كلام الأعراب، وفي هذا الجو المُشْبِعُ بأقباس المجادلات النحوية والفقهية والأدبية واللغوية لا ترى الشريف إلا شيخاً يجادل أهل العلم والأدب والدين في مساجد بغداد وهو في زيِّ المجاورين الذين شرفهم الله بالإنقطاع إلى البحث والتقيب في مخلفات القدماء.

ثم تلتفت فسمع أنه كان فارساً لا يُشَقُّ له غبار، ثم تنظر فتعرف أنه كان من أقطاب السياسة ومن أهل البصر بتدبير المكاييد في ظلام الليل.

(١) انظر حقائق التأويل ص ٢٢١، ٢٢٢.

ثم يصل إلى علمك أنه كان عاشقًا يحسُّ الجمال بأروع مما أحسَّ عُمر وكثيرٌ وجميل، ثم تسمع أنه صال وجال في أشهر الأقطار الإسلامية بالشرق.

ثم تعلم أنه كان مدير مدرسة، وأنه مع ذلك تعقب أخبار الماجنين والعاثين، ثم تعرف أنه كان رَبَّ بيت وله أهلٌ وأبناء.

فما معنى هذا التعقيد الغريب؟.

معناه أن الشريف الرضيَّ كل منوع المواهب، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، فلا يَعْجَب الكسالى المتزمتون من ظفّره بحسن السمعة في جميع ما اخترق من الميادين، ولا يستكثروا عليه أن يكون من أفاضل المؤلفين، وأكابر المرين، وأشاوس الفرسان، وأماجد العُشاق، وأمائل العارفين الواصلين، ولو عُرف قبره على التحقيق لكان مثابةً لطلاب الخيرات والبركات، رحمه الله وطيب مثواه، وجعلنا من أصدقائه الأوفياء!!

نهج البلاغة والشريف

١- خلف الشريف فيما خلف كتابًا نفيسًا هو "نهج البلاغة" وهو مجموعة كبيرة من الخطب والرسائل والوصايا والحكم والمواعظ المنسوبة إلى أمير المؤمنين^(١).

وما أحب أن أعيد ما قلته عن أمير المؤمنين في كتاب "المدائح النبوية"، ولا ما قلته عن نهج البلاغة في كتاب "الثر الفني"، أو كتاب "وحي بغداد".

وإنما يهمني أن أنشئ فصلًا جديدًا عن نهج البلاغة أحدد به موقع ذلك الكتاب من الأدب العربي، وأكمل به المباحث التي عرضت لها من قبل، وأنا بعيد كل البعد من التحيز لذلك الكتاب، أو التحامل عليه.

٢- لقد ثارت الشكوك حول نسبة محصول نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين، وهذه الشكوك مما يشرف ماضيها؛ لأنها فرعٌ من التحقيق العلمي الذي تفوق فيه أسلافنا أشد التفوق، وما يجوز القول بأن تلك الشكوك قامت جميعًا على أساس النزعات المذهبية، فقد كان في أسلافنا رجالٌ لا يهمهم غير الحق ولا يستهويهم غير الصدق ولا يرضيهم أن يُزور التاريخ.

٣- وقد حدثنا ابن أبي الحديد عن ألوان تلك الشكوك، وهي تُلخص في أن كثيرًا من أرباب الهوى يقولون: إن كثيرًا من نهج البلاغة كلامٌ مُحدث صَنَعَهُ قوم من فصحاء الشيعة، وربما عَزَوْا بعضه إلى الرضي أبي الحسن وغيره.

(١) أمير المؤمنين هو اللقب الاصطلاحي لعلي بن أبي طالب، فإن رأى القارئ هذا اللقب في كتاب قديم من غير نص على اسم الملقب فليعرف أن المراد به هو علي بن أبي طالب وإذا رأيت بين الأسماء اسم عبد الأمير فاعرف أن المراد عبد علي بن أبي طالب.

ونحن نعتب على ابن أبي الحديد بعض العتب، فإن عبارة "أرباب الهوى" لا تخلو من جفاء، وفيها غصٌّ من أقدار الباحثين الذين أرادوا أن يمسُّوا نهج البلاغة بالوضع والتزييف.

٤- والحقُّ أن الأدب العربي تعرَّض إلى سُبُهات كثيرة من هذا اللون؛ فقد كان للأحزاب السياسية والدينية دخلٌ في تلوين الآثار الأدبية، وقد حدَّثنا بعض المؤرخين عن أشعار أضيفت إلى كثير من القبائل الجاهلية، ألم ينص صاحب الأغاني على أن يزيد بن المفرغ هو الذي صنع الأشعار المنسوبة إلى القبائل اليمنية؟.

٥- ونزاع المذاهب لم يكن أقل من نزاع القبائل، فقد وصل الخصام بين الأمويين والعلويين إلى أقصى حدود القسوة والعنف، ومن المستبعد أن يكون أنصار العلويين قد تفرَّدوا بالتجمل وإيثار الصدق في محاربة أعدائهم من الأمويين وهل يجوز أن يلتزم العلويين الصمت وهم يرون طلائع الشر تفاجئهم من كل باب؟.

لا يقول بذلك إلا من يجهل كيف تأرثت نار العداوة بين الحزبين لذلك العهد، العداوة التي قضت بأن يأمر بنو أمية بسبِّ عليٍّ فوق المنابر، وبأن ينهوا الناس عن تسمية أبنائهم باسمه، وهذا الحمق السياسي غير مستغرب؛ فقد رأينا له شبيهاً في زماننا يوم أمرت إحدى الوزارات المصرية بأن لا يذكر سعد زغلول في الجرائد!.

فالذي يتهم الشيعة بأنهم أنطقوا علياً بأقوال لم يقلها؛ ليؤيدوا قضيتهم المذهبية لا يبعد في حكمه عن الروح الذي كان سرى في الخصومات السياسية لتلك العهود.

٦- ولهذا الرأي شاهد من التاريخ؛ فقد أسرف الشيعة في تحقير يزيد حتى صار مثلاً في الرقاعة والسُّخف، ومع ذلك رأينا من يرفع يزيد إلى صفوف

العظماء، كالذي صنَّع مؤلِّف "نجباء الأبناء" فهو يرد مقالة بقاله؛ ليرفع عن يزيد إصر الأراجيف.

وعلى ذلك لا يُستغرب في سرعة العقل أن تكون مناقب الأمويين والعلويين مدخولة في كثير من الشئون وفقاً لما اصطُح عليه العُرف السياسي من تحقير الأعداء وتعظيم الأصدقاء.

والعُرف السياسي خلَّقه أسلافنا، أو سلكوا فيه مسالك اليونان والرومان وهو عُرفٌ يقضي بأن لا ترى في صديقك غير الحسن، ولا ترى في عدوك غير القبيح.

والأدب العربي مَدِينٌ للإفك السياسي أكبر الدِّين؛ فبفضل ذلك الإفك خُلقت محامدٌ ومثالبٌ هي صور وروائع من الشائِل الإنسانية، ولو خلا أدبنا من ذلك الافتعال الجميل أو البغيض لصار مثلاً في العُجف والهُرَال.

٧- وأقول بصراحة إن التزيد على أمير المؤمنين أمرٌ واقع، وهذا التزيد يشرف من اقترفوه؛ لأنه يشهد بأنهم كانوا رجالاً أقوياء يعرفون كيف يتسلَّحون للحرب السياسية، وهي حربٌ لا ينهزم فيها غير من يتورعون عن الابتداع والافتعال!

وسياتي يوم نعرف فيه أقدار الكُتَّاب البارعين الذين أمدُّوا الحرب السياسية بوقود من سحر الفصاحة والبيان، والذين أذاعوا في محصول الأدب العربي روح القوة والنضال.

٨- التزيد على أمير المؤمنين أمرٌ واقعٌ، والتنصلُّ منه جهل، ولكن المشكلة هي وضع "نهج البلاغة" في موضعه الصحيح.

عندنا في هذا المقام مشكلتان:

الأولى: عبقرية علي بن أبي طالب، عبقرية الخطابية والإنشائية.

والثانية: ضمير الشريف الرضي.

والمشكلة الأولى تحدثت عنها في كتاب "النثر الفني" فقد كان معروفاً أن ابن أبي طالب له مجموعة من الخطب، مجموعة تحدث عنها الجاحظ في مطلع القرن الثالث، وهل يُعقل أن تضع آثار ابن أبي طالب ضياعاً مطلقاً، وكان في زمانه وبشهادة خصومه من أفصح الخطباء، كان عليّ خطيباً مفوّهاً، وكان كاتباً فصيحاً.

فأين ذهبت آثاره في الخطابة والإنشاء؟

وهل يُعقل أن تضع آثاره وحواله أشياع يحفظون كلّ ما ينسب إليه؟

هل يُعقل أن يحفظ الناس أشعار العابثين والماجنين من أهل العصر الأموي وينسوا آثار خطيب قُتل بسببه ألوف وألوف من أبطال الحروب؟

ومن الذي يتصور أن الذاكرة العربية تحفظ أشعار النصارى واليهود وتُنسى خطب الرجل الذي عُسّل بدمه في يوم من أيام الفتن العمياء؟

وإذا جاز أن يحفظ الناس ما دسّه المغرضون على أمير المؤمنين فكيف يجوز أن ينسوا ما نُسب إليه علي وجه صحيح؟

وأين العقل الذي يقبل القول بأن علياً لم يَحْيَ بيأته إلا في الآثار المفتريات؟ أين ونحن نجزم بأن في الشيعة أنفسهم رجالاً من العرب الصُّرحاء الذين يؤذهم الكذب والافتعال؟.

وهل كان الشيعة إلا قوماً تستهويهم السياسية حيناً، ويأسرهم الصدق في أحيان؟

لا مفرّ من الاعتراف بأن "نهج البلاغة" له أصل، وإلا فهو شاهد على أن الشيعة كانوا أقدر الناس على صياغة الكلام البليغ.

٩- أما ضمير الشريف الرضي فهو عندي فوق الشبهات، وهو قد خدّم التشيع بالصدق لا بالافتراء، فإن كان جمّع آثار عليّ بن أبي طالب خدمة سياسية لمذهب التشيع فهو ذلك، ولكنها خدمة أُدِّيت بأسلوبٍ مقبول هو إبراز آثار أمير المؤمنين، ولا يعاب على الرجل أن يخدم مذهبه السياسي، بجميع الوسائل والأساليب ما دام في حدود العقل والذوق.

فإن قيل: إن النقد الصحيح يشهد بأن في مجموعة "نهج البلاغة" أشياء يبعدُ صدورها من عليّ بن أبي طالب بسبب الغلو في العصبية، أو بسبب ضعف الديباجة، أو بسبب التكلف الذي خلّت منه لغة الصدر الأول، بسبب الكلمات الاصطلاحية التي لم تشع في ذلك العهد، إن قيل ذلك فنحن نُجيب بأن إصر تلك الأشياء لا يقع على عاتق الشريف، وإنما يقع على عواتق من سبقوه من الذين طاب لهم أن يُنطقوا أمير المؤمنين بأقوال رأوها تؤيد مذهبهم بعض التأييد.

أنا لا أقول بأن مجموعة "نهج البلاغة" صحيحة النسب إلى أمير المؤمنين في كل ما اشتملت عليه، ففيها فقرات وفصول ينكرها الناقد الحصيف.

ولكنني أقول بأن آثار عليّ بن أبي طالب تعرّضت لمثل ما تعرّضت له سائر الآثار الأدبية والسياسية والدينية، ثم أجزم بأن ما فات الشريف من التحقيق لم يقع عن عمد، وإنما وقع عن جهل بما تعرّضت له تلك الآثار من الوضع والافتراء.

١٠- وهذا الحكم القاسي لا يطوّق به عنق الشريف إلا إن ثبت أن مجموعة "نهج البلاغة" لم تُعرّض بعد وفاته للزيادات والإضافات التي تُوجبها النزعة المذهبية في عصور وصل فيها الكفاح السياسي إلى أبعد حدود

القسوة والعنف، فإن ثبت بعد البحث أنا سلّمت من الزيادات فهي شاهد على أن الشريف كان يعوزه التدقيق في بعض الأحيان.

أما اتهامه الكذب على أمير المؤمنين في سبيل النزعة المذهبية فهو اتهام مردود، ولا يقبله إلا من يجهل أخلاق الشريف.

١١- ومهما تكن حال "نهج البلاغة" فهو وثيقة أدبية وتاريخية وسياسية قليلة الأمثال، هو إن صحَّ صورة من صور النضال السياسي في مطلع العصر الأموي، وإن لم يصح فهو أيضًا صورة لذلك النضال حسبها فهمت الأجيال التي سبقت مولد الشريف، وهو كذلك ثروة أدبية ولغوية تؤرِّخ اللغة في ذلك العهد، أو تؤرخ ما فهم الناس أنها كانت عليه في ذلك العهد، وهو أيضًا يصور ما فهم العرب من أصول السياسة والمعاش وتدير الملك في أعقاب عصر النبوة، أو ما تمثلوه بعد ذلك من تلك الأصول.

هو في جميع الاحتمالات خدمة أداها الشريف إلى اللغة والأدب والساسة والأخلاق.

وإني لأعتقد أن النظر في كتاب نهج البلاغة يورث الرجولة والشهامة وعظمة النفس؛ لأنه فيض من روح قهار واجه المصاعب بعزائم الأسود.

١٢- وهناك خدمة ثانية أداها كتاب نهج البلاغة للغة العربية، فقد كان فرصة ثمينة لحركة الأفهام والعقول.

ألا تعرفون شرح ابن أبي الحديد؟

إن ذلك الشرح هو من ذخائر اللغة العربية؛ ففيه فوائد أدبية ولغوية وتاريخية وفقهية لا يستهين بها إلا الغافلون عما في ماضيها الأدبي والعلمي من أطياب وفرائد آيات.

١٣- فإن ذكركم أن نهج البلاغة شرح نحو أربعين مرة، وإن ذكركم أن فيه فصولاً تُرجمت إلى بعض اللغات الشرقية والغربية، وإن ذكركم إنه فتح أمام النقد أبواباً ومذاهب، وإن ذكركم أن له فضلاً على أكثر الفصحاء من الخطباء، وإن ذكركم أنه أشهر مجموعة وأكبر مجموعة حفظت منسوبة إلى عصر الخلفاء، وإن ذكركم أن له شرقاً وغرباً، ولم تخل منه مكتبة عربية أو أعجمية من المكتبات التي تستوفي المراجع، وإن ذكركم أن مؤنّديه لم ينكروا قيمته الأدبية.

إن ذكركم كل هذه الخصائص عرفتم أن الشريف خدم الأدب واللغة والأخلاق بجمع أصول ذلك الكتاب الفريد، وصدق أبو فراس حين قال:
ومن شرفي أن لا يزال يعينني حسودٌ على الأمر الذي هو عائبُ

زكي مبارك

مصر الجديدة

في الثامن من صفر سنة ١٣٥٩